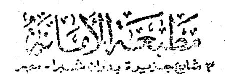


مدرس البلاغة والنقد
بجامعة الأزهر

دراسات في علم المعاني

في ضوء النظم القرآني

الطبعة الأولى



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيد السادات سيدنا محمد البشير النذير الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه ، ومن سار على نهجه الى يوم الدين

وبعد ...

فهذه فصول من علم المعانى بدأت بالحديث عن أحوال المسند اليه ، وانتهت بالحديث عن أحوال متعلقات الفعل ، وقد توخيت فيها سهولة العرض ، ووضوح العبارة لتتحقق الفائدة المرجوة ، وقد عالجت هذه الفصول على مستوى ما جاء فى كتاب الايضاح للخطيب القزوينى غالبا ، مبتعدا عما ورد فيه من بعض المناقشات الجدلية لبعض المسائل لبعدهما عن النهج البلاغى والذوق الأدبى ، وجنوحها نحو الناحية العلقية المنطقية التى ليس فيها كبير غناء فى الدراسة البلاغية .

كما أنى عالجت بعض القضايا التى تحتاج الى بعض التوسع فى خارج نطاق دائرة الايضاح لتكتمل الصورة ، وتعم الفائدة مسترشدا فى ذلك ببعض المراجع الأساسية فى الميدان البلاغى كدلائل الاعجاز والكشاف والمفتاح وغيرها ، وقد ناقشت المسائل التى تحتاج إلى مناقشة موضوعية تهدف الى الوصول الى الهدف المنشود ، دون تعصب لرأى ؛ أو رفض لفكر على غير أساس يستحق النظر اليه ؛ كما أنى حاولت — ما واتتنى الفرصة — أن أسترشد بأساليب القرآن الكريم فى عرض القضايا ، ابرازا لبعض نواحى البلاغة القرآنية ، وتطبيقا عمليا لنظرية النظم على بعض الآيات القرآنية .

والله سبحانه وتعالى — هو المسئول أن يتقبل هذا العمل ، وينفع به ، وييسر لنا جميعا سبيل الوقوف على بعض أسرار كتابه من خلال دراساتنا لقضايا البلاغة التى لن تتحقق الثمرة المرجـــوة منهـــا الا بالتطبيق على هذا الكتاب العزيز ، وعلى الجيد الفصيح من كلام العرب، وهذه قضية ينبغى أن تنال العناية اللائقة بها من المشتغلين بالدراسات البلاغية والنقدية .

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا .

د. عبد الجواد محمد محمد طبق

أحوال المسند إليه

المسند اليه هو المحكوم عليه فى الجملة ، ويشمل ذلك الفاعل ونائبه ، والمبتدأ وما فى حكمه ، وأحواله هى الأمور التى تعرض له من ذكر أو حذف وتعريف أو تنكير وتقديم أو تأخير الى غير ذلك من المباحث التى سنذكرها تفصيلا بمشيئة الله تعالى .

حذف المسند اليه : تمهيد

جرت عادة البلاغيين أن يبدءوا عند الحديث عن أحوال المسند اليه بذكر الحذف مع أن الذكر هو الأصل ، وكان الظاهر أن يبدءوا بالأصل ، ولكنهم عدلوا عن هذا الأصل اما لأن الذكر وجود ، والحذف عدم ، والعدم أسبق من الوجود فراعوا هذا الاعتبار ، أو لأنه لما كان الذكر هو الأصل كانت دواعى ذكره ليست لها من القوة والفاعلية مثل دواعى الحذف،لأن الحذف عدول عن الأصل،ولا يعدل عن الأصل الا لسبب قوى ، فلما كانت اعتبارات الحذف أقوى وأمكن فى النفس من اعتبارات الذكر بدءوا بالكلام على الحذف .

هذا ولا يسوغ الحذف فى الكلام العربى بصفة عامة الا بشرطين:

أولهما : القرينة الدالة على المحذوف ، فلو حذف جزء من الكلام أو من الكلمة ، دون دليل لم يجز هذا الحذف ، لأن الكلام حينئذ يصير من باب الالغاز والتعمية ، وهذا الشرط مجال البحث فيه هو علم النحو.

ثانيهما : وجود داع من الدواعى التى سنتعرض لها ترجح الحذف على الذكر ، اذ إن الحذف مع وجود القرينة الدالة عليه دون مقتض عبث فى الكلام ، وهذا هو مجال البحث البلاغى الذى يختص ببحث الأحوال والدواعى فى الكلام والتى بها يطابق مقتضى الحال ، كما هو أساس البحث فى علم المعانى .

وعن قيمة الحذف فى الكلام ، والذى يأتى على هذا المنوال يقول عبد القاهر :

« هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فانك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الافادة أزيد للافادة ، وتجدك أنطق ما تكون اذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا اذا لم تبن »(١)

فالبناء التقليدى للجملة لا يضفى عليها جدة وطرافة ، أو يجذب الانتباه الى ما ترمى اليه بسبب الفه فى الأسماع ، وملالته فى الأذهان ، لكن الكلام اذا أتى على نمطه العادى لغرض من الأغراض فانه يشد الانتباه ، ويحفز العقل الى التفكير والتدبر فيما يقصد اليه ويجعل له وقعا طيبا فى النفس ، فيستقر فيها ، لأن الحصول على الشىء بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب كما يقولون .

ولا شك أن ذكر أركان الجملة بتمامها مع قيام القرينة على بعضها اذا حذف يكون فيه نوع من الفضول أو ما يشبهه ، كما أن فيه اساءة ظن بالقارىء أو السامع من حيث ذكاؤه وفطنته ، كما أن ذلك مدعاة لجمود العقل ، وركود الفكر ، وهو عكس الغاية المرجوة منه ، والأسلوب الأدبى الرصين ينبغى أن تحكم عبارته ، وتجود فكرته ،ويدق هدفه ، ويعز مطلبه والبناء التقليدى للعبارة — اذا لم يستدعه داع — لا يحقق هذا الهدف الذى يحرص عليه الأدباء .

والمتتبع لموضوع الحذف فى الكلام العربى يجده أحيانا يكون فى حذف جزء من الكلمة ، أو جزء من الجملة ، أو جملة بأسرها .

وقد جرت عادة البلاغيين أن يتحدثوا عن حذف جزء من الجملة

(١) دلائل الاعجاز ص ١٧٨ .

فى أحوال المسند اليه ، والمسند ومتعلقات الفعل ، وحذف الجملة أو الجمل من الكلام فى باب الايجاز بالحذف ، ولكنهم لم ينظموا فى سلك حديثهم عن الحذف حذف جزء من الكلمة ، مع أن هذا الحذف وارد فى الأسلوب العربى الفصيح ، وله أغراضه وبواعثه التى قد نفطن اليها أحيانا ، وأحيانا يعز علينا الوصول الى هذا الغرض ، ولكن هذا لا يثنينا عن المحاولة مادمنا بصدد البحث عن الأحوال التى تعرض للفظ العربى وتجعله مطابقا لمقتضى الحال •

وفيما يلى لمحة خاطفة عن حذف جزء من الكلمة ، ومحاولة لاكتشاف الباعث على ذلك ، ليكون وراء هذا كله نموذج يحتذى فى بقية الألفاظ الأخرى التى حذف منها جزء فى الأسلوب العربى الفصيح ، لنتوقف أمامها بالنظر والتأمل ، أو ننقب عنها فى مظانها من المراجع ان أعيانا النظر والتأمل فى الباعث الحثيث على هذا الحذف •

نلاحظ مثلا فى قصيدة لعنترة مشهورة يفخر فيها بشجاعته وفروسيته ، ويهدى هذه البطولات الى ابنة عمه عبلة التى أصبح حديثه عنها ملء الأسماع والأذهان : فيقول :

يدعون عنتر والرماح كأنها ۔۔ أشطان بئر فى لبان الأدهم

وهنا نلاحظ أن الحرف الأخير من اسمه محذوف ، والأصل عنترة ، ولكن حذف هذا الحرف فيه دلالة قوية ، وايحاء بالموقف الذى الذى كان فيه عنترة ، حيث انه كان مع قومه وفرسانه فى حالة حرب مع الأعداء ، وكانت رماحهم لطولها تشبه الحبال الطويلة التى يستخرج بها الماء من البئر ، وهذه الرماح الطويلة كانت مصوبة نحو صدر فرسه ، وفى هذه المعركة الملتهبة نجد قومه ورفاقه — ثقة منهم بشجاعته — يدعونه للنزال والجلاد ، والسرعة فى الاستجابة ، فليس عندهم من الوقت ما يسمح لهم بذكر اسمه كاملا ، لأن الموقف يحتم عليهم ذلك ،

وعلى هذا النحو أيضا كما يقول عنترة فى بيت آخر من هذه القصيدة نفسها ، مشيدا بشجاعته مشيرا الى بطولته ، واعتراف الفوارس بها، مما أذهب عنه عناء الحرب ، وأبرأ نفسه من آلامها وطعانها • يقول :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها   قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

قيل الفوارس : أى قولها ، وهو فاعل : شفى ، وأبرأ ، ويك : أى عجبا لك ، و « عنتر » أصـله « يا عنتر » وهنا نلاحظ — زيادة على ما سبق •• حذف ياء النداء ، وهذا الحذف ملائم جدا للموقف ، بدليل دعوة الفوارس له أن يقدم فى المعركة ، فهو بطلها المغوار ، وفارسها المقدام ، حتى ان الفوارس يستنجدون به ، وليس عندهم من الفسحة أو الفرصـة ما يجعلهم ينطقون الاسـم كاملا ، أو يذكرون معه حرف النـداء •

ومن قبيل حذف الكلمة أيضا قوله تعالى : « ونادوا يا مال ليقض علينا ربك » فى قراءة من حذف الكاف من « مالك » فقرأها « مال » لأن هذا كلام محكى عن أهل النار الذين ينادون خازنها وهو مالك ، وهم ينادونه وهم فى غاية الكرب والضيق ، لدرجة أنهم يتمنون أن يقضى الله عليهم بالهلاك لشدة ما هم فيه ، ولذلك لم يستطيعوا أن ينطقوا اسـم مالك كاملا •

ومن هذا القبيل أيضا قول لبيد يحدث عن المنـازل الدارسـة ، والأطلال الباقية :

درس المنا بمتالع فأبانا

أراد درس المنازل ، فحذف حرفين من الكلمة ، وهم يوردون هذا الحذف فى باب الحذف الشاذ للضرورة ؛ مع أنه قد يكون وثيق الصلة بالمعنى وبالغرض الذى يتحـدث عنه ، لأنه يتحدث عن منازل دارسة ،

قد شوهت ، وانتقص منها ، فلم يبق منها الا أطلالها ، وقد ذهب الكثير من معالمها ، ولذلك انتقص من اللفظ الدال عليها ، ليكون الانتقاص من اللفظ مناسبا للانتقاص من المدلول عليه وهى المنازل ، فيكون هنـــاك ارتباط وثيق بين اللفظ والمعنى (١) ... وهكذا

الى غير ذلك من النماذج التى وردت فى فصيح كلام العرب ، والتى يجب أن نتوقف أمامها طويلا قبل أن نحكم بالشذوذ أو الضرورة .

هذا ومما تجدر ملاحظته هنا أن أى حذف فى الكلام الفصيح لابد أن يهدف الى الايجاز وصون العبارة عن الثقل وايهام الحشو والزيادة مع دلالة القرينة ، واثارة الحس والوجدان وتنشـــيط العقـــل والذهن للوصول الى المحذوف من الكلام ، وفهم المعنى المراد ، وهذه أهداف عامة يندرج تحتها كل حذف بلاغى .

ولننتقل الأن الى تفصيل القول فى أغراض حذف المسند اليه بعد هذه المقدمة الضرورية .

أغراض حذف المسند اليه :

ليس من الممكن حصر هذه الأغراض ، أو تحديدها تحديدا دقيقا ، لأنها أمور تتصل بالنفس والدواعى الكامنة فيها ، وتعتمد على الـــذوق والشعور ، وكل ما كان هذا شأن تجد من الصعوبة بمكان أن تحصره أو تحده على نحو ما نفعل فى الأمور العقلية البحتة أو المنطقية الصرفة ، ولذلك نجد الخطيب القزوينى بعد أن ذكر نماذج للأغراض الداعيـــة للحذف أشار الى أنها غير محدودة ، وانما يتوصل اليها بالطبع السليم المعتمد على فكر صائب يفصل بين الاعتبار المناسب فى الحذف وغيره ،

---

(١) : خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ص ١١٣ .

وعبارته فى ذلك : « واما لاعتبار آخر مناسب لا يهدى الى مثلــه الا العقل السليم والطبع المستقيم »(١)

وسنحاول فيما يلى ابراز أهم الأغراض الداعية للحذف لتكــون أساسا يمكن الارتكاز عليه فى هذا المقام •

١ ــ اتباع الاستعمال الوارد على تركه كما فى الأمثال العربية، لأن الأمثال لا تغير ، وذلك كما فى قولهم : « رمية من غير رام » أى هى رمية ، وهو مثل يضرب لمن صدر منه فعل ليس هو أهلا له ، وقد قاله الحكم بن عبد يغوث حينما حاول اصطياد مهاة مرات عديدة فلم يفلح مع أنه الماهر المدرب ، بينما أصاب ابنه مطعم هذا الهدف من أول مرة مع أنه غير مدرب •

ومن ذلك أيضا قولهم : قضية ولا أبا حسن لها ، أى هى قضية أو هذه قضية ، وقولهم : « شنشنة أعرفها من أخزم » وهذا المثل قــاله أبو أخزم الطائى ، وكان له ابن عاق مات فى حياته ، وكان يؤذيه،وخلف أولادا له ، وكانوا يثبون على جدهم فيؤذونه أيضا ، فقال جدهم هــذا المثل •

والحذف فى هذه الأمثلة للايجاز وتركيز العبارة مادام المسند اليه معلوما من المقام •

ومن هذا القبيل اتباع الاستعمال الوارد على ترك نظائر المسند اليه كما فى النعت المقطوع فى المدح أو الذم أو الترحم ، كمــا فى قولك : الحمد لله الحميد ، برفع الحميد أى هو الحميد ، وقولك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أى هو الرجيم ، وقولك : اللهم ارحم عبدك المسكين أى هو المسكين ، فقد جرت عادتهم أن يحذفوا المسند اليه فى مثل هذه

(١) بغية الايضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى ص ٦٤ جـ ٣ •

الشواهد ، لأنه معلوم مما سبق،وعلى هذا النحو وجدنا العرب يتركون ذكر المسند اليه فى بعض استعمالاتهم من ذلك :

أ — أنهم عندما يذكرون الديار أو الأطلال يأتون بالخبر دون المبتدأ ، كما فى قولهم ، وهو من شواهد الكتاب :

اعتــاد قلبك من ليلى عــوائده
وهاج أهواءك المكنونة الطــلل
ربع قــواء أذاع المعصرات به
وكل حيران سار ماؤه خضل(١)

أراد ذلك ربع قواء ، أو هو ربع
ومن ذلك أيضا قول الآخر :

هل تعرف اليوم رسم الدار والطللا
كما عرفت بجفن الصيقــل الخــللا
دار لميــة اذ أهــلى وأهلهــم
بالكانسية نرعى اللهــو والغزلا (٢)

أى تلك دار

فالشاعر هنا بعد أن ذكر هذه الديار أصــبحت رســوما وأطلالا ذات شكل خاص فى اختلافها وحسنها فى عينيه والتى تشبه توشية الخلل

---

(١) المعصرات : السحاب ، والحيران : السحاب السارى وخضل : كثير ، والقــواء : هو الذى لا أنيس به ، وأذاع به : ذهب به ، والمراد أن كثرة الأمطار الهاطلة على هذه الديار قد طمستها حتى كادت تذهب بها .

(٢) الصيقل : السيف المصقول . الخلل بالكسر واحدها خلة وهى جفن الســيف المغطى بالجلد او البطــانة التى يغشى بهــا جفن الســيف ، والكانسية : موضع .

وهى أغشية جفون السيوف ، بعد أن ذكر ذلك استأنف كلاما جديدا فى البيت الثانى بين فيه ذكرياته الجميلة مع محبوبته عندما تجاوز أهلــه وأهلها فى هذا المكان •

ويعلق الامام عبد القاهر على حذف المبتدأ فى هذين الشــاهدين بقوله : « وهذه طريقة مستمرة لهم اذا ذكروا الديار والمنازل»(١) وهذا ما دعانا الى أن نسلك هذه المسألة فى سلك اتباع الاستعمال الوارد :

ومن ذلك أيضا قول امرؤ القيس :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى
وهل يعمن من كان فى العصر الخالى
وهل يعمن الا ســعيد مخلــد
قليل الهموم ما يبيــت بأوجــال
وهل يعمن من كان أحدث عهده
ثلاثين شــــهرا فى ثلاثة أحــوال
ديار لسلمى عافيات بذى الخال
ألح عليها كل أســـــحم هطــــال

أى هذه ديار أو تلك ديار

ولم يشر الامام عبد القاهر الى المغزى البلاغى الكامن وراء حذف المبتدأ فى مثل هذه المواقع سوى أنك تحس فرقا كبيرا بين ذكره وحذفه من الناحية النفسية ــ كما ستأتى عبارته ــ والامام ينطلق فى هــذه المسألة أيضا ــ أعنى مسألة الحذف هنا من منطلقه العام فى علاج القضايا البلاغية وهو منطلق الطبع والذوق السليم •

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٧٩ •

واذا ما حاولنا التماس تعليل محدد هنا يتفق مع هـذا الطبـع السليم فانه ربما يرجع الى أن الحالة النفسية والانفعال النفسى يكون على أشده كما نلمس ذلك فى الأبيات السابقة للبيت الذى حذف فيـه المسند اليه ، ثم يأتى بعد ذلك ذكر المسند ممتزجا بهذه الحالة ، ومتصلا بها ، وكأن ذكر المسند اليه يقطع الخيط الشعورى الدقيق الذى يربط بين الحالة النفسية قبل وبعد ذكر المسند ، فضلا عن أن المسند اليـه هنا ماثل فى الذهن ، شاخص فى الفكر ، لأن الحديث السابق عليه كان وثيق الاتصال به •

ب ـــ « ومن المواضع التى يطرد فيها حـذف المبتـدأ القطـع والاستئناف ، يبدءون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ، ثم يدعـون الكلام الأول ويستأنفون كلاما آخر ، واذا فعلوا ذلك أتوا فى أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ » (١) •

أشار عبد القاهر فى هذه الفقرة الى جـانب آخـر من جـوانب الاستعمالات العربية التى تسير على نمط حذف المبتدأ ، وذلك أنه جرت عادتهم غالبا أنهم عندما يذكرون الرجل وبعض أوصافه يقطعون سياق الكلام ، ولا يسيرون فيه على وتيرة واحدة ، بل يستأنفون استئنافا جديدا فيذكرون كلاما جديدا يتعلق بالرجل دون أن يذكروه ، ولم يبين لنا عبد القاهر أيضا سر هذا الصنيع ، وهو ليس ببعيد أيضا عن الصنيع السابق فى الأسلوب ، كما أن غرضه أيضا يسير فى اتجاهه ، وان كنـا نستطيع أن نضيف هنا بعض اضافة ، ذلك أنهم عندما يذكرون الرجل وبعض أوصافه يقطعون الكلام والسياق العادى ولعل فى ذلك اشارة الى الترقى الكبير ، والانتقال المفاجىء من هذه الصفات الى صفة أخرى لها شأن كبير وحظ عظيم ، فليست كالصفات النمطية السابقة ، فيكون صنيعهم

---

(١) المرجع السابق والموضع نفسه •

غير النمطى فى الأسلوب موافقا للانتقال الى صفة بارزة فى المتحدث عنه، وبالمثال يتضح المقال من استدلال عبد لقاهر على هذا الصنيع فى قول عمرو بن معد يكرب الزبيدى :

وعلمت أنى يوم ذا ... ك منازل كعبا ونهدا

قوم اذا لبسوا الحديد تنمروا حلقا وقدا(١)

فالشاعر قد ذكر فى البيت الأول أنه منازل هاتين القبيلتين المعروفتين بشجاعتهما وقوتهما ، ثم لم يشأ أن يسترسل فى ذكر صفاتهما على النمط العادى من الأسلوب ، بل قطع الكلام ، وتحدث عن أبرز صفة لهم فى الشجاعة والاستعداد للحرب بأنهم اذا لبسوا الحديدتنمروا حلقا وقدا ، هذا فضلا عما فى هذا الحذف من الايجاز وتركيز العبارة الذى يوائم الجو النفسى الذى يعيشه الشاعر فى هذا الحديث .

ومن شواهد عبد القاهر أيضا فى هذا المقام قول الآخر :

أرى الخلان بعد أبى خبيب
وحجر فى جنابهم جفاء
من البيض الوجوه بنى سنان
لو أنك تستضىء بهم أضاءوا
لهم شمس النهار اذا استقلت
ونور ما يغيبه العماء
هم حلوا من الشرف المعلى
ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

---

(١) تنمر : تشبه بالنمر . القد : الجلد تصنع منه بعض الدروع ، الحلق : هى حلق الدروع ، والمراد بها الدرع نفسه . نهد وكعب قبيلتان والتنمير [illegible]

بناة مكـارم وأسـاة كلـم
دماؤهم من الكاب الشفاء (١)

وقول الشاعر أيضا وهو أسيد بن عنقاء الفزارى عندما أغار قوم من العرب على ابل له فاستاقوها ختى لم يبق منها شىء ، فرق لحـاله ابن أخيه عميلة الفزارى فشاطره ماله ، فقال أسيد :

رآنى على ما بى عميلة فاشتكى
الى ماله حالى أسر كمـا جهـر
دعانى فآسانى ولو ضن لم ألم
على حين لابدو يرجى ولا حضر
فقلت له خيرا وأثنيت فعلـه
وأوفاك ما أوليت ذم أو شـكر
ولما رأى المجد استعيرت ثيـابه
تردى رداء سابغ الذيل واتزر
غلام رماه الله بالخـير يافعا
له سـيماء لا تشق على البصر

وقول موسى العنبرى فى خاليـه :

اذا ذكر ابنا العنـبرية لم تضق
ذراعى وألقى باسته من أفاخر

(١) الكلم : الجرح . الكلب بفتح اللام : ما يصيب الانسان اذا عضه الكلب، والعرب كانوا يتوهمون إن من عضه كلب يعالج يشرب دم يقطر من إصبع رجل شريف ، والتقدير هم بناة مكارم .
(٢) اليافع : الشـاب ، السـيماء : الحسـن والبهاء ، والتقـدير : هو غلام .

هلالان حمـــالان فى كل شـــتوة
من الثقل ما لا تستطيع الأباعر

يمدح خاليه بأنهما مشهوران يحملان من الأعباء الثقيلـــة فى وقت الجدب ما تنوء بحمله الجمال •

والتقدير هما هلالان •

جـ ـــ وهناك موضع آخر يسير أيضا على نمط حذف المبتـــدأ ، أشار اليه عبد القاهر بقوله :

« ومما اعتيد فيه أن يجيء خبرا قد بنى على مبتدأ محذوف قولهم بعد أن يذكروا الرجل : فتى من صفته كذا وأغر من صفته كيت وكيت كقوله :

ألا لافتى بعد ابن ناشرة الفتى
ولا عرف الا قـــد تولى وأدبرا
فتى حنظلى ما تزال ركابه
تجود بمعروف وتنكر منكرا(١)

وقـــوله :

سأشكر عمرا أن تراخت منيتى
أيادى لم تمنن وان هى جلـــت
فتى غيرمحجوب الغنى عنصديقه
ولا مظهر الشكوىاذا النعل زلت

---

(١) ابن ناشرة : عبد الله ، والحنظـــلى : نسبة الى حنظلة بن مالك والعرف هو المعروف وركابه : رواحله التى تحمل خيره الى الناس • يرثى ابن ناشرة هذا بأنه ليس هنـــاك فتى من بعده ولا معروف بعد معروفه الذى كانت تحمله رواحله الى الناس ، والتقدير هو فتى ، وكذلك فيما بعده

رأى خلتى من حيث يخفى مكانها
فكانت قذى عينيه حتى تجلت (١)

وهذا الموضع أيضا كسابقه ، غاية الأمر أنهم هنا بعد أن يذكروا الرجل ببعض صفاته لا يقطعون ويستأنفون بذكر صفة أخرى ، بل يستأنفون بذكر لفظ « فتى » ، ثم يتبعونه بذكر أبرز صفاته ، وأعظم مناقبه ، كما هو واضح مما سبق •

ولعل هذه ان كانت طريقة لهم فى ذكر الرجل وأوصافه ، ثم ذكر الخبر بعد ذلك دون مبتدئه ، فهى طريقتهم أيضا فى ذكر الفتاة ببعض صفاتها ، ثم ذكر أبرز هذه الصفات بعد ذلك على طريقة الخبر الذى حذف مبتدؤه ، للاشارة الى قيمة هذه الصفات وبروزها فى الفتاة ، مع الايجاز الدقيق بحذف المبتدأ ، والذى يؤدى ذكره أيضا الى اضطراب الخيط الشعورى النفسى الذى يملأ النفس ويسيطر عليها كما سبق •

ولعل مما يؤيد هذه الطريقة مع المرأة ان عبد القاهر بعد أن ذكر الشاهدين السابقين على طريقة ذكر الرجل ، ثم ذكر لفظ « فتى » من صفته كيت كيت أورد شاهدين آخرين وردا على طريقة ذكر بعض الصفات لها ، ثم ذكر أبرز هذه الصفات على طريقة الخبر المحذوف المبتدأ • قال : « ومن ذلك قول جميل :

وهل بثينة يا للناس قاضيتى
دينى وفاعلة خيرا فأجزيها
ترنو بعينى مهاة أقصدت بهما
قلبى عشية ترمينى وأرميها

---

(١) البيت الأخير لم يورده عبد القاهر وينظر دلائل الاعجاز ص ١٩٨٢/٨١ •

هيفاء مقبلة عجـــزاء مدبرة
ريا العظام بلين العيش غاذيها (١)

وقوله :

انى عشية رحت وهى حـزينة
تشـكو الى صـبابة لصـبور
وتقول : بت عندى ــ فديتك ــ ليلة
أشكو اليـــك فان ذاك يسير
غراء مبســـام كأن حديثهـا
در تحـدر نظمـــه منثور
مخطوطة المتنين مضمرة الحشا
ريا الروادف خلقها ممكور (٢)

والتقدير : هى : هيفاء ، وهى غراء ، وهى مخطوطة المتنين .

وبعد أن أورد عبد القاهر هذه الشواهد أراد أن يرشدك بطـريق الذوق هنا الى قيمة حذف المبتدأ فيها بطريقة عملية ، وذلك بأن تذكـر المبتدأ فى هذه المواضع التى حذف منها لتدرك بنفسك الفرق الكبير بين ذكره وحذفه ، وقيمة هذا الحذف الذى حسن به الكلام . قال :

« فتأمل الآن هذه الأبيات كلها واستقرها واحدا واحدا وانظـر

---

(١) الرنو : هو ادامة النظـر مع ســكون الطـرف ، أقصــدت بهما : أى أصابت سهامها قلبى ، الهيفـاء : الضامرة البطن الدقيقة الخصر . ريا العظام : غضة العظام ناعمتها . والعجزاء : كبيرة العجز .

(٢) غراء : صبوحة الوجه . مبســام : كثيرة الابتسـام ، مخطوطة المتنين : أى أن جانبى سلسلة الظهر ليسا بارزين . الحشا : البطن . ريا الروادف : ممتلئة الاعجـاز . ممكور : مجـدولة الخلق وينظـر الدلائل ص ١٨٢ .

الى موقعها فى نفسك ، والى ما تجده من اللطف والظرف اذا أنت مررت بموضع الحذف منها ، ثم فليت النفس عما تجد وألطفت النظر فيمـــا تحس به ، ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر ، وأن تخرجه الى لفظك وتوقعه فى سمعك فانك تعلم أن الذى قلت كما قلت ، وأن رب حـــذف هو قلادة الجيد ،وقاعدة التجويد »(١)

ومن الملاحظ أن الحذف فى جميع الشواهد السابقة كان منصدور الأبيات ، وهو ما يشبه أن يكون كلاما جديدا ، ومع ذلك فانك لو ذكرت المحذوف فان الكلام لا يحسن حسنه الأول مع الحذف ، على الرغم من أنه قد يرد الى الوهم امكان الذكر ، لأن الحذف من صدر الكلام ، ولذلك أراد عبد القاهر أن يعطيك شاهدا أتى الحذف فيه فى أثناء الكلام دون بدايته لتستدل منه بطريق أقوى على أن هذا المحذوف ينبغى أن يذهب من خيالك ، ويبعد عن وهمك ، وكأن الكلام بنى على ذلك ابتداء ، وأتى على سننه الطبيعى ، لأن مجرد تقدير هذا المحـــذوف ـــ من الجـــانب البلاغى ـــ يذهب بقيمته ، ويقضى على مزيته • قال :

« وان أردت ما هو أصدق فى ذلك (٢) شهادة ، وأدل دلالة فانظر الى قول عبد الله بن الزبير يذكر غريما له قد ألح عليه :

عرضت على زيد ليأخذ بعض ما
يحاوله قبل اعتراض الشواغل
فدب دبيب البغل يألم ظهــره
وقال تعلم أننى غير فاعل

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٨٣ •
(٢) أى من أنه لا يستوى الحذف مع الذكر فى الحسن •

تثاءب حتى قلت داسع نفسه
وأخرج أنيابا له كالمعاول (١)

الأصل : حتى قلت : هو داسع نفسه ، أى حسبته من شدة التثاؤب ، ومما به من الجهد يقذف نفسه من جوفه ، ويخرجها من صدره كما يدسع البعير جرته ، ثم انك ترى نصبة الكلام وهيئته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ أو تباعده عن وهمك ، وتجتهد ألا يدور فى خلدك ولا يعرض لخاطرك ، وتراك كأنك تتوقاه توقى الشىء يكره مكانه ، والثقيل يخشى هجومه » (٢) .

٢ ــ وقد يكون سر الحذف هو أن الاهتمام منصب على الخبر دون المبتدأ ؛ لأنه محط الفائدة ، ولأن المبتدأ قد سبق ذكره ، وليس فى اعادة هذا الذكر فائدة جديدة ، وانما الاهتمام مركز ومنصب على الخبر ولذلك يذكر دون مبتدئه ؛ لأن الخبر هو المقصود ، ولعل هذا هو ما يفهم من تعقيب عبد القاهر على بعض الأبيات التى أوردها على الحذف بقوله :

« ومن لطيف الحذف قول بكر بن النطاح :

العين تبدى الحب والبغضا
وتظهر الابرام والنقضا
درة ما أنصفتنى فى الهوى
ولا رحمت الجسد المنضى

(١) داسع نفسه : مخرجها ، ودسع : قاء ملء الفم ، ودسع بقيئه : رمى به .
(٢) المرجع السابق والموضع نفسه .

غضبى ولا والله يا أهلهـــــا
لا أطعم البـــارد أو ترضى(١)

يقول فى جارية كان يحبها ، وسعى به الى أهلها فمنعوهـــا منه ، والمقصود قوله (غضبى) وذلك أن التقدير « هى غضبى » أو « غضبى هى » لا محالة ، الا أنك ترى النفس كيف تتفادى من اظهـــار هـــذا المحذوف ، وكيف تأنس الى اضـــماره ، وترى الملاحة كيف تذهب ان أنت رمت التكلم به »(٢)

فقول عبد القاهر هنا : « والمقصود قوله : غضبى » يشـــير الى المغزى البلاغى لهذا الحذف وهو أن الخبر هو المقصـــود بالذكر دون المبتدأ ، ولذلك تفادت النفس اظهاره ، وأنست الى اضماره بل ان مجرد ارادة التكلم به تذهب بملاحة الكلام فضلا عن التكلم به فعلا .

وعلى هذا النمط أيضا أورد عبد القاهر قول معـــاوية بن مالك بن جعفر يخاطب امرأته وقد لامته على الجود :

قالت سمية قد غويت بأن رأت
حقا تنـــاوب مالنـــــا ووفودا
غى لعمرك لا أزال أعـــوده
ما دام مال عنـــدنا موجودا

يريد أن هذا الغى لن أتركه ، وسأعاوده دائما مادام عندى مال ، فدعي عنك لومى ، والتقدير ذاك غى أو هذا غى .

---

(١) درة : اسم حبيبته ـ المنضى : الذى انضاه الحب ، أى اتعبه وهزله
(٢) دلائل الاعجاز ص ١٨٤ .

ومن هذا القبيل قول جميل بثينة :

اذا قلت ما بى يا بثينـــة قاتلى
من الوجـــد قالت ثابت ويزيد

أى هو ثابت ويزيد •

٣ ــ ايهام صون لسانك عنه لحقـــارته ، أو صـــونه عن لسانك لعظمه وعلو شأنه ، فمن الأول قول الأقيشر فى ابن عم له موسر سأله فمنعه قائلا كم أعطيك وأن تنفق المال فيما لا يعنيك ولن أعطيك بعـــد ذلك ، فانتظر ابن عمه الممنوع من العطاء حتى اجتمع القوم فى ناديهم فشكاه اليهم وذمه ؛ فسارع اليه ابن عمه فلطمه فأنشأ يقول :

سريع الى ابن العم يلطم خـــده
وليس الى داعى الندى بسريع
حريص على الدنيا مضيع نصيبه
وليس لمـــا فى بيتـــه بمضـــيع

أى هو سريع

ومن الثانى قولك : رافع راية التوحيد مقوض دعائم الشرك ، تريد محمدا صلى الله عليه وسلم •

٤ ــ تأتى الانكار وتيسره عند الحاجة اليه كقولك : « فاجـــر غادر » فى حضور جماعة عندك مثلا من بينهم خصم لك • أى : فلان •

٥ ــ تعين المسند اليه اما لأن المسند لا يصلح الا له حقيقة أو ادعاء ، واما لحضوره فى ذهن المخاطب ، ومثال الأول قوله تعالى : عالم الغيب والشهادة » أى الله سبحانه وتعالى ومثال الثانى قولك : « رافع راية الشورى » تريد عمر الفاروق رضى الله عنه ، وانما كان المسند اليه

متعينا حقيقة فى الأول ، لأن الخبر لا يصلح الا له فى الواقع ، اذ ليس هناك عالم للغيب سوى الله سبحانه وتعالى ، وكان تعينه حكما فى الثانى لأنه ربما يكون هناك من رفع لواء الشورى غير عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولكنك ادعيت أن ليس هناك سواه فى ذلك ، وأنه لو وجـــدا فلن يعتد به •

ومثال الثالث أن يكون بينك وبين مخاطبك حديث فى شأن شخص معين ، ثم تقول له : حضر أى حضر الشخص المعهود وبينى وبينـــك فى الحديث •

هذا ومن حذف المسند اليه لتعينه حقيقة بسبب ظهوره ظهورا قويا لا مجال فيه للبس قوله تعالى : « توارت بالحجـاب » أى الشمس ، وقــوله جل شـــأنه : « كلا اذا بلغت التراقى » أى الروح ، وقــوله الشــــاعر :

أما وى ما يغنى الثراء عن الفتى
اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

أى الروح أيضا ، لأن الحشرجة لا تكون الا لها •

٦ ــ الاحتراز عن العبث فى ذكره ــ فى ظاهر الأمر ــ لـــدلالة القرينة عليه ، كما فى قولك : حضر الجلسة اذا كانت هناك قرينة دالة على أن المراد : حضر الرئيس أو العميد الجلسة ، ومن هــذا القبيل قوله تعالى : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون »(١) وقوله جل شأنه : وماأدراك ما هيه : نار حامية(٢) •

(١) البقرة ١٨ •
(٢) القارعة ١٠ ، ١١ •

على تقدير : هم صم ، وهى نار ، وقوله سبحانه : « فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة » (١) أى هى فك رقبة •

٧ ــ ضيق الصدر عن اطالة الكلام لتوجع أو ضجر كما فى قــول الشاعر :

تساءل خدن والأسى يتبع الأسى
خليلى : كيف الحال قلت سقيم

أى حالى سقيم، ومثله قول الشاعر :

قال لى : كيف أنت ؟ قلت عليل
سهر دائم وحــزن طـــويل

أى : أنا عليل ، وحالى سهر •• الخ •

ومن هذا القبيل قوله تعالى : « فصكت وجههــــا وقالت عجــوز عقيم » (٢) أى أنا عجوز عقيم •

والتمثيل بالآية الكريمة أوفى بالمطلوب وأدل على الغرض من التمثيل بالبيتين لاحتمال ان يكون الحذف فيها بسبب المحافظة على الوزن كما سيأتى •

٨ ــ المحافظة على وزن أو سجع أو قافية • مثال الأول قــول الشــاعر :

على أننى راض بأن أحمل الهوى
وأخــرج منــه لا على ولا ليــا

---

(١) البلد ١١ ، ١٢ ، ١٣ •
(٢) الذاريات ٢٩ •

أى لا على شيء ولا فى شيء .

ومثال الثانى قولهم من طابت سريرته حمدت سيرته ، أى حمد الناس سيرته ، ومثال الثالث قول الشاعر :

وما المال والأهلـــون الا ودائع
ولابد يـــوما أن ترد الـــودائع

أى أن يرد الناس الودائع ، وذكر المسند اليه يجعل القافية منصوبة مع أنها مرفوعة فى سائر الأبيات .

هذا وقد يكون الحذف هنا للمحافظة على الوزن أيضا ، الا أنه ليس مقصودا ، وقد يجتمع فى الحذف الواحد أكثر من غرض ، والمدار على قصد المتكلم .

٩ ـــ الحذر من فوات الفرصة كقولك لمن يقف فى طريق القطـــار وهو قادم دون أن يشعر « قطار » أى هذا قطار ، أو قدم قطار ، أو قولك : قطار لمن ينتظر ركوبه ولا يعلم بقدومه ، أو قولك : غزال لمـــن يتحين الفرصة لاصطياده وهو لا يراه .. وهكذا .

١٠ ـــ اختبار تنبه السامع ، أيتنبه للمسند اليه المحذوف لقيـــام القرينة الدالة عليه أم لا يتنبه ، كأن تقول لشخص عندك وقـــد قـــدم اليك رجلان تربطك بأحدهما صداقة : غادر ، تريد الصديق غادر ، فأنت تختبره بذلك ، هل يتنبه الى أنك تقصد الصديق فى هذا الموقف بقرينة ذكر « غادر » إذ إن الغدر مناسب للصـــديق الـــذى لا يحـــافظ على الصداقة .

١١ ـــ اختبار مقدار تنبهه ، وذلك أن تقول لشخص عندك وقـــد قدم اليك رجلان تربطك بهما صداقة غير أن أحدهما أقـــدم فى هـــذه الصداقة . تقول له : جدير بالوفاء ، تريد أقدمهما صداقة وهو «محمد»

مثلا ، وذلك اذا كان المخاطب يعلم بصلتك بهما .. الى غير ذلك من صور حذف المسند اليه التى يستدعيها المقام ، ويكون الحذف فيها أوقع من الذكر ، ولامانع من أن تلتقى عدة مزايا بلاغية فى حذف واحد ، والمدار على قصد المتكلم كما أشرت آنفا . والله أعلم .

ذكر المسند اليه :

الأصل فى المسند اليه أن يكون مذكورا ، فان قامت قرينة دالة عليه جاز حذفه ، والا تعين ذكره ، ولا كلام للبلاغيين فى المسند اليه الذى يتعين ذكره لعدم وجود القرينة الدالة على الحذف ، وانما مناط بحثهم هو فى المواضع التى يجوز فيها ذكره وحذفه ، والذى يرجح الذكر على الحذف هو أغراض أخرى سنتحدث عنها فيما يلى بعد أن عرفنا أن بحث البلاغيين انما هو فيما يترجح حذفه على ذكره ، أو فيما يترجح ذكره على حذفه ، لا فيما يتعين حذفه أو ذكره .

ومن الأغراض التى ترجح الذكر على الحذف ما يلى :

١ ــ كون الذكر هو الأصل ولا مقتضى للعدول عنه ، فان كان هناك مقتض للحذف عدل عن الذكر الى الحذف كما سبق ، وأما اذا تساوى الحذف مع الذكر فى الجواز فالأرجح حينئذ الذكر لأنه الأصل ، فاذا كانت هناك مناقشة بينك وبين شخص آخر فى حل مشكلة معينة ، ثم توصل أحدكما الى الحل بعد طول عناء فقال : حلت المشكلة ، فقد ذكر المسند اليه مع أنه يجوز حذفه لدلالة الحال عليه .

وربما يقال : ان الأرجح هنا الحذف لغرض آخر ، وهو الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ، وعلى كل حال يجوز لك أن تراعى أحد الجانبين ، فان لاحظت أن المسند اليه هو الأصل ذكرته ، وان راعيت الاحتراز عن العبث حذفته .

٢ — الاحتياط لضعف التعويل على القرينة اما لخفائها واما لوقوع انلبس فيها ، كما فى قولك : شوقى نعم الشاعر ، اذا جرى حديث عن شوقى ، ثم طال عهد السامع به ، أو جرى حديث عنه وعن غيره ، فـلا يدرى السامع من تقصد أهو شوقى أم غيره لو قلت نعم الشاعر، ويكثر هذا الغرض فى عرض القضايا العلمية ، وفى الكتب المؤلفـة للتوضـيح والارشاد .

٣ — التنبيه على غباوة السامع ، وأنه لا يفهـم الا بالتصريح بالمسند اليه كأن تقول لشخص يسمع القرآن ولكنه عنه لاه : القـرآن الكريم شفاء ورحمة للمؤمنين .

٤ — زيادة الايضاح والتقرير ، وذلك اذا كان هناك من المعانى ما له علقة وشدة ارتباط بالنفس ، فيحرص الشاعر أو المتكلم على ابرازه ليعبر عن شعوره واحساسه .

من ذلك قول البحترى يخاطب صاحبته :

أصفيك أقصى الود غـير مقلل
ان كان أقصى الود عندك ينفع

فقد كرر « أقصى الود » مع امكانه الاستغناء بالضمير ، لما يجده فى نفسه من حرص وشغف وولوع بهذا المعنى .

ومن ذلك أيضا قول مالك بن الريب فى قصـيدته التى قالهـا عند دنو أجله وهو فى خراسان :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بجنب الغضا أزجى القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

لقد كان فى أهل الغضا لودنا الغضا
مزار ولكن الغضـــا ليس دانيـــا

والغضا شجر فى ديار أهله له ذكريات عزيزة على نفسه ، وهو مرتبط بحسه وشعوره بل هو يملأ الحس والشعور ويتردد فى نفســه كثيرا ، ولذلك ردده على لسانه كما أحسه ، وكرره فى كلامه كما شــعر بــه •

ومن هذا الباب ما يتردد على ألسنة الشعراء من ذكر الصــاحبة أو الدار أو الحبيب المفقود •(١)

هذا ومن الملاحظ أنك تجد الشاعر فى الأبيات السابقة كان يمكنه الاستغناء عن ذكر الاسم صراحة بذكر ضميره ، ولكن حالته النفسية هى التى دفعته ، الى هذا الصنيع ، ومن هنا تجد تداخلا بين ذكر المســند اليه وتكراره ظاهرا بدلا من ضميره •

٦ — وقد يحرص الشاعر أو المتكلم على ذكر المسند اليه مكررا، لأنه فى كل مرة يسند اليه حكما جديدا ، وكأن فى ذلك اشــارة الى أن هذا الحكم المضاف اليه يكفى وحده استقلالا فى المدح أو القدح ، ولو ذكر المسند اليه مرة واحدة ، ثم أسند اليه الأحكام بعد ذلك على طريق العطف لـــا لوحظ هذا الملحظ الدقيق •

وعلى ذلك كان قول عمرو بن كلثوم :

وقـــد علم القبـــائل من معـــد
اذا قبب بأبطحهـــا بنينـــا
بأنا العـــاصمون اذا أطعنـــا
وأنا الغـــارمون اذا عصـــينا

(١) انظر : خصائص التراكيب ص ١٣٦ ـ ١٣٧ د• محمد أبو موسى

وأنا المنعمـــون اذا قـــدرنا
وأنا المهلكـــون اذ أتينــــــــا
وأنا الحــــاكمون بمــا أردنا
وأنا النـــازلون بحيث شـــئنا
وأنا التـــاركون لمــا سخطنا
وأنا الآخـــذون لمــا هــوينا
وأنا الطـــالبون اذا نعمنــــا
وأنا الضاربون اذا ابتلينا
وأنا النـــازلون بكل ثغـــر
يخاف النـــازلون به المنــونا

ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » ، وقوله جل شأنه : « أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» (١)

وفى هذا الغرض أيضا زيادة ايضاح المعنى وتقريره وتثبيته للمسند اليه المذكور بصريح اللفظ مع الاشارة الى قيمة المعنى الذى أثبت للمسند اليه استقلالا ، ولعلك تحس هذا الغرض اذا ما مدحت انسانا أو هجوته فانك تقول له : أنت الذى فعلت كذا وكذا من الفضائل أو الرذائل ،فاذا ما حميت نفسك ، واشتد انفعالها بما صنعه معك من فضائل أو رذائل قلت له : أنت الذى فعل كذا وأنت الذى فعل كذا ... الخ .

٧ ــ اظهار تعظيمه أو اهانته كما فى بعض الاسامى المحمودة أو المذمومة ، كما تقول : أمير المؤمنين حاضر ، أو الوغد اللئيم حاضر ، جوابا لمن سأل عنهما .

---

(١) الرعد ٥ .

٨ ـ التبرك والتيمن بذكره ، أو التلذذ به ، كأن تقول فى الأول : نعم رسول الله قال كذا جوابا لمن قال : هل رسول الله قال كذا ؟

والثانى كقول الشاعر :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاى منكن أم ليلى من البشر

ولا يغنى الضمير فى المرة الثانية عن اعادة ذكر الاسم صراحة ، لأن الضمير يفوت الغرض وهو التلذذ .

٩ ـ ارادة بسط الكلام واطالته حيث الاصغاء مطلوب كقـــوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : « هى عصاى » فى جواب وما تلك بيمينك يا موسى وكان يكفى فى الجواب « عصا » ولكن موسى عليـــه السلام أطنب فى الجواب رغبة فى اطالة الحديث مع الله سبحانه وتعالى ، ولهـــذا زاد فى الجواب بيان منافع العصا مع أن ذلك ليس مطلوبا فى السؤال ، قال « أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيهـــا مآرب أخرى » (١) وأى مقام أعلى وأسمى من مقام الحـــديث مع الذات العليـــة .

ولا يذهب عن بالك هنا أن السؤال من الله تعالى ليس منشـــؤه احداث علم بما فى يمينه ، فهو سبحانه أحاط بكل شىء علما ، وانمـــا السؤال تمهيد وتوطئة من الله سبحانه لموسى عليه السلام ، ليتأكد أولا مما فى يمينه وهى العصا ، لأنها لن تبقى على حالتها تلك ، وانما ستتحول الى شىء آخر بعد فترة مختلف تماما عما كانت عليه ، وربمـــا لو لم يسأل موسى هذا السؤال لشك فى الحقيقة الأولى للعصـــا ، وهـــذا ما تلمسه فى واقعك المشاهد ، فانك ترى بعض السحرة يمسك شيئا ما أمام الناس ، وهم يرونه جميعا ، وقبل أن يتصرف فيه بالسحر يسألهم

---

(١) طه ١٩ ع

جميعا عما فى يده مع أنهم يرونه ويشاهدونه عيانا ، وذلك توطئة للتغيير الذى يحدث به ، وحتى لا يشكوا فى حقيقته الأولى بعد هذا التغيير .

١٠ — اظهار التعجب من المسند اليه ، لأنه أتى بفعل غريب غير مألوف ، كأن يجرى بينك وبين انسان حديث معين عنه ، ثم تقـــول بعد ذلك : فلان هذا صراع الأسد .

١١ — التسجيل على السامع حتى لا تترك له فرصة للانكار بعد ذلك كأن يقول القاضى فى المحكمة مثلا أمام أحد الشهود : هـل أقـر على بأن عليه لفلان كذا ؟ فيقول الشاهد . نعم : على أقر بأن عليه لفلان كذا ، فيذكر اسمه صراحة حتى لا يتأتى للمقر عليـــه الانكار ، لأن الشاهد ثم يذكر اسمه صراحة .

ومنه قول الفرزدق فى على بن الحسين رضى الله عنهما حين أنكر هشام بن عبد الملك معرفته :

هذا ابن خـير عباد الله كلهم
هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله
بجده أنبياء الله قد ختموا

هذا ولا يخفى عليك أن أساس الذكر فى هذه الأغراض كلها هو قيام القرينة على المذكور كما أشرنا الى ذلك فى بعض الشواهد ، واذا لم تقم قرينة على الذكر تعين الذكر وانتفى الغرض البلاغى منه .

هذه هى أهم الأغراض البلاغية للذكر ، أوردناها بايجاز ، وهى ليست منحصرة ، اذ هى ليست سماعية ، وانما تقوم على الذوق والحس والشعور ، وما كان شأنه كذلك لا تجد له حصراً دقيقا ، فربمـا تحس

مغزى بلاغيا فى صورة من صور الذكر لم ترد ضمن ما أوردوه من هذه الأغراض ، ولا ضير فى ذلك ما دامت المسألة مرتبطة بالذوق السليم. والله أعلم .

تعريف المسند اليه :

قال الخطيب القزوينى فى الايضاح : « وأما تعريفه فلتكون الفائدة أتم ، لأن احتمال تحقق الحكم متى كان أبعد كانت الفائدة فى الاعلام به أقوى ، ومتى كان أقرب كانت أضعف ، وبعده بحسب تخصيص المسند اليه والمسند كلما ازدادا تخصيصا ازداد الحكم بعدا ، وكلما ازدادا عموما ازداد الحكم قربا وأن شئت فاعتبر حال الحكم فى قولنا — شىء ما موجود — وفى قولنا — فلان بن فلان يحفظ الكتاب — والتخصيص كما له بالتعريف » (١) .

أورد الخطيب القزوينى هذه العبارة فى صدر حديثه عن أغراض تعريف المسند اليه ، وهذه العبارة تدور حول بيان الغرض من التعريف — اذا اقتضاه المقام — بصفة عامة ، ثم بعد ذلك فصل الخطيب القزوينى أغراض التعريف الخاصة بأنواع المعرفة كالضمير والعلم والاشارة والموصولية .. الخ ، أى أن هناك غرضا عاما لتعريف المسند اليه كما تشير اليه العبارة السابقة ، ثم هناك أغراض خاصة بكل نوع من أنواع التعريف .

وقبل أن نتناول هذه الأغراض الخاصة بكل نوع نوضح أولا هذا الغرض العام الذى ذكره الخطيب فى هذه العبارة هنا لما يحيط به من غموض .

ذكر الخطيب أن ذكر المسند اليه معرفا يجعل الفائدة أتم من ذكره منكرا ، وذلك لأن المسند اليه محكوم عليه بالمسند ، ولا ينبغى أن يحكم

---

(١) بغية الايضاح ج ١ ص ٢١ .

على النكرة لأنها مجهولة ، والحكم على المجهول لا يفيد غالبا كما هو معروف ، وأيضا لأن احتمال تحقق الحكم اى ثبوت المسند للمسند اليه متى كان أبعد — وهذا لا يأتى الا اذا كان المسند اليه معرفة — كانت الفائدة أتم ، وأما لو كان هذا التحقق أمرا قريبا الى الذهن فان الفائدة تكون أقل ، وذلك اذا كان المسند اليه نكرة ، فالضرب مثلا فعل يسيغ العقل وقوعه من كل انسان ، فاذا أخبرت به عن نكرة كنت فى حكم من لم يضف جديدا الى السامع ، وكانت الفائدة أقل ، لكن ان أخبرت به عن شخص معين كمحمد مثلا كنت قد أضفت جديدا للسامع ، وكانت الفائدة أتم لبعد الحكم عن ذهنه ، أعنى وقوع الضرب من هذا الشخص المعين ، وقد أشار الخطيب القزوينى الى الحالة الأولى بقوله : وان شئت فاعتبر حال الحكم فى قولنا : « شىء ما موجود » لأن هذا حكم يكاد يكون حاضرا فى ذهن كل انسان بخلاف قولك : فلان بن فلان يحفظ الكتاب فقد خصصت الحكم لشخص معين فكانت الفائدة أتم بهذا التعريف .

أغراض التعريف بالاضمار :

نعلم من الدراسة النحوية أن الضمائر ثلاثة : ضمير متكلم أو مخاطب أو غائب ، فان كان المقام مقام تكلم كان المسند اليه ضمير التكلم كقول بشار :

أنا المرعث لا أخفى على أحد ذرت بى الشمس للقاصى والدانى (١)

يريد بشار أنه مشهور ومعروف بين الناس قاصيهم ودانيهم كالشمس التى لا تخفى على أحد ، وقد أتى بالمسند اليه ضميرا للتكلم كما ترى ، لأن المقام مقام تكلم .

(١) المرعث : الذى يلبس القرط فى اذنه . ذرت بى الشمس أى طلعت .

وان كان المقام مقام خطاب أتى بضمير المخاطب كقول الحماسية :

وأنت الذى أخلفتنى ما وعدتنى
وأشمت بى من كان فيك يلوم (١)

وان كان المقام مقام الغيبة لكون المسند اليه مذكورا أو فى حكم المذكور لقرينة كان الضمير غائبا .

فمثال الأول قول القاسم بن حنبل المرى :

من البيض الوجوه بنى سنان
لو أنك تستضىء بهم أضاءوا

هم حلوا من الشرف المعلى
ومن حسب العشيرة حيث شاءوا (٢)

فقد أتى بالضمير «هم» للغائب لتقدم مرجعه .

ومثال الثانى قوله تعالى : «اعدلوا هو أقرب للتقوى» (٣) أى العدل ، وقوله تعالى «ولابويه لكل واحد منهما السدس (٤) أى لأبوى الميت ، لأن المقام مقام حديث عن توزيع تركه الميت ، فالقرينة حالية .

هذا ولا يخفى أن مقام التكلم يوجب ضمير المتكلم ومقام الخطاب يوجب ضمير المخاطب ، ومقام الغيبة يوجب ضمير الغائب ، وهذه

(١) البيت لأمامة الخثعمية تخاطب ابن الدمينة وكان يتغزل بها .

(٢) البيض الوجوه كناية عن السيادة والشرف ، والشرف المعلى : أى أعلاه وأرفعه .

(٣) المائدة ٨ .

(٤) النساء ١١ .

معان نحوية تتعلق بأصل الدلالة ولا شأن للبلاغة بها ، لأن البــلاغة تبحث فى الأمور الزائدة على أصل الدلالة ، والتى تجعل الكلام حسنا مقبولا ، ولا تبحث عنه من حيث الصحة والفساد ، ولعل ذكر البلاغيين التعريف بالضمير هنا لبيان أصل الدلالة فى الضمائر ليعلم بعـد ذلك خروج هذه الضمائر من أصل وضعها الذى عرف لها ، وهذا هو محط بحث البلاغيين •

ولذلك أشار الخطيب القزوينى الى هذه الزاوية البـــلاغية فى استعمال ضمير المخاطب بأن أصل الخطاب أن يكون لمعين ، وقد يترك الى غير معين (١) ، أى أنه قد يستعمل هذا الضمير مع غير المعين بألا يقصد به مخاطب معين وضع الضمير له ، بل يقصد به كل من يتــأتى منه فهم الخطاب لغرض بلاغى ، وذلك كقولك : فلان لئيم أن أكرمتــه أهانك وان أحسنت اليه أساء اليك ، فانك لا تريد مخاطبا بعينـــه فى قولك : ان أكرمته أهانك •• الخ وانما تريد أن هذه الصفة فيه أصبحت ذائعة مشهورة يدركها كل انسان يكرمه أو يحسن اليه ، فـــلا يختص بذلك مخاطب بعينه دون سواه •

وعلى هذا النحو كان قوله تعالى : « ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ••• » (٢) •

فليس المراد خطاب راء معين ، بل كل من يأتى منه الرؤية يستطيع أن يرى هذه الحالة منهم فى الآخرة فلا يختص بها راء دون غــيره ، قصدا الى تفظيع حالهم وأنها تناهت فى الظهور وامتنع خفاؤها عــلى جميع الناس وهذا النمط من الاستعمال كثير الورود فى القرآن الكريم

---

(١) انظر بغية الايضاح ص ٧٢ جـ ١ •
(٢) السجدة ١٢ •

ومن هذا القبيل قول الشاعر :

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقول الآخر :

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها
هوانا بها كانت على الناس أهونا

وقد يجعل غير المشاهد مشاهدا لحضوره فى القلب ، وعدم غيابه عن الذهن فكأنه المشاهد الحقيقة كما فى قوله تعالى حكاية عن ذى النون « لا اله الا أنت سبحانك » (١) . وقوله جل شأنه « اياك نعبد واياك نستعين » (٢)

تعريف المسند اليه بالعلمية :

وأما تعريفه بالعلمية فلأغراض من أهمها :

١ – قصد احضار مدلوله بعينه وشخصه فى ذهن السامع ابتداء باسمه الخاص به حتى لا يلتبس بغيره كقوله تعالى « والله أعلم حيث يجعل رسالته » (٣) وقوله جل شأنه « قل هو الله أحد » (٤) .

وكقول الشاعر الهذلى فى رثاء أبيه :

أبو مالك [illegible]

(١) الأنبياء ٨٧
(٢) الفاتحة ٥ .
(٣) الأنعام ١٢٤ .
(٤) الصمد ١ .

تعريف المسند اليه بالموصول : الموصول وان كان من أنواع المعرفة الا أنه لا يتحدد المراد منه الا بالصلة التى تذكر بعده ، ولذلك يجب أن تكون معلومة للسامع حتى يتحدد المراد من الاسم الموصول ، كقولك [illegible]

[illegible] الأخرى ، والدلالات المصاحبة له والتى لاحظها البلاغيون من الاستعمالات [illegible] لأغراض متنوعة لطيفة ، منها :

[illegible] التصريح بالاسم الدال على المسند اليه [illegible] أما معنى أو لفظا ، كقولك : الذى يخرج من أحد السبيلين ناقض للوضوء فى الأول وفى الثانى كقولك : الذى يرافقنى جدى ، اذا كان اسمه قبيحا لا يحسن ذكره ، ولعل من هذا القبيل قوله

وقول الحرث بن هشام :

الله يعلم ما تركت قتـــالهم حتى علوا فرسى بأشـــقر مزبد

يعتذر الشاعر عن فراره عن أخيه أبى جهل فى قتال المسلمين فى غزوة بدر بأنه لم يترك ميدان القتال الا بعد أن أثخن بالجـــراح ، وخضبت دماؤه فرسه بدم أشقر يعلوه زبد من شدة فورانه واندفاعه.

٢ ــ قصد تعظيم المسند اليه أو اهانته ، أو تعظيم غيره أو اهانته كما فى الألقاب والكنى الدالة على المدح أو الذم ، فمن تعظيم المســند اليه : قدم اليك عز الدين ، وأقبلت شمس الضحى ، وزارنا أبو الخير ، وأكرمتنا أم الخير ، ومن اهانته : رحل عنا أنف الناقة وغادرنا صخر ، وخاصمنا أبو جهل .

ومثال تعظيم غير المسند اليه : أبو الفضل صديقك ، ومثال اهانته أبو لهب رفيقك فالتعظيم والاهانة فيهما لغير المســـند اليه وهو كاف المخاطب فيهما .

٣ ــ قصد التفاؤل أو التطير به ان كان اسمه مما يشعر بالتفاؤل أو التطير كقولك الأسعد فى دارك والسفاح فى دار صديقك .

٤ ــ قصد التبرك بذكر اسمه أو التلذذ به ان كان اسمه مما يتبرك به أو يتلذذ ، فمن الأول قولك : الله ربنا ومحمد نبينا ، ومن الثـــانى قول المجنون :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا
ليلاى منكن أم ليلى من البشر

٥ ــ قصد التسجيل على الســـامع حتى لا تكون له فرصـــة الانكار كأن يقول القاضى لشاهد فى المحكمة : هل أقر عـــلى أمامك بأن عليه لفلان كذا ، فيقول الشاهد : نعم أقر على بأن عليه لفلان كذا .

٦ ــ القصد الى معنى يصلح له الاسم العلم باعتبار أصل وضعه ، فيكون كناية عن هذا المعنى المقصود ، كأن تقول : بعد عنا أبو لهب ، ونازعنا أبو جهل ، فكل من أبى لهب وأبى جهل وأمثالهما وان كان علما على ذات معروفة ، الا أنه باعتبار أصل وضعه يدل على معنى آخر يقصده المتكلم ، وكأنه قال بعد عنا الجهنمى ، ونازعنا الغبى ، ومن ذلك فى المدح : أبو الفضل زارنا وأبو المجد واسانا .

ـ الى غير ذلك من الاعتبارات المناسبة لإيراد المسند اليه علما .

ايراد المسند اليه اسم موصول :

من المعروف أن الاسم الموصول وان كان من أنواع المعرفة الا أنه لا يتحدد المراد منه الا بالصلة التى تذكر بعده ، ولذلك يجب أن تكون معلومة للسامع حتى يتحدد المراد من الاسم الموصول ، كقولك لآخر : الذى كان معنا بالأمس رجل فاضل ، اذا كان السامع لا يعلم شيئا عنه سوى الصلة ، وهذا أمر حقيقى فى الاسم الموصول ، ولا شأن للبحث البلاغى به ، لأن هذا وضعه ، فهو قد وضع بمعونة الصلة ليدل على معين .

أما الذى يتعلق بالبحث البلاغى منه فهو المعانى الاضافية الأخرى ، والدلالات المصاحبة له والتى لاحظها البلاغيون من الاستعمالات العديدة لأغراض متنوعة لطيفة ، منها :

١ ــ استهجان التصريح بالاسم الدال على المسند اليه بأن يكون فيه نفرة فى العرف اما معنى أو لفظا ، كقولك : الذى يخرج من أحد السبيلين ناقض للوضوء فى الأول وفى الثانى كقولك : الذى رباني جدى ، اذا كان اسمه قبيحا لا يحسن ذكره ، ولعل من هذا القبيل قوله

تعالى : « وروادته التى هو في بيتها عن نفسه » (١) فقد استغنى عن الاسم الحقيقى لامرأة العزيز وهو زليخا بالموصول وصلته لاستهجان التصريح به معنى لأنه اسم امرأة أو لفظا لأنه اسم غير مستحسن .

٢ — زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام كقولك : أذاع سرك الذى ائتمنته عليه ، فالغرض المسوق له الكلام هو بيان خيانة هـــذا الانسان ، فلو قلت مثلا : أذاع سرك فلان لدل ذلك على خيانته ، ولكنك أردت أن تزيد تقرير وتثبيت هذا الغرض فأتيت بالموصول وصلته لتدل على مبلغ خيانته لأنك ائتمنته على هذا السر .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : « وراودته التى هو في بيتها عـــن نفسه وغلقت الأبواب ... » (٢) .

فالغرض المسوق له الكلام هو بيان نزاهة يوسف عليه السلام ، وقوله تعالى « التى هو في بيتها » أدل على هذه النزاهة ، لأنه اذا كان في بيتها ومتمكنا منها ومع ذلك استعصم عن الفحشاء كان ذلك أقوى في الدلالة على نزاهته عليه السلام .

وهذه الآية تصلح شاهدا لهذا الغرض وللذى سبقه .

ومما يصلح للأمرين معا قول حسان بن ثابت يخاطب السـيدة عائشة أم المؤمنين مبرئا نفسه مما نسب اليها في حديث الافك :

فان كنت قد قلت الذى قـد زعمتمو

فلا رفعت سـوطى الى أناملى

وقوله أيضا :

---

(١) يوسف ٢٣ .

(٢) يوسف ٢٣ .

فان الذى قد قيل ليس بلائط
ولكنه قول امرىء بى ماحــل

فقوله فى الأول « الذى زعمتمو » عبر به عما نسب الى السـيدة عائشة رضى الله عنها دون أن يصرح به استهجانا له ، وقوله : قــد زعمتمو « يشير الى براءة السيدة عائشة مما نسب اليها ، لأنه زعم باطل » .

وأما قوله فى الثانى : فان الذى قيل ليس بلائط أى لازم فقــد عبر به أيضا عما نسب الى أم المؤمنين استهجانا له فلم يصرح باسمه، وقوله : «قيل» بصيغة التمريض للدلالة على نزاهتها وبراءتها ممـــا نسب اليها ، فكأنه نزه نفسه عن هذا القول ، ونزهها أيضا عمـا نسب اليها فى البيتين :

وقد يكون فى التعبير بالموصول وصلته : تقرير أمر المسند كقوله تعالى : « ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم » (١) .

فقوله جل شأنه : « الذى يتوفاكم » يشير الى أنه مستحق للعبادة ما دام هو الذى يتوفى الناس جميعا .

٣ ــ القصد الى التفخيم والتهويل فى المسند اليه كما فى قــوله تعالى : « فغشيهم من اليم ما غشيهم » (٢) أى غمرهم ماء غـــزير لا يحده وصف ، ولا تحيط به عبارة ، ولذلك كان التعبير بما الموصولة المبهمة ، ومن هذا القبيل فى غير المسند اليه : « فأوحى الى عبــده ما أوحى » (٣) وقوله جل شأنه : « فغشاها ما غشى » (٤) وقــول حريد بن الصلت :

(١) يونس ١٠٤ .
(٢) طه ٧٨ .
(٣) النجم ١٠ .
(٤) النجم ٥٤ .

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه
فلما علاه قال للباطل ابعد

وقول الشاعر (فى باب المسند اليه) :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها
وفى الزجاجة باق يطلب الباقى

ولعل السر فى افادة التفخيم والتهويل فى المسند اليه أو غيره هنا اذا أتى موصولا أن فى هذا الاسم المبهم اشارة الى أن مضمون هذا الاسم مما لا تحيط به عبارة ، ولا يوفيه الوصف المحدد كنهه ، فأتى به على هذا العموم المبهم للدلالة على ذلك ، ولأن النفس أيضا اذا أدركت الشىء واضحا مفصلا انتهى غرضها منه وتطلعها اليه ، ولكن اذا أدركت بعض الوصف دون البعض بقيت متلهفة مشتاقة الى الباقى ، وهذه ناحية نفسية مهمة ذكرها العلوى (١) .

٤ ــ القصد الى تنبيه المخاطب على خطأ وقع منه أو من غيره ، فمثال الأول :

ان الذين حسبتهم فى عسرة
هم أثرياء يملكون ضياعا

ففى التعبير بالموصول وصلته دلالة على خطأ هذا الحسبان ، ومنه قول عبده بن الطبيب من قصيدة له يعظ بها بنيه :

ان الذين ترونهم اخوانكم يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا

ومثال ما فيه تنبيه على خطأ غير المخاطب قول عروة :

ان التى زعمت فؤادك ملها
خلقت هواك كما خلقت هوى لها

---

(١) ينظر الطراز للعلوى وينظر خصائص التراكيب ص ١٥٢ د. محمد ابو موسى .

فقوله : زعمت فؤادك ملها تنبيه على خطئها فى هذا الزعم .

٥ — القصد الى تشويق المخاطب الى الخبر ليتمكن فى ذهنه فضل تمكن ، وذلك اذا كان مضمون الصلة أمرا غريبا ، كقولك : الذى أنار الدنيا وهدى البشرية محمد — صلى الله عليه وسلم — ، ومن ذلك قول أبى العلاء :

والذى حارت البرية فيــه   حيوان مستحدث من جمــاد

أى أن الذى حير الخلق جميعا فى أمر بعثه بعد موته هو ذلك الحيوان الناشىء من الجماد أى النطفة أو طينة آدم ، فقول الشاعر : « حارت البرية فيه » يشوق الى الخبر ، أى معرفة من هو الذى حارت البرية فيه ، ومثل ذلك قولك : الذى صرع الأسود فى مرابضها فــلان

٦ — القصد الى الاشارة الى نوع الخبر المحكوم به على المبتدأ من كونه مدحا أو ذما أو نجاحا أو اخفاقا .. الى غير ذلك كما فى قوله تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا » (١) ففى الصلة وهى الايمان والعمل الصالح اشارة الى نوع الجزاء وهو أنه جزاء حسن ، وهو الجنة ، ومن ذلك قوله تعـــالى : « ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخـــرين » (٢) « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » (٣) «ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » (٤) ان الـــذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » (٥) الى غـــير ذلك من الآيات الكريمة ، وهذا النمط من الاستعمال كثير فى كتاب الله عز وجل .

---

(١) الكهف ١٠٧ .   (٢) غافر ٦٠ .
(٣) الأنبياء ١٠١ .   (٤) مريم ٩٦ .
(٥) فصلت ٣٠ .

وقد يكون الايماء الى نوع الخبر غير مقصود للمتكلم ، ولكنه يقصد بالصلة الى الايماء الى التعريض بتعظيم الخبر أو التعريض بتحقيره . ومثال الأول قول الفرزدق يفتخر على جرير :

ان الذى سمك السماء بنى لنا   بيتا دعائمه أعز وأطول

فقوله « سمك السماء أى رفعها وهو الله سبحانه وتعالى يشير الى عظمة هذا البيت الذى بناه لهم ، أى بيت العز والشرف والسيادة الذى نشأ فيه الفرزدق ، بخلاف جرير فلم يحظ بهذا الشرف العظيم .

ومثال التعريض بتحقير الخبر قولك : ان الذى لا يجيد الشعر ألف قصيدة ، أو ان الذى لا يحسن التفكير كتب كتابا . وهكذا .

هذا وقد يكون الغرض من الصلة التعريض بتعظيم غير الخبر أو التعريض بتحقيره ، فمثال الأول قوله تعالى : « الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين » (١) ففى الصلة اشارة الى أن نوع الخبر من جنس الخيبة والخسران ، وفى هذا تعريض بتعظيم شعيب عليه السلام حيث أن من كذبوه كانوا خاسرين ، ومن الواضح أن لفظ « شعيب » واقع فى سياق الصلة لا فى سياق الخبر .

ومثل الآية قولك : الذى يعصى الوالدين مطرود من رحمة الله .

ومثال التعريض بتحقير غير الخبر قولك : ان الذى يصاحب قرناء السوء يفشل فى حياته ، ففى الصلة ايماء الى نوع الخبر ، وهو أنه من قبيل الفشل والخسران ، وفى هذا تعريض بتحقير غير الخبر وهو « قرناء السوء » الذى وقع فى سياق الصلة لا فى سياق الخبر .

---

(١) الأعراف ٩٢ .

رأى السكاكى وموقف الخطيب القزوينى منه :

ذهب السكاكى الى أن الايماء الى نوع الخبر قد يجعل ذريعة الى تحقيقه ، وذلك اذا كانت الصلة سببا أو عله أو دليلا على الخبر كما فى قول عبده بن الطبيب :

ان التى ضربت بيتا مهاجـرة
بكوفة الجند غالت ودها غول

أى ان التى اختارت الهجر على البقاء بجوار حبيبها وأقامت بيتا بالعراق بعيدا لتستقر فيه قد قطعت حبل الوداد الى النهاية ، فقوله : « ضربت بيتا مهاجرة » يشير الى أن الخبر من نوع انفصـام الود وزوال المحبة ، وهذا الايماء نفسه الذى يشير الى نوع الخبر هـو وسيلة أيضا لتحقيقه ، لأنه كالدليل عليه ، فما دامت قد آثرت الهجـر على القرب فان ذلك سيؤدى الى زوال المحبة والمودة بينهما .

وليس كل ايماء الى نوع الخبر يمكن جعله ذريعة الى تحقيقه ، اذ قد يكون الأول ليس مرتبطا بالثانى ارتباط السبب بمسببه كما فى قول الفرزدق السابق :

ان الذى سمك السماء بنى لنا
بيتا دعائمه أعز وأطـول

فان الصلة وأن كانت تشير الى أن الخبر من نوع البناء العظيم ، لكنها لا تشير الى تحقيق الخبر ، اذ ليس من اللازم أن الذى رفـع السماء لا بد وأن يبنى لهم بيتا عزيزا شريفا .

وعلى ذلك يكون الايماء الى نوع الخبر مغايرا لتحقيق الخبر ، وقد يجتمعان معا كما فى بيت عبده السابق ، وقد ينفصلان فلا يكون الايماء الى نوع الخبر ذريعة الى تحقيقه كما فى بيت الفرزدق .

وبهذا يمكنك أن ترد على الخطيب القزوينى الذى اعترض على السكاكى بأنه لا فرق بين الايماء الى نوع الخبر وتحقيق الخبر ، فكيف يجعل الأول ذريعة للثانى (١) .

الاعتراض الثانى :

ذهب السكاكى أيضا الى أن الايماء الى نوع الخبر قد يجعل ذريعة الى تنبيه المخاطب على خطأ وقع منه كما فى بيت ابن الطبيب السابق :

ان الذين ترونهم اخوانكم
يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا

فان فى الصلة وهى حسبان المتحدث عنهم اخوة ما يشير الى أنهم ليسوا كذلك ، وأن الخبر من نوع الخصومة والجفاء ، وفى هذا ما يؤدى الى تنبيه هؤلاء المخاطبين على خطأ وقع منهم ، وهو حسبان هؤلاء اخوة لهم . هذه هى وجهة نظر السكاكى .

وقد اعترض عليه الخطيب القزوينى بأنه ليس فى الصلة هنا ما ينبىء أو يشير الى نوع الخبر ، لأن ظن الصداقة بفريق من الناس لا يدل على معنى الخصومة فيهم ، وأن شفاء غليل صدورهم منوط بهلاك أصدقائهم ، بل قد يدل على العكس ، واذا كان الايماء منتفيا هنا فكيف يجعل ذريعة الى تنبيه المخاطب على خطأ ؟

وهذا الاعتراض من الخطيب على السكاكى ضعيف ، اذ ان الايماء متحقق هنا كما يفهم مما سبق ، لأنك اذا قلت لشخص : ان الذى تحسبه صديقا لك ... يتوقع منك السامع أن تذكر عبارة تنافى هذه

(١) انظر مفتاح العلوم للسكاكى ص ٨٧ ، بغية الايضاح للخطيب للقزوينى ص ٧٧ / ١ .

الصـــداقة أو الحسبان فتقول مثلا : قد سعى إلى هلاكك ، فيكون فى الصلة ايماء الى نوع الخبر ، وفى هذا ما يشـير الى خطأ هـذا الحسـبان .

وبذلك سلم للسكاكى ما ذهب اليه ، وظهر وجه ضعف اعتراض الخطيب عليه .

تعريف المسند اليه بالاشارة :

ذكر البلاغيون عدة أغراض للاتيان بالمسند اليه معرفا بالاشارة ، منهـا :

١ ـ تمييزه أكمل تمييز لاقتضاء المقام ذلك ، وانما كان التعريف باسم الاشارة يميزه أكمل تمييز لأنه لا يشـار الى الشىء الا اذا كان معروفا ملموسا لا خفاء فيه ولا غموض ، وهذا معنى وضعى لاسـم الاشارة ، ولا يمنع ذلك من كونه غرضا بلاغيا اذا اقتضاه المقام ، أى أن المقام يقتضى توضيح المسند اليه وتميزه عن غـيره تمييزا كاملا حتى يتقرر المعنى الذى تثبته اليه ، ويقع فى النفس موقعا حسنا مقبولا، من ذلك قول ابن الرومى فى مدح أبى الصقر الشيبانى :

هذا أبو الصقر فردا فى محـاسنه
من نسل شيبان بين الضال والسلم(١)

فقد مدح هذا الرجل بأنه فذ وفرد فى خلقه وخلقه ، وأنه سليل أمجاد ذوى اباء وشمم ، أو انهم قوم فصحاء بلغاء لسكنى البادية . فأتى بالمسند اليه اسم اشارة ، ثم وصفه بعد ذلك بما وصفه به .

---

(١) شيبان : اسم قبيلة ، والضال بتخفيف اللام جمع ضالة ، وهى شجر السدر والسلم بالتحريك شجر ذو شوك .

وعلى هذا النمط كانت الشواهد التالية :

قال الحطيئة :

أولئك قوم ان بنوا أحسنوا البنى
وان عاهدوا أوفوا وان عقدوا شدوا

وقال الآخر :

واذا تأمل شخص ضيف مقبل
متسربل سربال ليل أغبر
أوما الى الكوماء هذا طارق
نحرتني الأعداء ان لم تنحرى(١)

فقد أتى بالمسند اليه اسم اشارة فى قوله : هذا طارق اظهارا لكمال العناية بالضيف والاهتمام بأمره ، وشغف الممدوح بمن يقصدون ضوء ناره .

ومن هذا القبيل أيضا قول المتلمس :

ولا يقيم على ضيم يراد به
الا الأذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته
وذا يشج فلا يرثى له أحد(٢)

---

(١) متسربل سربال ليل أغبر ، أى مكتس بسواد الليل ، فكأنه لبس لباسه ، وأوما بمعنى أشار والكوماء : الناقة العظيمة الخلق .

(٢) الضيم : الذل ، والأذلان : مثنى الأذل ، والعير : الحمار الأهلى ، والوتد : خشبة تدق فى الأرض ، والخسف : الظلم والحمل على المكاره ، والرمة قطعة من حبل .

فقد عبر عن المسند اليه باسم الاشارة لتمييزه أكمل تميز لاقتضاء مقام الايضاح والبيان ذلك ٠

وقول الفرزدق ردا على تجاهل هشام بن عبد الملك لعلى بن الحسين رضى الله عنه حينما سئل عنه :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحـــرم
هذا ابن خير عبـــاد الله كلهم
هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله
بجده أنبياء الله قـــد ختمـــوا
وليس قولك من هذا بضـــائره
العرب تعرف من أنكرت والعجم
اذا رأته قـــريش قال قائلهـــا
الى مكارم هـــذا ينتهى الكـــرم
يغضى حياء ويغضى من مهابته
فما يكلم الا حين يبتسم (١)

وتأمل استعمال اسم الاشارة فى الآيات القرآنية التالية :

« لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هـــذا افك مبين » (٢) ٠

« ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم »(٣)

(١) الأغانى ج ٢٥ ص ٦٨٥٢ ٠
(٢) النور ١٢ ٠
(٣) النور ١٦ ٠

« فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون »(١)

(٢) التعريض بغباوة السامع وأن الأشياء لا تتميز عنده الا بالاشارة الحسية ، كأن تقول لمن يسمع آيات الله تتلى عليه ولا يحفل بها هذا كلام رب العالمين ، ومن هذا القبيل قول الفرزدق السابق حينما تجاهل هشام بن عبد الملك على بن الحسين ، فكأنه يعرض بغباوته لتجاهله شخصا معروفا مشهورا كما يفهم ذلك من الأبيات السابقة ، ولا مانع من أن يتحقق فى الشاهد الواحد أكثر من غرض ،اذ المدار على الذوق السليم ، والاحساس الصادق بما ترمى اليه الشواهد •

ومن هذا القبيل أيضا قول الفرزدق يفتخر على جرير :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم
اذا جمعتنا يا جرير المجامع

وقد يكون الغرض من الاشارة هنا الدلالة على بعد منزلة آبائه كما سيأتى •

٣ ــ تنزيل الغائب منزلة الحاضر ، والمعقول منزلة المحسوس ، اذا كان فى الغائب أو المعقول خصوصية معينة تجعله كأنه حاضر مشاهد ، ، أو محسوس ملموس كما فى قوله تعالى : « تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار » (٢) ، « وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم » (٣) « ذلكما مما علمنى ربى » (٤) •

---

(١) المؤمنون ١٠٢ ــ١٠٣ وتنظر خصائص التراكيب ص ١٥٣ ــ ١٥٤ د• محمد أبو موسى •
(٢) الرعد ٣٥ •
(٣) فصلت ٢٣ •
(٤) يوسف ٣٧ •

ومن ذلك قوله تعالى : « قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنــا لمبعوثون • لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أســاطير الأولين » (١) ، « يقلب الليــل والنهــار ، ان فى ذلك لعبــرة لأولى الأبصــار » (٢) •

(٤) بيان حال المسند اليه فى القرب أو البعد أو التوسط ، فيقال هذا للمشار اليه القريب وذاك للمتوسط وذلك للبعيد ، ولا يقال ان هذه معان وضعية لا يتعلق بها غرض البلاغى لأنا نقول هى معان وضــعية من حيث وضعها ودلالتها ، ولا يمنع ذلك من أن تكون معانى بلاغية من حيث اقتضاء المقام اياها ، كما أنه قد ينزل فى هذه المعــانى القــريب منزلة البعيد أو البعيد منزلة القريب لغرض بلاغى كما سيأتى •

٥ ــ تعظيم المسند اليه بالقرب تنزيلا لقربه من النفس وتعلقها به وحضوره فيها منزلة قرب المسافة كقوله تعالى : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » (٣) •

٦ ــ تحقير المسند اليه بالقرب تنزيلا لدنو منزلته وانحطــاطها منزلة قرب المسافة وقصرها ، كما فى قوله تعالى : « وما هذه الحيــاة الدنيا الا لهو ولعب » (٤) « أهذا الذى يذكر آلهتكم » (٥) •

ووجه دلالة الاشارة للقريب على التحقير أن الحقير عادة ســهل التناول مبتذلا لا يصعب على الناس ، فهو بين أيديهم وأرجلهم ، فهو بمنزلة الشىء القريب منك فى المكان ، والذى يفقد قيمته لوقوع عينك عليه كثيرا •

---

(١) المؤمنون ٨٢ ــ ٨٣ •
(٢) النور ٤٤ •
(٣) الاسراء ٩ •
(٤) العنكبوت ٦٤ •
(٥) الأنبياء ٣٦ •

ومن هذا القبيل فى غير هذا الباب قول عائشـــة رضى الله عنها فى عبدالله بن عمرو بن العاص عندما أفتى بضرورة نقض ذوائب النساء فى الاغتسال : يا عجبا لابن عمرو هذا •

وقول الهذلول بن كعب العنبرى عندما رأته امارأته يطحن بالرحا لأضـــيافه فأنكرت عليه ذلك :

تقول ودقت نحرها بيمينهـــا أبعلى هذا بالرحا المتقـــاعس
فقلت لهـــا لا تعجبى وتبينى بلائى اذا التفت على الفوارس

والمتقاعس الذى يخرج ظهره ويدخل صدره عكس الأحدب •

٧ ـــ تعظيم المسند اليه بالبعد تنزيلا لبعد درجته ، وعلو منزلته منزلة بعد المكان كقـــوله تعالى « ذلك الكتاب لا ريب فيه » (١) « وتلك الجنة التى أورثتموها بمـــا كنتم تعلمون » (٢) « فذلكن الذى لمتننى فيه » (٣) مع أنه حاضر مشاهد أمامهن ولكنها قصدت الى رفع منزلته فى الحسن ، وبعدها للدلالة على عذرها فى الافتتان به •

ومن هذا القبيل قول الفرزدق السابق :

أولئـــك آبائى فجئنى بمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجـــامع

٨ ـــ تحقير المســـند اليه بالبعد تنزيلا للنفور منه ، وتمنى بعده عن ساحة الحضور منزلة البعيد فى المكان ، فيعبر عنه بالاشـــارة الى البعيد للدلالة على هذا المعنى ، من ذلك قوله تعالى : « فذلك الذى يدع اليتيم » (٤) •

---

(١) البقرة ٢ •
(٢) الزخرف ٧٢ •
(٣) يوسف ٣٢ •
(٤) الماعون ٢ •

ومما اجتمع فيه تعظيم المسند اليه بالبعد وتحقيره أيضا بالبعد قوله تعـالى : « فمن ثقلت موازينه فأولئـك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون » (١) فقوله جل شأنه : فأولئك هم المفلحون » للاشـارة الى بعد منزلتهم وسـمو مكانتهم ، وقوله بعد ذلك : « فأولئك الذين خسروا أنفسهم » للاشارة الى بعدهم عن الرشد والهداية •

٩ ــ التنبيه على أن المشار اليه المعقب بأوصاف جدير بما يذكر بعد اسم الاشارة من أجل اتصـافه بتلك الأوصـاف ، كما فى قولك : يسرنى المؤمن اذا قال صدق واذا وعد وفى واذا أؤتمن أدى • فذلك ان عاش كانت حياته خيرا وان مات كانت وفاته خيرا ، فالمؤمن مشار اليه وقد عقب بأوصاف عديدة ذكرت بعده ، ثم ذكر اسم الاشارة بعد ذلك ــ وان كان الموقع للضمير ــ تنبيها على أن المشار اليه وهو المؤمن جدير بما ذكر بعد اسـم الاشـارة وهو قولك : ان عاش ••• الخ من أجل تلك الأوصاف السابقة التى اتصف بها ، وهى قولنا : اذا صدق •• الخ •

وعلى هذا النمط كان قوله تعالى : ذلك الكتاب لا ريب فيه هـدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصـلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » (٢) •

فالمشار اليه هم المتقون والأوصاف التى عقب بها هى قوله تعالى : الذين يؤمنون بالغيب •• الخ واسم الاشارة هو أولئك ، والحكم الذى كان حقيقا به من أجل تلك الأوصاف السابقة هو : «على هدى من ربهم»، « هم المفلحون » •

(١) المؤمنون ١٠٢ ــ ١٠٣ •
(٢) البقرة ٢ ــ ٤ •

ومن هذا القبيل قول حاتم الطائي :

وﷲ صعلوك يساور همه
ويمضي على الأحداث والدهر مقدما

فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة
ولا شبعة ان نالها عد مغنما

اذا ما رأى يوما مكارم أعرضت
تيمم كبراهن ثمت صمما

يرى رمحه ونبله ومجنه
وذا شطب عضب الضريبة مخذما

وأحناء سرج فاتر ولجامه
عتاد أخي هيجا وطرفا مسوما

فذلك ان يهلك فحسنى ثناؤه
وان عاش لم يقعد ضعيفا مذمما(٢)

وعلق الخطيب القزويني على هذه الأبيات بقوله :

« فعد له كما ترى خصالا فاضلة من المضاء على الأحداث مقدما ، والصبر على ألم الجوع ، والأنفة من عد الشبعة مغنما ، وتيمم كبرى المكرمات ، والتأهب للحرب بأدواتها ، ثم عقب ذلك بقوله : فذلك، فأفاد أنه جدير باتصافه بما ذكر بعده » (٣) ٠

---

(١) الخمص : الجوع والترحة والحزن والمجن : الترس ، وذا شطب هو السيف وشطبه خطوط في متنه ، والعضب القاطع وكذلك المخذم ، وأحناء سرج أي ما فيه من اعوجاج وفاتر أي لين ، والهيجاء : الحرب ، والطرف هو الجواد الكريم والمسوم هو المعلم ٠

(٢) بغية الايضاح جـ ١ ص ٨١ ٠

تعريف المسند اليه بأل :

يؤتى بالمسند اليه معرفا بأل لغرضين أساسيين هما :

١ ــ الاشارة الى معهود خارجا ، أى الى شىء يكون معهودا بينك وبين مخاطبك فى الخارج سواء أكان واحدا أم أثنين أم أكثر ، وتسمى هذه اللام لام العهد الخارجى ، وهى باعتبار مدخولها ثلاثة أقسام : لام العهد الخارجى ، لام العهد الكنائى ، لام العهد العلمى .

أما الأولى فهى أن يتقدم لمدخولها ذكر صراحة ، ولذلك تسمى لام العهد الخارجى الصريحى ، كما تقول : عهدت بسرى الى رجل فلم يحفظ الرجل هذا السر ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : كمشكاة فيها مصـــباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى (١) .

وأما الثانية فهى أن يتقدم لمدخولها ذكر بطريق الكناية لا التصريح كما فى قوله تعالى : على لسان أم مريم : رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى انك أنت السميع العليم فلما وضعتها قالت رب انى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى » (٢) أى وليس الذكر الذى طلبت كالأنثى التى وهبت ، وقد عرف المسند اليه وهو الذكر بأل للاشارة الى معهود سابق الذكر على طريق الكناية وهو « ما » فى قوله جل شأنه : « نذرت لك ما فى بطنى محررا » لأن لفظ « ما » مبهم يعم بحسب وضعه الذكر والأنثى لكن التحرير لخدمة بيت المقدس كان عادة خاصا بالذكور ، ولذلك كان لفظ « ما » كناية عن الذكر بهذا الاعتبار

وأما الثالثة فهى ألا يتقدم لمدخولها ذكر مطلقا لا صراحـــة ولا كناية ، ولكن يكون للمخاطب علم به وعهد ، فان كان حاضرا فى المجلس

---

(١) النور ٣٥ .
(٢) آل عمران ٣٥ ــ ٣٦ .

سميت لام العهد العلمى الحضورى ، وان كان غائبا عنه سميت لام العهد العلمى فقط ، كأن تقول مثلا : أجاد الرجل فى خطبته أو فى كلمته، اذا كان هذا الرجل معهودا بينك وبين مخاطبك سواء أكان حاضرا معكما أم لا .

٢ — الاشارة بها الى الحقيقة اذا كان مدخولها موضوعا للحقيقة والماهية ، وهى باعتبار مدخولها ثلاثة أقسام أيضا : لام الحقيقة ولام العهد الذهنى ولام الاستغراق .

أما لام الحقيقة فتدخل على الاسم المراد منه مجرد الحقيقة بقطع النظر عن أفراد هذه الحقيقة كما فى قولهم : « الرجل خير من المرأة » أى حقيقة الرجل أفضل من حقيقة المرأة بغض النظر عن كون بعض النساء مثلا أفضل من بعض الرجال لما تتميز به من خصائص تفوق خصائص بعض الرجال ، ومثل هذا أيضا : الذهب أفضل من الفضة ، وقولهم أهلك الناس الدينار والدرهم ، وقول أبى العلاء :

والخل كالماء يبدى لى ضمائره
مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

ومنه فى غير هذا الباب قوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حى » (١) .

وأما لام العهد الذهنى فهى الداخلة على اسم مراد منه فرد ما من أفراد الحقيقة بمساعدة القرينة كما فى قوله تعالى : « وأخاف أن يأكله الذئب » (٢) فليس المقصود بحقيقة الذئب بقرينة «يأكله» وليس

---

(١) الأنبياء ٣٠ .
(٢) يوسف ١٣ .

المراد فردا معينا من هذه الحقيقة لأنه لا عهد فى الخارج بذئب معين ، فتعين أن يكون المراد فردا ما من أفراد هذه الحقيقة .

ومن هذا القبيل قول الشاعر :

ومن طلب العلوم بغير كد
سيدركها اذا شاب الغراب

ومن ذلك أيضا فى غير هذا الباب قول الشاعر :

ولقد أمر على اللئيم يسبنى
فمضــيت ثمت قلت لا يعنينى

ففى كل هذه الأمثلة لا يريد حقيقة ما دخلت عليه اللام لاستحالته، ولا يريد فردا معينا مما دخلت عليه أيضا ، لأنه لا عهد خارجا به .

وأما لام الاستغراق فهى ما يكون مدخولها مرادا منه جميــع ما ينطوى عليــه من أفراد لقيام القرينــة الدالة على أنه ليس المراد الحقيقة نفسها ، أو فردا ما من أفرادها ، وهذه اللام التى للاستغراق نوعان : لام الاستغراق الحقيقى ولام الاستغراق العــرفى ، فلام الاستغراق الحقيقى يكون مدخولها مرادا به كل ما يشتمل على اللفظ من أفراد بحسب وضعه ، كما فى قوله جل شـــأنه : « عالم الغيب والشهادة » (١) فهو سبحانه يعلم كل غيب وكل شهادة ولا يختص علمه سبحانه بالبعض دون البعض الآخر ، ومنه أيضا قوله جل شأنه : « ان الانسان لفى خسر » فلفظ الانسان عام شامل لكل أفراد الانســـان بدليل الاستثناء منه بعد ذلك فى قوله سبحانه : « الا الذين آمنــوا وعملوا الصالحات ... » (٢) .

---

(١) الجن ٧٦ .   (٢) العصر ٢ .

وأما لام الاستغراق العرفي فيكون مدخولها مرادا منه ما ينطـوى تحته من أفراد لا بحسب مدلول اللفظ ، ولكن بحسب العرف العـام والعادة المتبعة ، كقولك : استجاب الطلبة لنصيحة الأستاذ ، فليس المراد كل الطلبة الذين يشملهم اللفظ في جميع أنحاء الدنيا ، وانما يقصد الطلبة الموجودون في كلية معينة أو في مدرسة معينة مثـلا ، ومن ذلك أيضا قولك : امتثل الجنود لأمر القائد •

ومما سبق يعلم أن مدخول اللام التي للحقيقـة ينصرف الى الحقيقة بحكم الوضع ، ولا يدل على العهد الذهني أو على الاستغراق الا بقرينة خارجية ترشد الى هذا المراد كما سبق •

كما ينبغي أن يعلم أيضا أن مدخول اللام التي للعهـد الذهني ، والذي يراد به فرد ما من أفراد الحقيقة الدال عليها فيـه جانب من التنكير فيأخذ حكم النكرة أحيانا وذلك لدلالته على فرد مبهم من أفراد الحقيقة فيكون كالنكرة ، ولذلك تكون الجملة التالية له صفة لا حالا كما في البيت السابق ، ولقد أمر على اللئيم يسبني ، كما أن فيه جانبـا من التعريف وهو دخول أل عليه ، فهو معرفة لفظا ، ولذلك يصح من هـذه الوجهة أن يكون مبتدأ ، وأن تجرى عليه أحكام المعرفة نظرا للفظه ، فهو معرفة لفظا نكرة معنى • •

تعريف المسند اليه بالاضافة :

يؤتى بالمسند اليه معرفا بالاضافة الى أحد المعارف لأغـراض متعددة منها :

١ ــ أنها أخصر طريق الى احضار المسند اليه في ذهن السامع كما في قول الشاعر :

هواى مع الركب اليمانين مصعد ... [illegible]

مناى طواه الموت وانفض سـامره
ودارت على صفو الحيـاة دوائره

يأسى الشاعر لفقد حبيبه ، ويعلن أنه فقد بفقده مباهج الحياة وصفوها ، والشاهد فى اضافة المنى الى ياء المتكلم فى قوله : « مناى» وهذا أخصر من قوله مثلا . الذى أتمناه ، والاختصار هنا مطلوب لضيق صدر الشاعر بفقد حبيبه .

ومثل ذلك قول جعفر الحارثى وهو سجين بمكة :

هواى مع الركب اليمانين مصعد
جنيب وجثمانى بمكة موثق (١)

والشاهد فى قوله « هواى » بالاضافة الى ياء المتكلم للاختصار ، أى من قوله : الذى أهواه لما كان يحسه من ضيق وألم الفراق وعبر بالمصدر عن اسم المفعول على سبيل المجاز العقلى فى قوله : هواى أى مهوى .

٢ — اغناء الاضافة عن تفصيل متعذر أو متعسر ، فمثال التعذر قولهم : اتفق أهل الحق على كذا ؛ فقد أغنت الاضافة عن تعداد كل من كان على حق ، ومثال المتعسر قولك : أهل مصر أبطال ، وعلى هذا النحو كان قول حسان بن ثابت :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن ماوية الكريم المفضل (٢)

---

(١) قال هذا البيت وهو سجين بمكة بعد أن قتل رجلا من بنى عقيل فسجن فيه ، وكان بمكة ركب من اليمن فزاره ومعه محبوبته ، وقد عزم الركب على الرحيل فقال الشاعر هذا البيت ، وبعده :

عجبت لمسراها وأنى تخلصت الى وباب السجن دونى مغلق
ألمت نحيت ثم قامت فودعت فلما تولت كادت النفس تزهق

واليمانين نسبة الى اليمن على غير قياس وهو جمع يمان ، ومصعد : مسافر ، وجنيب : مستتبع ، أى مقدم .

(٢) أولاد جفنة من الغساسنة الذين كان يمدحهم الشاعر .

وقول مروان بن أبى حفصة :

بنو مطــر يوم اللقاء كأنهم أســود لها فى غيل خفان أشبل

الغيل : الشجر المتجمع وهو مأوى الوحوش عادة ، وخفان بفتح الخاء وتشديد الفاء مأسدة مشهورة بقوة أســودها ، والأشــبل وهو ولد الأسد •

يشبههم عند اللقاء بالأسود الدواسر وقد رأيت أن الاضافة أغنت عن تفصيل وتعداد أهل مصر وأولاد جفنة وبنو مطر لتعسر ذلك •

٣ ـــ اغناء الاضافة عن تفصيل حال دونه حائل مع تيسره كما يقال حضر قواد الجيش ، فان التفصــيل وان كان ممكنا الا أنه قد يوقع فى حرج اذا ذكر أحدهم قبل الآخر مثلا ومن هذا القبيــل قول الحارث ابن وعلة :

قومى هم قتلوا « أميــم » أخى فاذا رميت يصيبنى ســهمى

يقول : يا أميمة ان قومى قتلوا أخى فاذا انتقمت منهم عاد ذلك بالنكاية والاضرار على نفسى فالتفصيل وان كان ممكنا الا أن الشــاعر لم يصرح بأسمائهم خوفا من اثارة حفيظتهم وحقــدهم عليه ، هــكذا قالوا (١) ، ولعل هناك معنى ومغزى لهذه الاضافة أعمق من ذلك ، وهو أنه أراد بالتصريح بلفظ القوم واضافته الى نفسه التعبير عما يكنه من ألم وحسرة يحز فى نفسه من أن تأتيه هذه الفجيعة من قومه الذين كان ينتظر منهم أن يدفعوا عنه الكوارث والمصائب ، لا أن تأتيه تلك الكوارث والمصائب منهم ففى هذه الاضــافة تعبير عن حالته النفسية ، وبيــان لبشاعة جريمتهم (٢) •

---

(١) ينظر حاشية الدسوقى على المختصر •

(٢) ينظر خصائص التراكيب ص ١٦٢ د• محمد أبو موسى •

٤ ـــ تضمن الاضافة تعظيما لشأن المضاف أو المضـــاف اليه أو غيرهما ، فمثال الأول قوله تعالى : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه .. » فان فى اضافة لفظ « عبد » الى الله تعظيم له ، لأنه ليس هناك أعظم ولا أشرف من العبودية لله سبحانه والانتساب اليه .

ومثال تعظيم المضـــاف اليه قولك : ســـيارتى فى انتظارى . فقد أفادت اضافة السيارة الى ضمير المتكلم تعظيمـــا للمتـــكلم لأن له ســـيارة .

ومن ذلك قول أبى فراس الحمدانى :

ومكارمى عـــدد النجوم ومنـــزلى
مأوى الكرام ومنزل الأضـــياف (١)

ففى اضافة المكارم لياء المتكلم تشريف للمتكلم .

ومثال تعظيم غير المضاف والمضاف اليه أن تقول : خاتم الأنبياء هدانى ، ففى الاضافة تعظيم لغير المضاف والمضاف اليه ، وهو المتكلم المدلول عليه بياء المتكلم فى هدانى .

٥ ـــ تضمن الاضافة تحقيرا لشأن المضـــاف أو المضـــاف اليه أو غيرهما ، فمثال ما فيه تحقير لشأن المضاف قول المصطفى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ : تعس عبد الدينار ، وتعس عبد الدرهم ، ففى اضـــافة لفظ العبد الى الدينار والدرهم تحقير له ، ومثال ما فيه تحقير لشـــأن المضاف أيضا قوله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كبائع المسك ونافخ الكير .. » فقد تضمنت اضـــافة نافخ الى الكير تحقيرا لشأن المضاف وهو نافخ ، كما تضمنت اضـــافة

---

(١) ينظر : النظم البلاغى بين النظرية والتطبيق ص ٢٦٥ د. حسن اسماعيل وتنظر يتيمة الدهر للثعالبى جـ ١ ص ٤٨ .

حامل الى المسك تعظيما لشأن المضاف وهو حامل ، وهذا في غير باب المسند اليه .

ومن افادة الاضافة تحقير شأن المضاف اليه قولك لغيرك : أخطاؤك كثيرة .

ومن تضمن الاضافة تحقيرا لشأن غيرهما قولك : قرين السوء عندك ، فقد تضمنت اضافة «قرين» الى السوء تحقيرا لشأن المخاطب المدلول عليه بالكاف .

٦ — قد تتضمن الاضافة اعتبارا لطيفا كما في قول الشاعر :

اذا كوكب الخرقاء لاح بسحرة
سهيل اذاعت غزلها في القرائب (١)

يقول أن هذه المرأة الحمقاء لا تستعد في الصيف لفصل الشتاء بغزلها ، ولكن تنتظر الى أن يظهر الكوكب المذكور فتوزع غزلها على قريباتها ليغزلنه ، والشاهد في اضافة الكوكب الى الخرقاء ، فقد تضمنت الاضافة اعتبارا لطيفا وهو الارتباط بين هذه المرأة وهذا الكوكب ، وكأنه أصبح مصاحبا لها ، ولا يظهر الا من أجلها لارتباط عملها به ، ولهذا أضيف اليها ، فالاضافة هنا لأدنى ملابسة كما يقولون .

الى غير ذلك من الاعتبارات المقتضية للاضافة كقصد الاستهزاء والسخرية كما في قوله تعالى « ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون » (٢) وكالاستعطاف والحث على شيء معين كما في قوله تعالى « لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده » (٣) ففي اضافة الولد

---

(١) الخرقاء : الحمقاء ، وسهيل بدل من كوكب ، وهو نجم يطلع في بدء الشتاء وقت السحر ، وأذاعت وزعت وفرقت .
(٢) الشعراء ٣٧ .
(٣) البقرة ٢٣٣ .

الى ضمير الوالدة ، والى ضمير الوالد المعبر عنه بالمولود له حث علــى انعطف على المولود ورعايته ما دام مولودا لكل من الوالدة والوالد ، ولذلك نهى الله عن المضارة بين الوالدة وابنها أو الوالــد وابنه ، وكان هذا النهى فى صورة النفى وهو أبلغ ، ومن الواضح أن المضاف هنــا ليس مسندا اليه ٠

ايراد المسند اليه نكرة :

الأصل فى النكرة أنها تدل على الافراد أو النوعيــة ، فاذا قلت مثلا : لقينى رجل ، فقد يكون الغرض بيان الافراد أى رجل لا رجلان ولا ثلاثة ، وقد يكون الغرض بيان النوعية ، أى رجــل لا امرأة ، قال الزمخشرى رحمه الله تعالى فى قوله جل شأنه : « وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحــد » (١) « فان قلت : انما جمعــوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا : عندى رجال ثلاثة وأفراس أربعة ، لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص ، وأما رجل ورجلان وفرس وفرسان فمعدودان فيهما دلالة على العدد ، فلا حاجة الى أن يقال : رجل واحد ورجلان اثنان ، فما وجــه قوله الهين اثنين ؟ قلت : الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية دال على الجنسية والعدد المخصوص ، فاذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما والذى يساق له الحديث هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصــد اليه والعنــاية به ، ألا ترى أنك لو قلت انما هو اله ولم تؤكد بواحــد لم يحسن ، وخيل أنك تثبت الألوهية لا الوحدانية » (٢) ٠

يفهم من كلام الزمخشرى السابق أن الاسم النكرة صالح للدلالة

(١) النحل ٥١ ٠
(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٤١٣ ٠

على الجنسية ، أى فرد ما من أفراد الجنس ، أو العدد ، وانما يتحدد المراد منه بالقرينة المعينة بالوصف أو المقام .

فمن دلالة الوصف على العدد فى النكرة الآية السابقة : « وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين ، انما هو اله واحد » ومن دلالة الوصف على الجنس قوله تعالى « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم » (١) فلفظ الدابة فى الأصل صالح لأن يراد به جنس الدابة ، أو فرد ما من أفراد الدواب ، ولكن ذكر « فى الأرض » يشير الى أن المراد هو جنس الدابة التى تسير على الأرض ، وليس المراد العدد ، وكذلك لفظ «طائر» قد عقب بالجملة الفعلية بعده « يطير بجناحيه » للدلالة على أن المقصود هو جنس الطائر لا أفراده .

ومن دلالة المقام على أن المراد العدد لا الجنس من النكرة قوله تعالى : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ... » (٢) فالمراد فرد ما من جنس الرجال شائع فيه ، ومن دلالة المقام على النوعية قوله جل شأنه « وعلى أبصارهم غشاوة » (٣) فقد دل التنكير على نوع معين من الغشاوة وهو غطاء التعامى عن آيات الله مع ظهورها ووضوحها (٤) ، وقد يكون التنكير فى هذه الآية للتعظيم كما سيأتى .

ومن دلالة المقام على النوعية أيضا قول الشاعر : (فى غير باب المسند اليه)

لكل داء دواء يستطب به ... الا الحماقة أعيت من يداويها

---

(١) الأنعام ٣٨ .
(٢) القصص ٢٠ .
(٣) البقرة ٧ .
(٤) ينظر خصائص التراكيب ص ١٦٣/١٦٤ .

فالتنكير فى كلمة « دواء » للدلالة على النوع ، أى لكل داء نوع معين من الدواء مناسب له ، وليس المراد مطلق دواء ، لأنه قد لا يناسب الداء .

ومن التنكير للإفراد أو النوعية قوله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء »(١) أى كل فرد من أفراد الدواب أو كل جنس من أجناسها من نطفة معينة هى نطفة أبيه ، أو من نوع من أنواع المياه ، وهو نوع النطفة التى تختص بذلك النوع من الدواب(٢) ومن الواضح أن التمثيل بهذه الآية من غير باب المسند اليه ، كما هو الحال أيضا فى الآية المتقدمة « وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين .. » ولا بأس فى ذلك ، اذ أن أغراض التنكير التى تتحقق فى المسند اليه لا يمنع مانع من تحققها فى غيره كما سيأتى :

هذا هو الأصل فى دلالة النكرة ، وقد يتولد من هذا الأصل معان أخرى تجرى على لسان البصير بالأساليب العربية ، الحاذق بدلالات الألفاظ فى تراكيبها . من ذلك :

١ — أن يقصد تعظيم المسند اليه ، وأنه بلغ فى رفعة شأنه درجة عظمى ، أو يقصد تحقيره وأنه بلغ فى درجة الحقارة أدنى منزلة ، فمثال الأول قوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة »(٣) .

فالتنكير فى لفظ « حياة » للدلالة على عظمة هذه الحياة ، لأنهم كانوا لا يكتفون بقتل القاتل ، وانما يقتلونه مع جماعة من عشيرته ، فكان فى القصاص حقن لدماء هؤلاء جميعا ، وأى حياة أعظم من هذه الحياة ؟

---

(١) النور ٤٥ .
(٢) ينظر المطول ص ٨٩ .
(٣) البقرة ١٧٩ .

ويجوز أن يكون التنكير فى الآية لقصد النوعية ، أى افادة نوع خاص من الحياة ، وهى الحياة التى تمتد للقاتل والمقتول معا ، لامتناع القاتل عن القتل اذا علم بالقصاص ، فتمتد حياته ، وحفظ حياة المقتول أيضا لامتناع القاتل عن قتله ، ولامانع من أن يجتمع الغرضان من التنكير هنا ، كما لا يمنع مانع من أن يجتمعا فى الآية السابقة : « وعلى أبصارهم غشاوة » أى نوع معين من أنواع الغشاوة ، وهو غطاء التعامى عن آيات الله كما سبق ، فليست هى الغشاوة المعروفة عند الناس والتى يمكن أن تفهم من تعريف اللفظ ، أو يكون المراد غشاوة بلغت فى عظمها وقوتها درجة عالية ؛ لأنها تمنع من العظة والاعتبار فتحجب القلوب عن الايمان ، ولا يخفى تلاقى الغرضين هنا ، لأن دلالة التنكير على التعظيم تحمل فى جوفها دلالة على النوعية أيضا ، اذ ان التعظيم لا يعدو أن يكون نوعا من النوعية المفهومة من التنكير .

ومثال دلالة التنكير على التحقير قولهم : شعور بالكرامة عند الحر منجاة من مواطن الذل (١) .

أى شىء ضئيل متواضع من الاحساس بالكرامة يعصم صاحبه من السقوط فى مهاوى الخزى والهوان .

وقد اجتمع التعظيم والتحقير فى قول الشاعر :

ولله منى جانب لا أضيعه   وللهو منى والخلاعة جانب

فالجانب الذى لا يضيعه هو جانب الله لأن لله جانبا عظيم الشأن رفيع القدر ، وأما الجانب الذى جعله للهو والخلاعة فهو جانب حقير

---

(٨) تنظر مذكرة البلاغة للشيخ حامد عونى .

قليل الشأن ضعيف النزلة ، والذى ساعد على هذه الدلالة هو مقام المدح الذى يقضى بأن جانب الخير فيه أعظم من جانب الشر .

ومن هذا القبيل قول ابن ابى حفصة :

له حاجب فى كل أمر يشينه وليس له عن طالب العرف حاجب (١)

أى له حاجب عظيم يحجبه عن النقائض والعيوب ، وليس هناك أى حاجب لطالب المعروف يمنع رفده وعطاءه ، فالتنكير فى « حاجب » الأول للتعظيم ، وفى الثانى للتحقير وتأمل معى قول ابراهيم بن العباس وقد عزل عن ولاية الأهواز فى خلافة محمد بن عبد الملك الزيات ، ثم أخذ يستعطفه رجاء اعادته الى مجده التالد :

فلو اذ نبا دهر وأنكر صاحب
وسلط أعداء وغاب نصير
نكون على الأهواز دارى بنجوة
ولكن مقادير جرت وأمور
وانى لأرجو بعد هذا محمدا
لأفضل ما يرجى أخ ووزير

تأمل التنكير فى قوله : دهر .. تجد أنه يريد به دهرا غادرا خائنا ليس هو الدهر الذى عاشه فى كنف الخليفة السابق « الواثق بالله » ثم نكر لفظ « صاحب » للدلالة على حقارته وسقوطه وأنه أصبح لا يستحق هذا الوصف للؤمه ، وبنى الفعل المجهول فى « أنكر » ولم يقل أنكرت صاحبا لأنه لا يريد أن ينسب الانكار الى نفسه صراحة ، هذا وليس ببعيد أن يكون المراد بلفظ « صاحب » هو نفسه ، أى أنكروا صاحبا

---

(١) قبل هذا البيت قوله :

فتى لا يبالى المدلجون بناره الى بابه ألا تضىء الكواكب
أصم عن الفحشاء حتى كأنه اذا ذكرت فى مجلس القوم غائب

لهم ، وبنى الفعل للمجهول لأنه لا يريد أن ينسب الانكار لهم ، وعلى هذا المعنى يكون التنكير فى لفظ « صاحب » للتعظيم لا للتحقير ، وأما التنكير فى « أعداء » فهو للدلالة على حقارتهم ، وأفاد لفظ « سلط » زيادة فى هذا التحقير ، لأنهم أداة طيعة فى يد من سلطهم ، فلا رأى لهم ولا ارادة ، وبنى الفعل « سلط » للمجهول تحقيرا لشأن من سلطهم ، وللدلالة على أنهم ساقطون من حسابه ، بعيدون عن اهتمامه ، كما نكر لفظ « نصير » للدلالة على النوعية أى غاب نصير قوى وفى يقف بجانبى فى هذه المحنة ، وأما التنكير فى « مقادير » و « أمور » فهو للنوعية أيضا : أى ان الذى بدل حالى وحول أمرى الى ما أنا فيه الآن من المذلة والهوان بعد العزة وعلو الشأن هو المقادير القوية القاهرة ، والأمور الغالبة التى يعجز الانسان عن دفعها •

وانظر الى قول ابن المعتز .

وانى على اشفاق عينى من العدا ... لتجمح منى نظرة ثم أطرق

تجد أنه نكر لفظ « نظرة » للدلالة على أنها نوع خاص من النظرات فهى نظرة جامحة متفلتة ، تند عنه مع مغالبته لها حذرا من الأعداء الذين يترصدونه ، وتأمل قوله بعد ذلك : « ثم أطرق » تجد حرف العطف «ثم» الذى يدل على التراخى للاشارة الى المدى البعيد ، هو الأثر الممتد لهذه النظرة ، حتى كأنه أصبح فى غفوة أو غفلة من أمره بسبب هذه النظرة ثم تنبه بعدها فأطرق(١)

٢ ــ القصد الى افادة التكثير أو التقليل ، فمثال التكثير قولك : ان له لخدما وان له لحشما ، وقولهم : ان له لابلا وان له لغنما ، فالتنكير فى : خدم وحشم وابل وغنم للدلالة على الكثرة بمعونة مقام المدح •

---

(١) ينظر خصائص التراكيب ص ١٦٥ •

ومن هذا القبيل على ما ذهب اليه الزمخشرى فى قوله تعـالى : « أئن لنا لأجرا » (١) أى أجرا وفيرا كثيرا (٢) ٠

ومثاله فى التقليل قولهم : « كلمات تتضمن حكما خير من سـفر ينضح هراء » فقد نكرت « كلمات » للدلالة على التقليل بمعونة المقـام والسياق أيضا ٠

ومن هذا القبيل قوله تعالى : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنـات عـدن ورضوان من الله أكبر »(٣) فالتنكير فى « رضوان » للدلالة على أن قليلا من رضوان الله تعالى أعظم وأكبر مما ذكر من مظاهر النعيم قبله ، اذ غاية المؤمن هو الفوز برضوان الله تعالى ، ولأن الفوز به سبب فى كل مظاهر النعيم فى الجنة ، ووصف الرضوان بالقلة أو الكثرة وهو معنى من المعانى انما هو بحسب متعلقاته ومظاهره ٠

هذا وقد اجتمع التعظيم والتكثير فى قوله جل شأنه : « وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك » (٤) ، فتنكير لفظ « رسل » لافادة الكثرة ، أى كذبت رسل كثيرون من قبلك ، أو لافادة التعظيم ، أى كذبت رسل عظام من قبلك ، وهم أولو العزم من الرسل ، فعليك أن تصبر مثـل ما صبروا « فاصبر كما صبرو أولو العزم من الرسـل »(٥) ولأنهـم أتوا قومهم بالآيات البينات والمعجزات الباهرات ٠

وقد يجتمع فى التنكير التقليل والتحقير أيضـا كما فى قولك « لى

---

(١) الأعراف ١١٣ ٠
(٢) الكشاف ٢/١٠٢ ٠
(٣) التوبة ٧٣ ٠
(٤) فاطر ٤ ٠
(٥) الأحقاف ٣٥ ٠

من هذا المال نصيب » أى نصيب ضئيل هزيل ان لوحظ فيه الشأن ، أو نصيب قليل يسير ان لوحظ فيه العدد ، فالكلمة تفيد الاثنين معا باعتبارين مختلفين ، أعنى اعتبار الكيفية أو الكمية على حد ما يقول المناطقة .

ومن هنا يتضح أن هناك فرقا بين التعظيم والتكثير فليسا بمعنى واحد ، كما أن هناك فرقا بين التحقير والتقليل ، لأنه يمكن أن ينظر الى التنكير فى الكلمة من حيث الشأن والمرتبة فتفيد التعظيم أو التحقير ، ويمكن أن ينظر اليه فى الكلمة ، من حيث الكم والعدد فتفيد التكثير أو التقليل بمعونات المقام ،فلا وجه لما ذهب اليه السكاكى من عدم التفرقة بين التعظيم والتكثير أو التحقير والتقليل(١) .

رأى للسكاكى وموقف للخطيب منه :

قال الخطيب : « والسكاكى لم يفرق بين التعظيم والتكثير ولا بين التحقير والتقليل ، ثم جعل التنكير فى قولهم : شر أهر ذا ناب ــ للتعظيم وفى قوله تعالى : « ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك »(٢) لخلافه ،وفى كليهما نظر ، أما الأول فلما سيأتى(٣) وأما الثانى فلأن خلاف التعظيم مستفاد من البناء للمرة ومن نفس الكلمة ، لأنها اما من قولهم : نفحت الريح ، اذا هبت أى هبة ، أو من قولهم : نفح الطيب ، اذا فاح أى فوحة ، كما يقال شمة ، واستعماله بهذا المعنى فى الشر استعارة ، اذ أصله ان يستعمل فى الخير ، يقال : له نفحة طيبة ، أى هبة من الخير . وذهب أيضا الى أن قوله : « يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من

---

(١) ينظر مفتاح العلوم للسكاكى ص ٩٢ .

(٢) ينظر بغية الايضاح ١/٩٢ .

(٣) أى من أن تقديم المسند اليه هنا يفيد الاختصاص لا التعظيم،لأن المعنى ما أهرذا ناب الا شر .

الرحمن » (١) بالتنكير دون عذاب الرحمن بالاضـــافة أما للتهويل أو لخلافه ، والظاهر أنه لخلافه واليه ميل الزمخشرى » (٢) •

أما عدم تفريق السكاكى بين التعظيم والتكثير أو بين التحقـــير والتقليل فقد رددنا عليه فيما سبق وأما اعتراض الخطيب عليـــه بأن التنكير فى قولهم : شر أهر ذا ناب مع تقديم المسند اليه على الخـــبر الفعلى انما هو للاختصاص لا للتعظيم كما ذهب السكاكى فهو اعتراض مردود ، لأنه لو كان للاختصاص لكان المعنى أن الذى أهر ذا ناب انمـــا هو شر لا خير وليس هناك من يعتقد أن الذى أهر ذا ناب هو خير حتى يرد عليه بهذا الاختصاص بأنه شر لا خير ، وانما المقصـــود بيان أنه شر عظيم حتى انه أهر ذا ناب •

وأما اعتراضه عليه فى افادة التنكير للتحقير فى قوله جـــل شأنه : « ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك » بأن افادة التحقير مســـتفادة من البناء للمرة أو من نفس الكلمة ، على نحو ما سبق فهو اعتراض مردود أيضا ، لأنه لا مانع من أن يكون التحقير مستفادا من الأمور الثـــلاثة معا ، وليس هناك تعارض بين فهم التحقير من بناء الكلمة ومن مادتهـــا ومن التنكير فيها ، وقد أجاز هو نفسه أن يستفاد التحقير من بناء الكلمة ومن مادتها فلم منع دلالة التنكير عليه أيضا ؟

وأما التنكير فى قوله جل شأنه : « يا أبت انى اخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » فقد أشار السكاكى الى أنه قد يكون للتهويل أو لخلافه وهو التهوين ، ولكل اعتباره ، فان راعينا أن العذاب من الله ، وأنه من الرحمن الرحيم ومن الحليم الذى اذا غضب كان غضبه أشد ، وأن المس يستعمل

---

(١) مريم ٤٥ •
(٢) بغية الايضاح جـ ١ ص ٩٢ •

مع عظيم العذاب وضعيفه بدليل قوله تعالى : « لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم »(١)

أقول : ان راعينا هذه الاعتبارات كلها كان التنكير للتهويل ، وان راعينا اعتبارات أخرى هى خطاب ابراهيم عليه السلام لأبيه الذى يقتضى الأدب معه ، والذى تمثل فى عدم التصريح بلحوق العذاب اياه ولصوقه به ؛ وأنه يمسه مسا ، كما أن التعبير بلفظ الخوف أيضا يؤيد ذلك كما أن لفظ المس فى ظاهره ، ولفظ « الرحمن » فى ظاهره أيضا يقتضيان التهوين من شأن العذاب ، كما أن التصريح بلفظ الأب فيه من الأدب ما فيه ، ان راعينا كل هذه الاعتبارات وهى أدق كان التنكير للتهوين وهذا ما رجحه الزمخشرى ، وكأن ابراهيم عليه السلام يريد أن يقول : انى أخاف عليك مجرد مس عذاب ضئيل ، فكيف بالجسيم العظيم منه .

٣ـ وقد يرد المسند اليه نكرة لأن هناك ما يمنع من التعريف كما فى قول الشاعر :

اذا سئمت مهنـده يمين ... لطول العهد بدله شمالا

فقد نكر المسند اليه فى كلمة « يمين » لأنه لو عرفه فقال يمينه لنسب السأم الى يمين الممدوح صراحة ، وهو لا يريد ذلك .

وتأمل أيضا قول الشاعر ــ وقد سبق ــ :

تجوب له الظلماء عين كأنها ... زجاجة شرب غير ملأى ولا صفر

فلو عرف كلمة « عين » بالاضافة مثلا فقال « عينه » لما أمكنه أن

---

(١) النور ١٤ .

يصفها بما وصفها به بعد ذلك ، وهذا اعتبار لطيف أشار اليه الامـام عبد القاهر فى قوله :

« وكذلك تعلم أنه لو قال مثلا : « تجوب له الظلماء عينـه » لم يكن له هذا الموقع ولا اضطرب عليه معناه ، وانقطع السـلك من حيث كان يعيبه حينئذ أن يصف العين بما وصفها به الآن »(١)

٤ — الخوف عليه أو الخوف منه كأن تقول لآخر أخبرنى رجل بأنك مخطىء ، أو تقول : « سرق لص متاع فـلان » اذا كنت تعـرفه وتخاف التصريح باسمه .

الى غير ذلك من الاعتبارات اللطيفة التى تكون وراء تنكير المسند اليه ، ويدركها صاحب الذوق السليم .

هذا ومما تجدر الاشارة اليه ان الاعتبارات السابقة فى تنكـير المسند اليه يمكن ملاحظتها فى تنكير غير المسند اليه أيضا .

فمن تنكير غير المسند اليه لقصـد الافراد قوله تعالى : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا ؟ (٢) فالمضروب به المثل فى الموضـعين فرد ما من أفراد الرجال ، وهو غير مسند اليه .

ومن التذكير لقصد النوعية قوله تعالى : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » (٣) اذ ليس المراد أى حياة لأن الانسـان لا يحرص على ما هو فيه بالفعل ، ولكن المقصود نوع من الحياة وهو حيـاة ممتـدة لا تنتهى تنضم الى ماضيهم وحاضرهم ، ومن هذا القبيل قوله جلشأنه:

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٠٢ وينظر النظم البلاغى ص ٢٧٦ د. حسن اسماعيل .

(٢) الزمر ٢٩ .

(٣) البقرة ٩٦ .

« وأمطـرنا عليهم مطـرا (١) اذ ليس المراد مطلق مطر ، وانما مطر آخر غير مألوف ، فيه هلاكهم بدليل قوله تعالى بعد ذلك : « فسـاء مطر المنذرين » اذ لا يتعجب من المطر المعروف المألوف .

ومن التنكير لقصد الافراد أو النوعية قوله تعالى — وقد سبق — « والله خلق كل دابة من ماء » .

ومن تنكير غير المسند اليه للتعظيم قوله تعالى : « فأذنوا بحرب من الله ورسوله » (٢) ومن تنكيره للتحقير قوله جل شـأنه : « ان نظن الا ظنا » (٣) أى ما نظن بالساعة الا ظنا ضئيلا ضعيفا ، لأن الآية واردة على لسان الكفار .

ومن تنكيره للتقليل قول أبى الطيب المتنبى مادحا :

فيوما بخيـل تطرد الروم عنهم ويومًا بجود تطـرد الفقر والجدبا

أى بقليل من خيلك تطرد الروم ، وبقليل من جـودك تقضى على الفقر والجدب .

وهكذا ..

تقـديم المسند اليه :

ذكر الامام عبد القاهر أن التقديم — بصفة عامة — « باب كثـير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعه ، ويفضى بك الى لطيفه ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شىء وحول اللفظ عن مكان الى مكان » (٤) .

---

(١) الشعراء ١٧٣ .
(٢) البقرة ٢٨٠ .
(٣) الجاثية ٣٢ .
(٤) دلائل الاعجاز ص ١٤٢ .

يعنيه

والتقديم الذى يعينه الامام هنا هو التقديم الذى يكون على نية التأخير كتقديم الخبر على المبتدأ ، والمفعول على الفاعل ، لا التقديم الذى ليس على نية التأخير كأن تعمد الى اسمين يصلح كل منهمـا أن يكون مبتدأ أو خبرا فتقدم أحدهما فتجعله مبتدأ وتؤخر الآخر فتجعله خبرا كما فى قولك زيد المنطلق أو المنطلق زيد .

ثم ذكر الامام بعد ذلك أنه لم يجد عند سابقيه ما يبرز ويفصل أسرار التقديم سوى بعض الاشارات التى تقضى بأهمية المقدم ،يقول عبد القاهر : « واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئا يجرى مجـرى الأصل غير العناية والاهتمام ، قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفـاعل والمفعول : « كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم ، وهم بشأنه أعنى ، وان كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم ، ولم يذكر فى ذلك مثلا .. (١)

ثم أورد بعد ذلك بعض الأمثلة التى توضح هذه الحقيقة من غير باب المسند اليه والتى تخرج عن نطاق ما نحن فيه ، ولذلك سـنقصر الحديث فيما يلى على الأعراض الداعية لتقديم المسند اليه ، على نحو ما ورد فى كتاب الايضاح للخطيب القزوينى .

أغراض تقديم المسند اليه :

يقدم المسند اليه لاغراض عديدة منها :

١ — أن التقديم هو الأصل ولا مقتضى للعدول عنه ، وانما كان التقديم هو الأصل ، لأن المسند اليه محكوم عليه والمسند محكوم به ، والشأن ان يقدم المحكوم عليه أولا ، لأن الوصف بالمسند انما جىء من أجل المحكوم عليه وهو المسند اليه ، فأنت لا تحكم بشىء على شىء الا اذا كان المحكوم عليه سابقا فى التعقل والتصور على المحكـوم به ، كقولك : محمد خاتم النبيين .

(١) المرجع السابق ص ١٤٣ .

وانما قيدوا الأصالة بعدم اقتضاء العدول عنها ، لأن الأصالة نكتة ضعيفة ، فاذا عارضتها نكتة أخرى عدل عن اعتبار الأصالة ، كما فى الفعل مع الفاعل ، فان الأصل فيما يقع فاعلا ان يقدم لأنه مسند اليه ، ولكن هذا الاصل عورض بنكتة أخرى هى أن الفعل عامل فى الفاعل الرفع ، والعامل واجب التقديم على المعمول ، لهذا قدم الفعل على الفاعل .

واعتبار الاصالة وان كان اعتبارا نحويا الا أنه لا ينافى كونه غرضا بلاغيا .

٢ـ تمكين الخبر فى ذهن السامع ، لان فى المبتدأ ما يشوق الى ذكر الخبر كما فى قول أبى العلاء المعرى السابق :

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

وكما تقول : الذى يصارع الأسود فلان ، والذى يحمل كذا طنا من حديد فلان .. وهكذا .

٣ ـ تعجيل المسرة للتفاؤل أو المساءة للتطير اذا كان اللفظ صالحا لذلك كما فى قولك : سعد فى دارك ، والسفاح فى دار صديقك ، وانما عبر بالتعجيل ، لأن التأخير فيه ايضا مسرة أو مساءة ، ولكن فائدة التقديم هى التعجيل بذلك .

٤ ـ ايهام السامع ان المسند اليه لا يغيب عن خاطره ، أو أنه يستلذه أو يتبرك به ، فالأول كما فى قول الفقير : « الدرهم تقربه عين المحتاج » ، وكما يقول الجائع : الرغيف يكسر حدة الجوع ، والثانى كما فى قول جميل بثينة :

بثينة ما فيها اذا ما تبصرت معاب ولا فيها اذا نسبت أشب(١)

---

(١) المعاب والأشب : العيب .

والثالث كما فى قولك : الله ربنا ومحمد نبينا

٥ — اظهار تعظيمه أو تحقيره اذا كان اللفظ مشعرا بذلك اما بذاته كما فى قولك : أبو الخير عندنا وأم الخير فى دارك ، أو أبو الجهل رحل عنا ، واما باضافة كقولك : خادم الرئيس عندنا ، أو ابن الخـــادم عندك ، واما بوصف كقولك : رجل عالم زارنا أو : فتى أحمق صـــنع كذا .

٦ — افادة تخصيص المسند اليه بالمسند أو أفادة تقوى الحكم، وذلك اذا كان المسند فعلا رافعا لضمير المسند اليه .

وهناك مذهبان فى افادة التقديم التخصيص أو التقوى ، مذهب الامام عبد القاهر ومذهب السكاكى .

مذهب عبد القاهر :

تحدث الامام عبد القـــاهر عن افادة التقـــديم التخصـــيص أو التقوى من زوايا ثلاث هى :

١ — وقوع المسند اليه فى حيز النفى .
٢ — وقوعه فى غير حيز النفى وهو معرفة .
٣ — وقوعه فى غير حيز النفى وهو نكرة .

أولا : تقديم المسند اليه المسبوق بنفى

يفيد كلام الامام عبد القاهر عن هذه النقطة أن المسند اليـــه المتقدم على الخبر الفعلى والمسبوق بنفى يفيد التخصـــيص أى قصر المسند الفعلى على المسند اليه ، سواء أكان المسند اليه اســـما ظاهرا معرفة كما فى قولك : ما محمد قال هذا الشعر ، أم ضميرا كما فى قولك : ما أنا قلت هذا الشعر ، أم نكرة كما فى قولك : ما رجل قام بهذا العمل ولما كان مقتضى التخصيص النفى والاثبات فان المثال الأول يفيد قصر

نفى قول الشعر على محمد وثبوته لغيره ردا على من زعم انفراد محمد بقول الشعر فيكون قصر قلب ، أو على من زعم اشتراك الغير مع محمد فيه فيكون قصر افراد ، ولهذا يؤكد فى الحالة الأولى بقولك : بل غيره ، وفى الثانية بقولك : وحده ، ومعنى التخصيص فى المثال الثانى نفى قول الشعر عن المتكلم وثبوته لغيره ردا على من زعم انفراد المتكلم به أو اشتراكه مع غيره فيكون قصر قلب أو قصر افراد على ما سبق ، ويؤكد أيضا على الوجه السابق ، ومن هذا القبيل قول أبى الطيب :

وما أنا أسقمت جسمى به   ولا أنا أضرمت فى القلب نارا

ومعنى التخصيص فى المثال الثالث : قصر نفى القيام بهذا العمل على جنس الرجل ، وثبوته لغير هذا الجنس وهو المرأة ، أو قصر نفيه على واحد من الرجال وثبوته لرجلين أو أكثر ، فتقول هذا ردا على من زعم أن الذى قام به رجل لا امرأة فيكون من تخصيص الجنس ، أو على من زعم أن الذى قام به رجل واحد لا رجلان أو أكثر فيكون من تخصيص الوحدة ، ومنطوق كل عبارة من العبارات السابقة يفيد النفى ، ومفهومها يفيد الاثبات كما هو واضح من الأمثلة السابقة .

ولا يعبر بمثل هذه التراكيب الا فى شىء ثبت حصوله فعلا ، والمراد نفيه عن المسند اليه وثبوته لغيره على الوجه الذى كان عليه هذا النفى .

ويترتب على ذلك أنه لا يصح أن يقال : ما أنا قلت هذا الشعر ولا غيرى ، لأن مقتضى التخصيص نفى قول الشعر عن المتكلم خاصة وثبوته لغيره ، وهذا المفهوم من العبارة يناقض منطوق « لا غيرى » والشعر الذى نفى عن المتكلم خاصة هو بعينه الذى أثبت للغير .

ولا يصح أيضا أن يقال : ما أنا رأيت أحدا من الناس ، ولا ما أنا لقيت الا عليا ، لأن مقتضى العبارة الأولى نفى رؤية جميع الناس عن المتكلم خاصة ، واثبات رؤية جميع الناس لغيره وهذا غير ممكن ، ومقتضى العبارة الثانية قصر نفى لقاء جميع الناس باستثناء على على المتكلم ، ويقتضى ذلك أن يكون غيره قد لقى جميعهم ما عدا عليا وهذا مستحيل.

وقد يقال : ان عدم صحة المثال الثانى يرجع الى أن نقض النفى بالا يقتضى أن يكون المتكلم قد لقى عليا ، وتقديم الضمير المسبوق بحرف النفى يقتضى ألا يكون قد لقيه وهذا تناقض لكن هذا التعليل غير مسلم والتعليل الأول أولى .

نعم يصح هذا المثالان لو لم يتقدم المسند اليه فقلت : ما رأيت أحدا من الناس ، وما لقيت الا عليا ، لأنه لاختصاص فى هذين التركيبين.

ولعل هذه القاعدة التى ذهب اليها الامام فى افادة تقديم المسند اليه المعرفة على الخبر الفعلى اذا كان واليا للنفى للقصر قاعدة أغلبية ، اذ نرى فى هذا التقديم فى بعض الأساليب عدم افادة القصر أحيانا ، كما فى قوله تعالى : « لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون »(١)

فقد قدم المسند اليه المسبوق بحرف النفى على الخبر الفعلى فى قوله : « ولا هم ينصرون — ولا هم ينظرون » ولا يفيد التقديم هنا الاختصاص ، اذ ليس المقصود أن غيرهم ينصر من عذاب الله ، أو ينظر ويمهل حينما تأتيه الساعة ، فالتقديم هنا يفيد التقوية فقط كما سيأتى .(٢)

---

(١) الأنبياء ٣٩ — ٤٠ .

(٢) ينظر خصائص التراكيب ص ١٧٩ د. محمد أبو موسى .

ثانيا : تقديم المسند اليه المعرفة غير المسبوقة بنفى

فان لم يقع المسند اليه بعد نفى بأن لم يكن فى الكلام نفى أصلا كما فى قولك : أنا سعيت فى حاجتك ، أو كان فيه نفى لكنه تأخر عن المسند اليه كما فى قولك : محمد ما سعى فى حاجتك ، أفاد الكلام التخصيص أو التقوى حسبما يقتضيه المقام فان كان المتكلم فى مقام الرد على من نازعه فى الحكم كان الكلام مفيدا للتخصيص ، وان كان القصد الى مجرد اثبات الحكم وتقويته وتدعيمه كان الكلام مفيدا لتقوى الحكم، فاذا قلت : أنا سعيت فى حاجتك للرد على من زعم أن غيرك سعى فيها أفاد الكلام قصر القلب ، ولذلك يجوز توكيده بقولك : لا غيرى ، واذا قلت ذلك للرد على من زعم أشتراك الغير معك فى السعى أفاد الكلام قصر الافراد ، ولذلك يجوز توكيده بقولك : وحدى .. وهكذا ..

ومن افادة التقديم التخصيص قولهم : أتعلمنى بضب أنا حرشته (١) أى ما حرشه الا أنا ومنه قوله جل شأنه : « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ، لا تعلمهم نحن نعلمهم » (٢) أى لا يعلم أسرارهم ودخائل نفوسهم الا نحن لا أنت .

وان كان المتكلم فى المثال السابق : أنا سعيت فى حاجتك .. لا يقصد ردا على منازع وانما يقصد مجرد اثبات الحكم فقط . أفاد الكلام التقوى وتقرير الحكم ، وذلك راجع الى أنك ذكرت المسند اليه مرتين، فكأنك اثبت له الحكم مرتين ، فأصبح قولك : أنا سعيت فى حاجتك ، فى

---

(١) هذا مثل يضرب للعالم بالشىء الذى يريد غيره أن يعلم اياه ، وحرش الضب : صاده ، وذلك بأن يضع الصائد يده على جحر الضب ليظنه حية فيخرج ذنبها ليضربها فيصطاده .

(٢) التوبة ١٠١ .

قوة قولك : سعيت فى حاجتك ، سعيت فى حاجتك ، ومثل ذلك أيضا هو يعطى الجزيل : تقولذلك لتقوى نسبة اعطاء الجزيل له ، لا لتدل على أن غيره لا يعطى أو يشترك معه فى الاعطاء ، ولا لتعرض بانسان آخر ، وهو فى قوة قولك : يعطى الجزيل، يعطى الجزيل ، ومثل هذا أيضا تأخير النفى فى قولك : أنا ما سعيت فى حاجتك ، أو محمد لا يعطى الجزيل ، ولذلك كان قولك : « أنت لا تبخل » أقوى فى نفى البخل من قولك : لا تبخل أنت ، لتكرار الاسناد فى الاول دون الثانى على نحو ما سبق .

وقد نبه الامام عبد القاهر الى علة تقوى الحكم وتقريره فى مثـل هذه الأساليب بأنك اذا ذكرت المسند اليه أولا عاريا من العوامل فقـد نبهت السامع وهيأت ذهنه لما يثبت للمسند اليه بعد ذلك ، فاذا أفدته الحكم الذى تريد اثباته تمكن فى نفسه فضل تمكن ، لأنه وقر فى نفسه بعد تطلع وتشوف ، فكأنك أعلمته الحكم مرتين يقول عبد القاهر :

« فان قلت : فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحـدث عنـه بالفعل آكد لاثبات ذلك الفعل له ، وان يكون قولـه : همـا يلبسـان المجد »(١) أبلغ فى جعلهما يلبسانه من أن يقال : يلبسان المجد ؟ فان ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل الا لحديث قد نوى اسناده اليه ، واذا كان كذلك فاذا قلت : « « عبد الله »فقد أشعرتقلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه ، فاذا جئت بالحديث فقلت مثلا : قام أو قلت : خرج أو قلت : قدم فقد علم ما جئت به ، وقد وطـأت له ، وقدمت الاعلام فيه ، فدخل على القلب دخول المأنوس به ، وقبله قبول المتهيىء له المطمئن اليه ، وذلك لا محالة أشد لثبوته وأنفى للشبهة وأمنع للشك وأدخل فى التحقيق .

---

(١) هذا جزء بيت وسيأتى فيما بعد .

« وجملة الأمر أنه ليس اعلامك الشيء بغتة مثل اعلامك له بعد التنبيه عليه ، والتقدم له ؛ لأن ذلك يجرى مجرى تكرير الاعلام فى التأكيد والاحكام » (١) •

فكأن علة افادة التقديم التقوى عند الامام ترجع الى أمرين مبنى ثانيهما على أولهما ، وهما :

أ — فى تنبيه ذهن السامع لما يلقى له مضافا الى المسند اليه انعارى عن العوامل والمذكور أولا ، فيتقرر فى ذهنه الحكم ويثبت •

ب — ان تقرير الحكم بهذه الطريقة يشبه تقريره بتكرر الاعلام به أى الاخبار به : فكأنك ذكرته مرتين كما سبق •

ولعل البلاغيين من بعد عبد القاهر عندما أشاروا الى علة تقوى الحكم وتقريره فى هذه الحالة ركزوا على الشق الأخير من تعليل الامام، وهو أنه بمثابة تكرير الاعلام بالحكم ، لأن هذا الشق مبنى على الشق الأول ومترتب عليه ، ولذلك لا أرى وجها لما ذهب اليه الدكتور حسن اسماعيل من أن البلاغيين بعد عبد القاهر لم يفطنوا لهذه العلة وركزوا على علة نحوية لم يذكرها عبد القاهر ، لأنه اعتمد على الذوق فى بيان هذه العلة (٢) ، وهو ما أشرنا اليه فى (أ) مع أن عبدالقاهر قدمزج العلتين معا ، وأشار اليهما جميعا ، ورتب الاخيرة على الاولى كما هو واضح مما سبق •

وقد استنبط عبد القاهر هذه العلة من حديث صاحب الكتاب عن تقديم المفعول ، ثم رفعه لشغل العامل فيه من بعده بضميره كما فى قولك : عبد الله ضربته يقول الامام : « وهذا الذى قد ذكرت من أن تقديم ذكر

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٦٨ •

(٢) النظم البلاغى بين النظرية والتطبيق ص ٢٧٨ •

المحدث عنه يفيد التنبيه له قد ذكره صاحب الكتاب فى المفعول اذا قدم فرفع بالابتداء وبنى الفعل الذى كان ناصبا له عليه ، وعدى الى ضميره فشغل به كقولنا فى : ضربت عبد الله ، عبد الله ضربته ، وانما قلت : عبد الله .. فنبهته له ، ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء »(١) وهذه أمانة علمية تحسب للامام .

ومما يدلك على أن تقديم المسند اليه هنا يفيد تقوى الحكم وتأكيده لاقتضاء المقام اياه ، أن هذا الضرب من الكلام يجىء فى الاحوال الاتية:

(أ) فيما سبق فيه انكار منكر ، أى انكار الحكم كأن يقول لك قائل : ليس لى علم بالذى تقول،فتقول : أنت تعلم أن الأمر على ما أقول، ومنه قوله تعالى : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »(٢) لان الكاذب لا يعترف بأنه كاذب ولاسيما فى الدين ، فيمتنع عن الاعتراف بالعلم بأنه كاذب ، ولذلك قدم المسند اليه على هذا النحو .

(ب) فيما عرض فيه شك كأن تقول لآخر :كأنك لا تدرى بما صنع فلان ، فيقول : أنا أعلم بما صنع ، فيمحو شكك فى علمك به عن طريق هذا الاسلوب .

(جـ) فى تكذيب مدع كما فى قوله تعالى : « واذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به »(٣) لأن قولهم : آمنا .. يفيد أنهم لم يخرجوا بالكفر كما دخلوا به ، والواقع أنهم دخلوا بالكفر وخرجوا به أيضا ، فأكد الكلام على النحو السابق للدلالة على ذلك .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٦٧ وينظر : النظم البلاغى ص ٢٧٩ د. حسن اسماعيل .

(٢) آل عمران ٧٥ .

(٣) المائدة ٦١ .

(د) فيما يقتضى الدليل ألا يكون كقوله تعالى : « والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون » (١) فإن مقتضى الدليل أن من يكون الها لا يكون مخلوقا ، ولهذا أكد هذا المعنى بتقديم المسند اليه للدلالة على ذلك .

(هـ) فيما يستغرب أمره كما فى قولك : ألا تعجب من فلان ؟ .. يدعى الأمر الخطير وهو يعيا باليسير ، أو ألا تعجب من فلان : يدعى أنه يصرع الأسد وهو يخاف من الثعلب ، فلما كان أمره غريبا كان محل شك فاحتاج الى التوكيد .

(و) فى الوعد بالوفاء ، كقولك : أنا أكفيك هذا الأمر ، أنا أقوم بهذا العمل ، لأن من شأن من تعده أن يعترضه شك فى الوفاء بالوعد ، فتؤكد له الكلام على هذا النحو .

(ز) فى المدح والفخر ، فالأول كما فى الأبيات الآتية :

همو يفرشون اللبد كل طمرة ... وأجرد سباح يبذ المغاليا (٢)
هما يلبسان المجد أحسن لبسة ... شحيحان ما اسطاعا عليه كلاهما (٣)
فهم يضربون الكبش يبرق بيضه ... على وجهه من الدماء سبائبا (٤)

---

(١) النحل ٢٠ .

(٢) اللبد للفرس ما يوضع تحت السرج والطمرة : الفرس الجواد ، والأجرد : القصير الشعر ، والسباح : الذى فى جريه سلاسة . وليونة والمغاليا : بضم الميم : السهم ، يصفهم بالفروسية وجودة المطاردة والبيت من كلام المعذل الليثى .

(٣) البيت من كلام عمرة الخثعمية ترثى ابنيها تمدحهما بأنهما حريصان على معالى الأمور ما استطاعا الى ذلك سبيلا .

(٤) هو من قول الأخفش التغلبى والكبش : الشجاع أو رئيس القوم ، والبيض : الدرع ، والسبائب جمع سبيبة وهى الطريق ، يقول ان

=

والثانى كما فى قول طرفه بن العبد :

نحن فى المشتاة ندعــو الجفلى
لا ترى الآدب فينا ينتقر (١)

وانما احتاج كل من المدح أو الفخر الى تقوية الكلام وتأكيده ،لأن المادح أو المفتخر يحرص على أن يمنع السامعين من الشك فيما يمدح به أو يفتخر •

ثالثا : تقديم المسند اليه النكرة غير المسبوقة بنفى

علمنا مما سبق أن مذهب الامام عبد القاهر يقوم فى موضــــوع التقديم على سبق حرف النفى ، فان كان المسند اليه مسبوقا بحرف نفى وهو معرفة ــ اســـما ظاهرا أو ضـــميرا ــ أو نكرة فان الكلام يفيــد التخصيص قطعا كما سبق ، وأما ان لم يســـبق المســـند اليه المتقدم بحرف نفى بأن لم يكن فى الكلام نفى أصلا ، أو كان فية نفى لكنه تأخر عن المسند اليه ، فان عبد القاهر يفرق فى هــذه الحالة بين المســـند اليه المعرفة والنكرة ، فانكان معرفة أفاد الكلام التخصيص أو التقوى حسبما يقتضيه المقام كما سبق ، وان كان نكرة تعين لافادة التخصـــيص ، أى تخصيص الجنس أو الوحدة ، فتقول : رجل جاءنى ، تقول ذلك ردا على من علم أن قد جاءك جاء ولم يدر أرجل هو أم امرأة أو اعتقد أنه امرأة، فيكون من تخصيص الجنس ، أو تقوله لمن علم أن قد جاءك جــاء ولم يدر أهو رجل أم رجلان أو اعتقد أنه رجلان مثلا فيكون من تخصيص

=
عندهم خبرة بفنون القتال ، فهم يعمدون الى قائدهم المدجج بالسلاح والدروع فيجعلون الدماء تسيل من وجهه فى نواح شتى •

(١) المشتاة : الشتاء وهو زمن الجدب والجفلى الدعوة العامة ضد النقرى ، والآدب : الداعى الى المأدبة ، ينتقر : يخص بدعوته البعض دون البعض •

الوحدة ، والمسوغ للابتداء بالنكرة هنا هو افادة التخصيص كأنك قلت: ما جاءنى الا رجل ، ولا يفيد الكلام التقوى أو التأكيد هنا صراحة عند الامام خلافا لمـا ذهب اليه السعد من أن مثل هذا الكلام — عند الامام — قد يفيد التقوى لا غير ؛ لأن ذلك فضــلا عن مخــالفته لصريح كلام الامام اذ يقول : « فاذا قلت : رجل جاءنى ، لم يصــلح حتى تريد أن تعلمه أن الذى جاءك رجل لا امرأة ، ويكون كلامك مع من قد عرف أن قد أتاك آت ، فان لم ترد ذاك كان الواجب أن تقــول : جــاءنى رجل فتقدم الفاعل (الفعل) » (١) فصريح عبارته تلك يدل على أن الكلام هنا لايفيد الا التخصيص فقط ، وان لم ترد التخصيص به غيرت العبارة فقدمت الفعل على الفاعل ، فما ذهب اليه السـعد (٢) فضلا عن كونه مخالفا لصريح عبارة الامام مخالف للأساليب العربية ، اذ لو لم يفد هذا القول التخصيص لمـا جاز هذا الكلام ، لأن النكرة حينئذ وقعت مبتدأ بدون مسوغ ، ولذلك صرح الامام بأنك لو لم ترد التخصيص غيرت العبــارة فقدمت الفعل على الفاعل .

هذا هو رأى الامام عبد القاهر فى تقديم المسند اليه ، وقد خالفه السكاكى بعض المخالفة فى بعض صور التقديم وسنشير فيما يلى الى رأى السكاكى اشــــارة موجزة لنقف على ما ذهب اليه دون الدخول فى التفاصيل الكثيرة .

رأى الســكاكى

لم يعول السكاكى على النفى الذى يســبق المسند اليه المتقــدم كما ذهب عبد القاهر وانما عول على نوع المسند اليه المتقدم — ضميرا أو اسما ظاهرا أو نكرة — فان كان المسند اليه ضميرا ســـواء أكان مسبوقا بحرف نفى أم لم يسبق أفاد الكلام التخصيص أو التقـــوى

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٧٥ .

(٢) المطول ص ١١٥ .

حسبما يقتضيه المقام كقولك : أنا سعيت فى حاجتك أو ما أنا سعيت فى حاجتك ، أو أنا ما سعيت فى حاجتك ، وان كان المسند اليه اسما ظاهرا كما فى قولك : على سعى فى حاجتك تعين الكلام لافادة التقوى لا غير ، وان كان المسند اليه نكرة تعين الكلام للتخصيص كما فى قولك : رجل جاءنى .

فالأقسام عنده ثلاثة : تعين التخصيص ، تعين التقوى ، احتمال الأمرين كما هو واضح مما سبق ، وقد رأيت أنه يتفق أحيانا مع الامام وأحيانا أخرى يختلف معه .

تنبيــــه :

رأيت مما تقدم أن حديثهم قد اقتصر على تقديم المسند اليه على الخبر الفعلى ، ولم يتطرق هذا الحديث الى تقديم المسند اليه على ما هو فى حكم الخبر الفعلى كالاسم المشتق ، فهل اذا تقدم المسند اليه على الاسم المشتق كما فى قولك : على شاعر ومحمد كاتب ، وكما فى قوله تعالى « وما أنت علينا بعزيز » « وما أنت عليهم بجبار » يأخذ حكم تقديمه على الخبر الفعلى أو أن الوضع يختلف ؟ » .

ذهب البعض الى أن الخبر المشتق مثل الخبر الفعلى ، وذهب البعض الآخر الى غير ذلك .

الواقع أننا لا نستطيع أن نحكم بأن المسألة هنا تسير تماما كما سارت هناك ، أو أنها تختلف تماما عما سبق ، اذ نجد أن المسند اليه المتقدم على الاسم المشتق والمسبوق بحرف النفى تارة يفيد التخصيص ، وتارة أخرى يفيد التقوى ، مع أن رأى عبد القاهر أن المسند اليه المسبوق بحرف النفى والمتقدم على الخبر الفعلى لا يفيد الا التخصيص فقط كما سبق ، وهنا نجد اختلافا مع ما ذهب اليه عبد القاهر ، واقترابا من رأى السكاكى الذى لا يعول على النفى ،

وانما يعول على نوع المسند اليه المتقدم ، والآيات التى تيسر لنـــا الاطلاع عليها الآن تجد فيها المسند اليه ضميرا متقدما وبعضها يفيـد التقديم فيها التخصيص والبعض الآخر يفيد فيها التقـديم التقـوى اتساقا مع رأى السكاكى ، وكأن الفيصل فى المسألة أولا وأخيرا هـو السياق ومقتضيات المقام .

فمن افادة تقديم المسند اليه على الاســم المشــتق التخصيص قوله تعالى حكاية عن قوم شعيب عليه السلام : « ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز » (١) أى أنت لا تعز علينا وانما يعز علينا قومك بدليل : « ولولا رهطك لرجمناك » وبدليل رد شعيب عليهم بعـد ذلك بقوله : أرهطى أعز عليكم من الله ؟

يقول الزمخشرى رحمه الله تعالى : « أى لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم ، وانما يعز علينا رهطك لأنهم أهل ديننا لم يختاروك علينا ، ولم يتبعوك دوننا ، وقد دل ايلاء ضميره حرف النفى على أن الكلام واقع فى الفاعل لا فى الفعــل كأنه قيل : وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزاء علينا ، ولذلك قال فى جوابهم أرهطى أعز عليكم من الله ، ولو قيل : وما عززت علينا لم يصح هـذا الجــواب » (٢) .

ومن افادة التقديم هنا التقوى قوله تعالى : « وما هم بخارجين من النار » (٣) فقد أفاد التقديم هنا تقوى الحكم ، أى أنهم — عـلى سبيل التأكيد — لن يخـرجوا من النار ، ولا يفيد التقـديم هنـا التخصيص .

---

(١) هود ٩١ .
(٢) الكشاف ٢/٢٨٩ .
(٣) البقرة ١٦٧ .

يقول الزمخشرى : هم بمنزلة قولهم : « هم يفرشــون اللبد كل طمرة » فى دلالته عــلى قوة أمرهم فيما أســند اليهم لا عــلى الاختصــاص (١) .

ولا يقال هنا ان الزمخشرى قد سار على مذهبه فى هذه الآية فلم يجعلها مفيدة للاختصاص كالسابقة بل جعلها مفيدة للتقــوى ، لأن افاد الاختصاص هنا تؤدى الى أن غــير الكفار يخــرجون من النــار كالمؤمن مرتكب الكبيرة مثلا ، وهم — أى المعتــزلة — يرون أن مرتكب الكبيرة يخلد فى النار ، ولذلك جعل الآية مفيدة للتأكيد والتقرير فقط .

لا يقال ذلك ، لأن الزمخشرى قد ذهب فى بعض الآيات الأخرى التى من هذا القبيل الى افادة التقوى فقط ، وهى بعيــــدة عن أمور الاعتزال كما فى قوله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » (٢) وقوله جل شأنه « فما أنت بنعمــة ربك بكاهن ولا مجنون » (٣) وقوله سبحانه « وما أنت عليهم بجبار » (٤) الى غير ذلك من الآيات الأخرى (٥) .

والحق أن السياق له القدح المعلى والنصيب الأوفى فى المسائل البلاغية ، اذ هى لا تخضع للقواعد الصارمة بقدر ما تخضــع للذوق والســياق .

٧ — ومن أغراض تقديم المسند اليه على المسند افادة عمــوم

---

(١) الكشاف ٣٢٧/١ .
(٢) البقرة ٨ .
(٣) الطور ٢٩ .
(٤) سورة ق ٤٥ .
(٥) ينظر الكشاف فى هذه الآيات وغيرها وينظر خصائص التراكيب ص ١٨١ د. محمد أبو موسى وتنظر البلاغة القرآنية د. محمد أبو موسى .

السلب ، أى افادة أن النفى متوجه الى كل أفراد المســـند اليه دون استثناء ، وهذه الافادة مشروطة بشرطين عند الامام عبد القاهر :

أولهما : أن يكون المسند اليه من الألفاظ الدالة على العمـــوم كألفاظ كل وجميع ونحوهما .

وثانيهما : ألا يتقدم على المسند اليه أداة النفى لفظـا أو رتبة ، بل يأتى بعده .

مثال ذلك قولك : كل جندى لم يهمل ، فقـد أفاد تقـديم أداة العموم على النفى شمول نفى الاهمال عند كل جنـــدى من الجنود ، ومن الواضح أن أداة العموم تقدمت على النفى ، وتقدمت رتبة أيضا ، لأنها مبتدأ .

وسر افادة عموم النفى أو السلب هنا ، أنك قدمت أداة العموم، ثم بنيت النفى عليها وجعلت الجملة المنفية خبرا عنها ، فشـمل النفى المذكور كل أفراد المضاف اليه بعد كل .

يدلك على أن هذا التقديم يفيد عموم السلب قوله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فى حديث ذى اليدين : كل ذلك لم يكن عنـــدما نسى الرسول ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ فى صلاة رباعية فسلم بعد ركعتين فقال له ذو اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ فقـوله ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ : كل ذلك لم يكن ، نفى للأمرين معا ، أى لم يحدث قصر ولا نسيان بدليل قول ذى اليدين بعد ذلك : « بل بعض ذلك قد كان » ولو صحت الرواية الآخرى للحـــديث « لم أنس ولم أقصر » بدلا من : « كل ذلك لم يكن » كان النفى صريحـــا ونصا فى الأمرين معا .

ويؤيد هذه القاعدة أيضا قول أبى النجم :

قد أصبحت أم الخيار تدعى على ذنبا كله لم أصنع

برفع «كل» لافادة أنه لم يصنع شيئا مما تدعيه عليه فأفاد التقديم عموم السلب ، وقد عدل أبو النجم عن نصب كل معمولة لنفعل أصنع وهو الفصيح فى مثل هذه الأساليب لافادة هذا المعنى .

فاذا وقعت أداة العموم بعد النفى لفظا أو تقديرا لم يفد الكلام عموم السلب ، بل أفاد سلب العموم .

فمثال وقوعها بعد النفى لفظا قولك : ما كل طالب مقصر ، فقد أفدت بهذا التركيب أن التقصير لم يقع من كل الطلبة وانما وقع من بعضهم فقط ، ومن هذا القبيل قول أبى الطيب المتنبى :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه
تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

وقول أبى العتاهية :

ما كان رأى الفتى يدعو الى رشد
اذا ما بدا لك رأى مشكل فقف

وقولك : ما نجح كل الطلاب ، أو ما نجح الطلاب كلهم ... وهكذا .

ومثال وقوعها بعد النفى رتبة وتقديرا قولك : كل الصفحات لم أطالع ، وكل الطلبة لم أكافىء ، بنصب كل فى المثالين مفعولا به لكل من الفعلين : أطالع وأكافىء ، فلفظ كل وان كان قد تقدم فى اللفظ الا أنه متأخر فى الرتبة والتقدير ، فأفاد الكلام سلب العموم لا عموم السلب .

وسر افادة هذا التركيب سلب العموم أنك حينما قدمت أداة النفى لفظا أو تقديرا على لفظ العموم ، وجهت النفى الى هذا العموم فأفاد الكلام خروج بعض أفراد هذا العموم عن النفى .

غير أن هذه القاعدة التى تفهم من كلام الامام عبد القاهر وهى توجه النفى الى العموم والشمول خاصة اذا تقدم النفى على أداة العموم وخروج بعض الأفراد عن هذا العموم قاعدة أغلبية ، اذ نجد فى بعض أساليب القرآن الكريم أن أداة النفى متقدمة لفظا ومعنى والكلام لا يفيد سلب العموم وانما يفيد عموم السلب كما فى قوله تعالى « والله لا يحب كل كفار أثيم » (١) « والله لا يحب كل مختال فخور » (٢) اذ تقضى القاعدة المتقدمة توجه نفى الحب الى البعض على حد قولك : لم يقصر كل الطلبة ، مع أن نفى حب الله تعالى متوجه الى كل كفار أثيم ، والى كل مختال فخور ، فالمراد عموم السلب لا سلب العموم .

ويمكن أن يقال ان افادة عموم السلب هنا لا سلب العموم من قرينة خارجية اقتضاها المقام ، وليس من ذات الأسلوب ومقتضاه ، اذ تقضى القرينة الخارجية أن هناك بعض الصفات كالكفر والاثم والاحتيال والفخر تكون مبغوضة دائما دون تفاضل أو تفضيل .

ومثل ذلك لو قلت : لا أحب كل مقصر أو مهمل ، فيفيد الكلام هنا عموم السلب أيضا لا سلب العموم من قرينة خارجية هى القطع بأن كل مقصر أو مهمل لا يحب ، بخلاف قولك : لم يحضر كل الطلبة ، فالحضور أو عدمه من الطلبة أمر لا ينكره الواقع ، ولا دخل للقرائن الخارجية فى اثباته أو نفيه .

---

(١) البقرة ٢٧٦ .

(٢) الحديد ٢٣ ومثل ذلك قوله جل شأنه : ولا تطع كل حلاف مهين .

التقديم في مثل وغير :

ذهب البلاغيون الى أن هناك بعض الألفاظ التى يرى تقديمها كاللازم لافادة معنى من المعانى بطريق أبلغ وأقوى كما فى لفظتى « مثل وغير » فتقول : مثلك يرعى الود ، وغيرك لا يفى بالوعد ، فقد أفاد كل من الأسلوبين ثبوت رعاية الود للمخاطب وثبوت الوفاء بالوعد له ، بطريق آكد وأبلغ ، لأنك أثبتت له هاتين الصفتين عن طريق الكناية .

بيان ذلك أنك عندما تقول لمخاطبك : مثلك يرعى الرد ، لاتقصد أن تثبت رعاية الود لمثله ، بل تقصده هو برعاية الود بالدليل ، لأنك اذا أثبت رعية الود لمن كان مماثلا له فى صفاته ثبتت رعاية الود له بطريق أولى ، ولهذا قال أبو الطيب المتنبى :

ولم أقل مثلك أعنى به
سواك يا فردا بلا مشبه

ولذلك أثبت له الصفة بالدليل كما هو الشأن فى الكناية الاصطلاحية ، فكأنك قلت له : أنت ترعى الود لأن مثلك يرعاه . وعلى نحو من ذلك أثبت له الوفاء فى المثال الثانى ، لأن الوفاء بالوعد صفة وجودية لا بد لها من محل تقوم به ، فاذا نفيتها عن غير المخاطب فقد أثبتها للمخاطب ضرورة ، فكنك قلت : أنت تفى بالوعد ، لأن غيرك لا يفى به .

وعندما تقول مثل ذلك لا تقصد به أن تعرض بانسان لا يفى بالوعد ، بل تقصد اثبات الصفة للمخاطب فقط بالطريق الأبلغ .

ومن هذا القبيل قول أبى تمام :

وغيرى يأكل المعروف سحتا
وتشحب عنده بيض الأيادى (١)

فهو لم يرد أن يعرض بغيره بأنه يأكل الحرام وتضيع عنده صنائع المعروف ، وانما أراد نفسه فقط ، فهو يريد أنه لا يأكل المعروف سحتا ، ولا ينكر فضل ذى الفضل عنده ، فلما أثبت هذه الصفات لغيره نفاها عن نفسه ، فكأنه قال : أنا لا أصنع ذلك لأن غيرى يصنعه .

ومن ذلك أيضا قول أبى الطيب :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع
ان قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

يريد أنه لا ينخدع ولا يغرر به ، ولهذا لم ينخدع بهؤلاء الناس الذين يجبنون عند اللقاء ويشجعون عند الحديث .

ومما جاء من هذا الطريق أيضا قول القبعثرى للحجاج : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب ، عندما قال له الحجاج : لأحملنك على الأدهم ، أى القيد ، فصرف القبعثري اللفظ عن مراد الحجاج وحمله على معنى آخر هو الفرس الأسود ، وعندما قال : مثل الأمير لم يرد به غير الأمير كما سبق .

وانما كان التقديم هنا كاللازم وليس بلازم قطعا ، لأن تقديم هذين اللفظين وما جرى مجراهما أعون على تأدية المراد، وهو افادة المعنى بالطريق الأبلغ والأقوى ، اذ ان تقديم المسند اليه على الخبر الفعلى يفيد تكرار الاسناد كما سبق بالاضافة لما يفيده مثل هذا التركيب من افادة المعنى بالدليل والبينة كما هو الحال فى طريق الكناية ، ولهذا لم يرد هذان اللفظان فى الأساليب العربية فى هذا المقام الا متقدمين ، ولو أخرتهما فقلت مثلا :

---

(١) السحت : الحرام ، وتشحب : تضيع وتنكر .

لا يخل مثلك ، ولا يرعى الود غيرك لكان كلاما ، ساقطا ممجوجا بعيدا عن الذوق العربى الذى اقتضى التقـديم هنا ، وان كان المعنى الكنائى حاصلا أيضا بالتأخير كما هو متحقق بالتقديم ، لكن فى التقديم نكتة أخرى تقوى المعنى وتؤكده مع طريق الكناية أيضا كما سبق .

ومن أجل ذلك قالوا ان تقديم هذين اللفظين وما يدور فى فلكيهما كاللازم وليس بلازم اذ ليست هناك مخالفة لقواعد العربية فى تأخـير هذين اللفظين كما سبق .

واذا لم يستعمل هـــذان اللفظان على سبيل الكناية ، بل أريد بهما التعريض بغير المخاطب جاز تقديمهما وتأخيرهما كما فى قــولك : مثلك يصدق ، أو يصدق مثلك وغيرك لا يفى بالوعد ، أو لا يفى بالوعد غيرك ، فليس هناك فرق فى افادة التعريض بين التقديم والتأخير ، ولا كناية فى مثل هذه الأساليب ، لأنه لا يلزم من ثبوت الصدق لشــخص معين ثبوته للمخاطب ، ولا من نفى الوفاء بالوعد عن‌شخص‌ثبوت‌الوفاء بالوعد المخاطب لجواز أن يتحقق فى شخص آخر غيرهما . والله أعلم .

خروج الكلام على غير مقتضى الظاهر فى المسند اليه :

لاحظ البلاغيون أن المسند اليه قد يأتى على خلاف ما يقتضــيه ظاهر الكلام ، وذلك بأن يقتضى هـــذا الظاهر أن يؤتى بالمسند اليه ضميرا فيعدل عنه الى الاسم الظاهر أو العكس ، أو يقتضى الظاهر أن يكون المسند اليه ضمير متكلم فيعدل عنه إلى ضمير الغائب ... الخ .

ووضع بعض الألفاظ موضع بعضها فى هــذا الباب وان لم يكن خاصا بالمسند اليه كما سنرى ، الا أن البلاغيين لاحظوا أن ذلك متحقق

فى المسند اليه أيضا فتحدثوا عن هذه الظاهرة فى ضمن حـــديثهم عن أحوال المسند اليه .

وخروج الكلام على غير مقتضى الظاهر هنا يتناول عدة موضوعات لم يأت التعبير فيها وفق ما يقتضيه ظاهر الحال ، وان كان يأتى عـلى وفق ما يقتضيه المقام ، اذ لا يعدل عما يقتضيه الظاهر من التعبـــير الى غيره الا لنكتة تدعو الى ذلك ، والا كان هذا العدول عبثا لا مسوغ له فى الكلام الفصيح .

والموضوعات التى تندرج هنا تحت خروج الكلام على غير مقتضى الظاهر هى وضع المضمر موضع المظهر وعكسه ، والالتفات والأسلوب الحكيم والقلب ، والتعبير عن المستقبل بالماضى وعكسه ، وسـنتناول فيما يلى — بايجاز — بيان وجه خروج كل من هذه الأساليب على غـير ما يقتضيه ظاهر الكلام .

١ — وضع المضمر موضع المظهر وعكسه :

قد يوضع المضمر موضع المظهر لغرض يهدف اليه المتكلم كمـا فى بابى نعم وبئس وضمير الشأن .

فمثاله فى بابى نعم وبئس قولك : نعم بطلا خالد ، وبئس عـدوا ابليس ، فقد أضمر فاعل كل من نعم وبئس بدون أن يسبق مرجع لهذا الضمير (١) على خلاف ما يقتضيه ظاهر الـكلام اذ الشرط فى ايراد الضمير أن يتقدم مرجعه لفظا أو تقديرا ، أو تدل عليه قرينة ، وهنـا لم يتقدم المرجع فى اللفظ أو التقدير ولم تدل عليه قرينة ، ولكن الذى سوغ الاضمار هنا هو الغرض الذى يهدف اليه المتكلم وهو التفصيل

---

(١) أى ضـمير الغيبة ، لأنه المقصـود هنا ، وهو الذى يحتاج الى سبق المرجع .

بعد الاجمال أو التوضيح بعدم الابهام ، وهو فن من فنون التعبير له وقعه الحسن فى النفس ، وأثره الطيب فى تمكين المعنى وتقويته ، ذلك أن المتكلم عندما ينطق بالفعل مسندا الى ضميره دون سبق مرجع تتطلع النفس الى ما يفسر هذا الضمير ، والى ما يدل عليه ، فاذا أتى بالتمييز بعده نكرة وضح جنس هذا الضمير ، فاذا ما تلاه بعد ذلك المخصوص بالمدح أو الذم اكتمل بيان المقصود بالضمير أتم اكتمال وأوفاه بهذه الطريقة من البيان والايضاح بعد الابهام والخفاء .

ولا يتحقق هذا الغرض من الاضمار الا على اعراب المخصوص بالمدح أو الذم مبتدأ محذوف الخبر ، أو خبرا محذوف المبتدأ ، أى خالد الممدوح ، وابليس المذموم ، أو هو خالد وهو ابليس ، أما على اعتبار أن المخصوص بالمدح أو الذم مبتدأ والجملة قبله خبر ، فلا شاهد لنا حينئذ لتقدم مرجع الضمير ، لأنه عائد — فى أرجح الأقوال — حينئذ على المبتدأ ، وهو وان تأخر لفظا متقدم رتبة .

ومن الواضح أن مقتضى الظاهر فى مثل هذه الأساليب أن يقال نعم البطل خالد ، وبئس العدو ابليس ، فيؤتى بالاسم الظاهر فى موضعه الا أنه يفوت النكتة البلاغية المقصودة من وراء العدول عن هذا الظاهر كما سبق .

ومثاله فى ضمير الشأن أو القصة قول أحد الشعراء :

هى الآمال نبنيها قصورا
على عمد الكلام فهل تقام ؟

فالمسند اليه هنا هو هو ضمير الشأن أو القصة ، ومقتضى الظاهر أن يقال : الشأن أو القصة أو الحال : الآمال نبنيها قصورا ، الا أنه عدل عن هذا الظاهر وأتى بالضمير مع عدم سبق مرجعه للنكتة السابقة وهى البيان بعد الابهام أو التفصيل بعد الاجمال .

ومن هذا القبيل قوله تعالى « قل هو الله أحد » فقد ذكر ضمير الغيبة دون سبق المرجع لأنه ضمير شأن أو قصة ، ثم فسر بما بعده ، وينبغى أن يعلم أن ما بعد ضمير الشأن أو القصة لا بد أن يكون من الأمور المهمة ذات الشأن الكبير ، كما هو واضح فى هذه الآية الكريمة، اذ إن وحدانية الله سبحانه من الأمور التى تضاربت فيها العقول ، وهزت كيان أصحاب الكفر والضلال .

وعلى ذلك فلا يسوغ أن يكون ما بعد ضمير الشأن من الأمور المعهودة المألوفة التى لا تستثير فكرا ، ولا تحرك وجدانا ، فلا يسوغ أن تقول مثلا : انها السماء تمطر ، أو انه يؤدى محمد واجبه الا اذا كان هناك من الظروف والملابسات ما يجعل هذين الأمرين وهما مطر السماء وأداء محمد واجبه أمرين غريبين لم يردا على المألوف المعروف المألوف عند الناس .

ومثل الآية السابقة قوله تعالى « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور (١) .

وقوله جل شأنه : انه لا يفلح الكافرون (٢) .

وقول الشاعر :

على أنها الأيام قد صرن كلها
عجائب حتى ليس فيها عجائب

ولذلك التزم تقديم ضمير الشأن أو القصة للغرض السابق .

---

(١) الحج ٤٦ .
(٢) المؤمنون ١١٧ .

أما وضع المظهر موضع المضمر فان كان ذلك المظهر إسم اشـــارة فيكون لدواع عديدة سبقت الاشارة الى بعضها ، ومن أهم هـــــذه الدواعى ما يلى :

١ — كمال العناية بتمييز المسند اليه أكمل تمييز لابرازه فى معرض المحس المشاهد لاختصاصه بأمر عجيب كما فى قول ابن الراوندى :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبــه
وجاهل جاهل تلقـــاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة
وصير العالم النحرير زنديقا (١)

يقول : ان كثيرا من ذوى الرأى والحجا ضاقت بهم سبل العيش، بينما كثير من الجهـــلاء يأتيهم رزقهم رغدا ، الأمر الذى حير العقول ، وجعل العالم النحرير زائغ العقيدة مسلوب الرشاد .

وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بالضمير فى البيت الثانى فيقول : هما لتقدم المرجع فى البيت الأول ، ولكن عدل عنه لاختصاص المســـند اليه بأمر غريب حير العقول ، وزلزل عقيدة العالم ، ولذلك أتى به اسم اشارة لتمييزه أكمل تمييز من أجل هذا الاختصاص .

٢ — التهكم بالسامع كما اذا قلت لفاقد البصر الذى سألك عـــن ظهور السحاب : هذا السحاب قد ظهر فى الســـماء . وكان الأصـــل فى التعبير أن يؤتى بالضمير لتقدم مرجعه فى السؤال .

٣ — التنبيه على كمال بلادة السامع وأنه لا يدرك غـــير المحس بحاسة البصر ، أو على كمال فطنته وأن غير المحسوس عنده بمنـــزلة

---

(١) عاقل الثانى نعت للأول أى كامل العقل ، وكذلك جاهل الثانى، الأوهام : العقول ، والنحرير هو المحقق الذى يحكم المسائل ويحررها والزنديق زائغ العقيدة .

ناقصة من أصل المصدر

ناقص من أصل المصدر

فان تغفر فأنت لذاك أهـــل
وان تطرد فمن يرحم ســواكا

وكان مقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير المتكلم فيقول : أنا العاصى ، لكن عدل عنه الى لفظ العبد لما فيه من اظهار العبودية والخضوع له ، فيكون ذلك أعون على المراد .

ومنه فى غير باب المسند اليه قوله جل شأنه : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل (١) .

وكان مقتضى الظاهر أن يقال : وبه نزل لتقدم مرجع الضمير ولكنه عدل عنه الى الاسم الظاهر ليتمكن ويتقرر فى النفس ، وليدل صراحة على نزوله بالحق ، أى بالحكمة المقتضية للانزال وهى الهداية .

وعلى هذا النحو قول الشاعر :

ان تسألوا الحق نعط الحق سائله
والدرع محقبة والسيف مقروب (٢)

فلم يقل نعط سائله ، وانما آثر الاظهار فى لفظ «الحق» لما فيه من تمكين المعنى وتقريره فى النفس فى موقف استدعى ذلك .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « فاذا عزمت فتوكل على الله وكان الظاهر أن يقول : فتوكل علىّ ، لأنه عز وجل هو المتكلم ، ولكن فى ذكر لفظ الجلالة ما فيه من معنى القوة والسلطان والرهبة التى تستدعى أن يتوكل عليه الانسان ، وأن يفوض اليه أمره .

---

(١) الاسراء ١٠٥ .
(٢) الدرع المحقبة أى المشدودة الى الحقيبة ، والسيف المقروب أى الموضوع فى قرابه أى غمده .

وقد يوضع المظهر موضع المضمر للتلذذ بذكر اسمه صراحة كما في قول الشاعر :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا
ليلاى منكن أم ليلى من البشر

وكان الظاهر أن يقول أم هى .

ومن ذلك فى غير باب المسند اليه قول الشاعر :

سعاد التى أضناك حب سعادا
وإعراضها عنك استمر وزادا

بدل أن يقول : التى أضناك حبها .

ومن وضع المظهر موضع المضمر اعجابا به ، وحرصا على نسبة دواعى الاعجاب به الى اسمه صراحة دون ضميره قول الشاعر :

نفس عصام سودت عصاما
وعلمته الكر والاقداما

بدل أن يقول : سودته ، ولعلك تحس الفرق بين التعبيرين .

الى غير ذلك من الدواعى التى تدعو الى وضع المظهر موضع المضمر فى باب المسند اليه وفى غير بابه .

٣ - الالتفات :

ومن الأساليب التى جرى فيها الكلام على غير مقتضى الظاهر المطلوب الالتفات وهو مأخوذ من الالتفات الحسى وهو أن يلتفت الانسان عن يمينه أو شماله ، لأن الالتفات فى الكلام هو تغيير وجهته على طريقة خاصة ، كما يغير الملتفت وجهته بتحويل وجهه يمينا أو يسارا ، وهو من أدق أبواب البلاغة وألطفها مسلكا ، ولا يسهل تأتيه

لكل متكلم الا اذا كان ذا بصر بالأساليب العربية ودقائقها ، واعيـــا بأسرار التراكيب وأنماطها ، ويطلقون على هــــذا النوع من الكلام شجاعة العربية ، لأن المتكلم يغير نمط الأسلوب المتوقع لدى السامع ، ويوجه طريقته فى التعبير وجهة أخرى غير منتظرة تحقيقـــا لمعنى فى نفسه ، وابرازا لغرض يهدف اليه من وراء هذا الصنيع كما أن الشجاع يصنع البطولات الخارقة ، ويقتحم الأهوال والصعاب اقتحاما غـــير مألوف أو معروف لغيره •

والالتفات عند جمهور البلاغيين هو التعبير عن معنى من المعانى بطريق من طرق التعبير الثلاثة — المتكلم — الخطاب — الغيبة — بعد التعبير عن هذا المعنى بطريق آخر من هذه الطرق ، كما تجده فى قوله جل شأنه : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى » (١)

فانك تجد الحديث يبدأ أولا بضمير الغيبة فى « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » ثم ينتقل بعد ذلك الى ضمير الخطاب فى « وما يدريك لعله يزكى » ولو جرى الكلام على نمط واحد لقـــال : وما يدريه لعله يزكى ، فقد عبر عن المعنى بطريق الغيبة أولا ثم بطريق الخطـــاب بعـــد ذلك •

ومن هـــذا يتضـــح أن الالتفـــات عند الجمهـــور لا يتحقق الا بأمرين :

١ — أن يسبق طريق التعبير بالالتفات طريق آخر •

٢ — أن يكون الطريق الذى وقع فيه التعبير مغايرا للطريق الذى ســـــبقه •

---

(١) عبس ١ — ٣ •

أما رأى السكاكى فالالتفات عنده أعم وأشمل مما هو عند الجمهور ، ذلك أنه يرى أن الالتفات يتحقق فيما ذهب اليه الجمهور ، وفى طريقة أخرى هى أن يخرج الكلام على طريق غير موافق للظاهر فى التعبير وان كان موافقا للمقام ، وبعبارة أخرى فهو يرى أن الالتفات هو التعبير عن معنى بطريق مخالف لمقتضى الظاهر من الطرق الثلاثة السابقة ، سواء سبقه تعبير عن هذا المعنى بطريق مغاير أم لم يسبقه .

ففى الآية المتقدمة التفات عند الجمهور والسكاكى من الغيبة الى الخطاب ، وأما قول الشاعر :

الهى عبدك العاصى أتاكا مقرا بالذنوب وقد دعاكا

فهو التفات على رأى السكاكى فقط ، لأن مقتضى الظاهر أن يقول : الهى أنا العاصى أتيتك لكنه عدل عن التكلم الى الغيبة ، لأن الاسم الظاهر من قبيل الغائب ، وقد علمنا السر فى هذا العدول .

وبذلك نعلم أن الالتفات عند الجمهور أخص منه عند السكاكى ، فكل التفات عندهم التفات عند السكاكى ولا عكس .

صور الالتفات :

ذكر البلاغيون ست صور للالتفات مستنبطة من طرق التعبير بالضمائر الثلاثة والمخالفة بينها ، ووجه الحصر فيها أن ضمير المتكلم قد يلتفت منه الى الضميرين الآخرين وهما الخطاب أو الغيبة ، فهاتان صورتان ، وضمير الخطاب قد يلتفت منه الى الضميرين الآخرين وهما التكلم أو الغيبة ، فهاتان صورتان أخريان ، وضمر الغيبة قد يلتفت منه الى ضمير التكلم أو الخطاب ، فهاتان صورتان أيضا ، فيكون مجموع الصور ستا ، واليك بيانها :

١ ـ الالتفات من التكلم الى الخطاب كما في قوله جل شأنه : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون » (١) فقد التفت من ضمير التكلم في : مالى ـ فطرنى ـ الى ضمير الخطاب في « ترجعون » لتهديدهم لانصرافهم عن الله سبحانه بأنهم سيرجعون إليه ، ولن يستطيعوا الفكاك من عقابه .

وهذا وإن كان ضميرا للمتكلم يعني لا يعبد نفسه وان كان يعني بها قومه وإنما أبرز ذلك على لسانه هو مع أنه مؤمن تنبيها وتوبيخا فيكون في الضمير الأول التفات على رأى السكاكى فقط ، لأن مقتضى الظاهر أن يقول : وما لكم .. ، ويكون في الانتقال من الضمير الثانى «فطرنى» الى ضمير المخاطب انتقالا والتفاتا على كلا الرأيين . .

٢ ـ من التكلم الى الغيبة كما في قوله جل شأنه : قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله .. » (٢) فقد انتقل من التكلم في «عبادى» الى الغيبة في « رحمة الله » وكان مقتضى الظاهر أن يقول : من رحمتى ، ولعل السر في اضافة الرحمة الى لفظ الجلالة دون ضميره إشارة الى أنه الخالق المعبود ، وهم عباده ، وكذلك لفظ الجلالة بما فيه من معنى الألوهية والقدرة والتعظيم يشعر بأن ذنوبهم مهما عظمت فلن تؤثر شيئا في جلال الله وعظمته ، بل هو مع ذلك سيصفح عن التائب منهم لأنهم عباده .

٣ ـ من الخطاب الى التكلم كما في قول علقمة الفحل :

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

---

(١) يس ٢٢ .
(٢) الزمر ٥٣ .

يكلفنى ليلى وقـــد شط وليهـــا
وعادت عواد بيننا وخطـــوب (١)

يخاطب الشاعر نفسه فيقول : انه أضربك قلب شغوف بالحسان بعد عصر الشباب الذى كاد ينصرم ومع ذلك لا يزال قلبى يكلفنى وصل ليلى مع أنها قد بعدت عنى وحالت الخطوب بينى وبينها ، والشـاهد فى العدول عن ضمير الخطاب فى «طحابك» الى ضمير التكلم فى «يكلفنى» وهو التفات على كلا المذهبين ، وهناك التفات آخر على رأى السكاكى وحده فى قوله « طحابك قلب » اذ مقتضى الظاهر ان يقول : طحابى ، فهو الالتفات من التكلم الى الخطاب على رأيه ، ولعل السر فى الالتفات الأول كراهة أن ينسب ما فعله القلب به الى نفسه ، وبخاصة أنه كان على وشك المشيب ، ثم عدل عن الخطاب الى التكلم فى «يكلفنى ليلى»، لأن كلفه بليلى هو الذى استحوذ على فكره وشـعوره وما زال يلح عليه قلبه مع بعدها وعزها وحيلولة العوادى دون وصالها .

٤ ــ من الخطاب الى الغيبة كما فى قوله تعالى : « حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان » (٢) فقـد عدل عن الخطـاب فى « كنتم » الى الغيبـة فى « وجرين بهم » ولعل السر فى هذا الانتقال هو القصد الى ذكر أخبـار المحدث عنهم وأحوالهم العجيبة من أنهم لا يلجئون الى الله الا فى وقت المحن والشدائد ، ليكون فى ذلك عبرة لغيرهم ، ولأنهم بعد أن جـرت بهم الفلك ، وجاءتها الريح العاصف أصبحوا فى غيبة عن المشاهدة ، فناسب التعبير عنهم بضمير الغيبة ، ولأنهم فى هذه الحالة من اللـؤم

---

(١) طحابك : ذهب بك ، وطروب له طرب ونشاط وبعيد تصـغير بعد ، وحان قرب ، وشط وليها بعد وصلها وعادت عواد ، حالت صروف الدهر ونوائبه بينى وبينها .

(٢) يونس ٢٢ .

وهذه الطريقة من التعامل مع الله لا يستحقون خطابا مباشرا منــــه سبحانه ، بل يستحقون البعد والابتعاد عن ساحة الخطاب لســــوء صـــــنيعهم •

٥ — من الغيبة الى التكلم كما فى قوله جل شأنه : « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت » (١) وقوله سبحانه: « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المســـجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا » (٢) فقد التفت من الغيبة فى كلتا الآيتين الى التكلم فى : «فسقناه» وفى « لنريه من آياتنا كما هو واضح » ، وهو التفات على الرأيين •

وفى التعبير الأول منهما التفات على مذهب السكاكى اذ كان مقتضى الظاهر أن يقال : ونحن أرسلنا الرياح ••• » و « سبحانى » ••

ولعل السر فى الانتقال من الغيبة الى الخطـــاب فى الآية الأولى أن سوق السحاب هو المقصد المهم فى الآية ، لأنه ينتج عنه الرزق ، ويوزعه المولى جل شأنه على مقتضى حكمته ، وموجب رحمته •

وفى الآية الثانية أن الهدف من الاسراء هو اراءة الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بعضا من آيات الله الكبرى التى سيكون لها أثرها فى رسالته فيما بعد ، كما أنه رأى ربه من غير كيف فى هذه الليلة على المشهور فناسب ذلك أن يغير الأسلوب الى التكلم بعد الغيبة تشريفا لقدر الرسول ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ •

٦ ـــ من الغيبة الى الخطاب كما فى قوله جل شـــأنه « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين

---

(١) فاطر ٩ •

(٢) الاسراء ١ •

إياك نعبد وإياك نستعين » فقد عدل عن الغيبة المعبر عنها بالاســم الظاهر فى الآيات الى الخطاب فى « إياك نعبد وإياك نستعين » ولعل السر فى ذلك أن ما تقدم فى الآيات من ذكر صفات الرحمة لله سبحانه بعباده وأنه رب العالمين ويستحق الحمد والثناء منهم ، وأنه هو الذى يملك يوم الدين يجعله سبحانه جديرا بأن يتوجه اليه عباده عن طريق الخطاب بالعبادة والاستعانة ، ويخصونه سبحانه بهما .

من هذا يعلم أن تغيير نمط التعبير فى الأسلوب لا يأتى عفوا، ولا يقع عبثا ، انما يكون لحكمــة خاصــة ولسر دقيق قد يفطن اليه وقد لا يفطن ، ثم نجد بعد ذلك أن هناك سرا كامنا عاما وراء تغيير نمط التعبير، هو أن ذلك أدعى لتجديد نشاط السامع واثارة انتباهه فى هــذه النقلة من طريقة الى أخرى فى التعبير ، تجعله يتوقف عندها ، ليستشف ماوراء ذلك من هدف ، وما اكتنفه من ظروف جعلت طريقة التعبير لا تسير على وتيرة واحدة ، فيكون ذلك أدعى الى نشــاطه الذهنى ، وأمكن فى إثارة احساسه وشعوره الى الهدف والمغزى من هذه الطريقة .

٣ ــ الأسلوب الحكيم :

عرف البلاغيون الأسلوب الحكيم بأنه تلقى المخاطب بغير ما يترتب يحمل كلامه على غير مراده ، أو اجابة السائل بغير ما يتطلب بتنــزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها ــ فى الصورتين ــ على أن هذا هو الأولى بأن يراد ويطلب .

مثال الأول قول ابن القبعثرى للحجاج عنــدما قال له الحجاج متــوعدا : لأحملك على الأدهم أي القيــد الحــديدى فقــال له ابن القبعثرى : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب (١) .

---

(١) الأدهم : الفرس الذى غلب سواده بياضه،والأشهب الفرس الذى غلب بياضه سواده .

ناقص من أصل المصدر

ناقص من أصل المصدر

وداعا بينه وبينها ، والشاهد فى الشطر الثانى ، اذ الأصل ، ولا يك الوداع موقفا منك ، والداعى الى اعتبار هذا الأصل تصحيح القـاعدة العربية التى مؤداها أن الأصل فى المبتدأ أن يكون معرفة وفى الخبر أن يكون نكرة ٠

(ب) ما يكون موجبه تصحيح المعنى فقط كما فى قولهم : عرضت الناقة على الحوض ، وكان مقتضى الظاهر أن يقول : عرضت الحـوض على الناقة ، اذ المعروض لا خيار له ، أما المعروض عليه فينبغى أن يكون ذا حس وشـعور حتى يقبل ما عرض عليه أو يرفضـه ، والذى سوغ هذا القلبهو أمن اللبس بين المعروض والمعروض عليه ، فسواء جاء الكلام على مقتضى الظاهر أم عدل به عن مقتضى الظاهر لا يخفى المعروض والمعروض عيه ٠

من هذا القبيل قولهم أدخلت الخاتم فى الأصبع ، والقلنسـوة فى الرأس ، اذ الأصل أدخلت الأصبع فى الخاتم ، والرأس فى القلنسوة ، لأن المظـروف هو الذى يدخل فى الظرف ، وكل من الأصـبع والرأس مظروف فى ظرفه وهو الخاتم والقلنسوة ٠

القلب بين القبول والرد :

قبل السكاكى ومن تبعه القلب مطلقا سواء تضمن اعتبارا لطيفا أم لم يتضمن ، وحجتهم فى ذلك أن الكلام اذا جاء على خلاف الأصل دعا الى التنبيه على الأصل ، فيكون فى ذلك ملاحة وظرفا ٠ ورده قوم مطلقا لأنه عكس المطلوب ونقيض المقصود ، وحملوا ما جاء منه على التقديم والتأخير ٠ والحق فى المسألة التفصيل ، فان تضمن اعتبارا لطيفا زائدا على الملاحة والظرف قبل والا فلا ، ومن القلب الذى تضـمن اعتبارا

لطيفا قول الله تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار » (١) لأن مقتضى الظاهر أن يقال : ويوم تعرض النار على الذين كفروا » حيث ان المعروض لا خيار له ، أما المعروض عليه فهو بالخيـــار بين أن يقبل ما عرض عليه أو يرفض كما سبق ، ولما كان الكفار هنا لا خيـــار لهم فى قبول النار أو رفضها ، لأنهم فى موقف الذلة والمهانة جعلت النار كأنها صاحبة الخيار فيما يعرض عليها من الكفار فهى أحسن حالا منهم مع أنها جماد وهم العقلاء المختارون ، ولما تضمن القلب هذا الاعتبار اللطيف كان مقبولا .

ومن هذا النوع أيضا قول رؤبة بن العجاج يصف السماء بشدة الغبرة :

ومهمه مغبرة أرجاؤه ... كأن لون أرضه سماؤه (٢)

والشاهد فى الشطر الثانى لأنه من باب القلب ، اذ الأصـــل كأن لون سمائه لون أرضه ، لأن الأصل فى الاتصاف بالغبرة هو لون الأرض لا لون السماء ، لكن لما اشتدت غبرة السماء جعلت كأنها الأصل فى الغبرة وشبهت بها غبرة الأرض ، فالاعتبار اللطيف الذى سوغ القلب هنا هو المبالغة فى وصف لون السماء بالغبرة .

ومنه قول أبى تمام :

لعاب الأفاعى القاتلات لعـــابه ... وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل (٣)

---

(١) الأحقاف ٢٠ .

(٢) المهمة : المفازة ، والأرجاء جمع رجا بالقصر ، وسماؤه على حذف مضاف والتقدير لون سمائه .

(٣) الأرى او الجنى : العسل ، واشتارته جنته ، والأيدى العواسل : الخبيرة بالجنى .

فالشطر الأول من باب القلب ، اذ الأصل : تشبيه لعاب قلمه بلعاب الأفاعى فى شدة وقع الألم ، لكن لما كان المراد المبالغة فى بيان شدة ألم لعابه جعل أصلا فى ذلك ، وشبه به لعاب الأفاعى .

وقد يقال : ان البيتين من باب التشبيه المقلوب للمبالغة ، وليس مما نحن فيه ، ولذلك ينبغى أن يمثل لهذا النوع بمثل الآية السـابقة :

« ويوم يعرض الذين كفروا على النار » .

ويمكن أن يمثل له أيضا بقول الشاعر :

ورأين شيخا قد تحنى صلبه   يمشى فيقعس أو يكب فيعثر (١)

يقول : رأت الغوانى شـيخا أقعس يتكلف مشـية الأقعس خوف السقوط مع أنه أحدب الظهر ، والشاهد فى قوله : أو يكب فيعثر ، اذ الأصل : أو يعثر فيكب ، لأن التعثر أولا ثم الاكباب ثانيا ، والاعتبار اللطيف الذى تضمنه القلب هنا هو أنه يخيل اليك أن هـذا الرجل فى منتهى الضعف حتى انه ليكاد يسقط قبل أن يعثر .

ومثال القلب المردود لأنه لم يتضمن اعتبارا لطيفا ، فهو خروج عن مقتضى الظاهر دون داع : قول القطامى :

فلما أن جرى سـمن عليهـا   كما طينت بالفدن السياعا (٢)

يشبه الشاعر الناقة فى بدانتها وسـمنتها بالقصر العظيم الذى غطى بالطين المخلوط بالتبن حتى صـار متينا أملس ، وكان الظاهر أن

---

(١) صلبه : ظهره ، يقعس : القعس بالفتح ضد الحدب ، والاكباب : السقوط

(٢) الفدن بالفتح القصر ، والسـياع بكسر السـين أو فتحها الطين المخلوط بالتبن .

يقال : كما طينت الفدن بالسياع ، لكنه قلب دون اعتبار لطيف لهذا القلب .

وقد يقال : ان الاعتبار اللطيف هنا يفيد أن هـذا القصر قد غطى بهذا الطين غطاء كاملا ، يوهم أن السـياع بلغ من الكثرة حدا يجعله كأنه الأصل ، وأن الفدن بالنسبة له كأنه السـياع ، فيدل ذلك بطريق غير مباشر على ضخامة وسمن هذه الناقة التى يتحدث عنها،وهذا تكلف.
ومن القلب المردود أيضا قول عروة بن الورد :

فديت بنفسه نفسى ومالى وما آلوك الا ما أطيق

والأصل : فديت نفسه بنفسى ومالى

ونستطيع استنباطا مما سبق وهو أن القلب الذى يتضمن اعتبارا لطيفا مردود أن نجعل الآيات القرآنية التى يوهم ظاهرها القلب دون اعتبار لطيف مؤولة تأويلا يخرجها عن باب القلب ، ويدخلها فى نمط آخر من التعبير له مغزاه ومعناه ، ومن ذلك قوله تعـالى : « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسـنا » (١) فلا يقال : ان الأصـل : جاءها بأسـنا فأهلكناها ، بل يقال أردنا اهلاكها فجاءها بأسـنا ، على سـبيل المجاز المرسـل كما سـيأتى فى موضـعه ، وكذلك قوله تعـالى : « ثم دنا فتدلى » (٢) لا يقال إن الأصـل : ثم تدلى فدنا ، بل الآية مؤولة على معنى ، أراد الدنو فتـدلى ، ومن ذلك أيضـا قوله جل شأنه « اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون »(٣) لا يقال : الأصل : فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم ، بل تؤول على معنى : «تنح عنهم الى مكان قريب تتوارى فيه فانظر ماذا يرجعون .

---

(١) الأعراف ٤ .
(٢) النجم ٨ .
(٣) النحل ٢٨ .

ومن القلب المردود — على رأى — قول قطرى بن الفجاءة :

ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب   جذع البصيرة قارح الاقدام(١)

يقول : انه انصرف من المعركة مصـــيبا غيره غير مصـــاب هو ، والشاهد فى الشطر الثانى ، اذ الأصل : جذع الاقدام قارح البصيرة، أى قوى الاقدام ، ذا بصر وخبرة بالحروب ، وهذا القلب لم يتضمن اعتبارا لطيفا فهو مردود . لكن ذلك مبنى على جعل : جذع البصـــيرة قارح الاقدام حالين من فاعل انصرفت ، وقوله : وقد أصبت ولم أصب: جملتان معترضتان ، لكن يمكن أن يجعل قوله : لم أصب بمعنى لم ألف، أى لم أوجد على هاتين الصـــفتين ، وهما جذع البصيرة قارح الأقدام، بل وجدت على عكسهما وهما جذع الاقدام قارح البصيرة(٢) ، وعلى هذا الاعتبـــار يصـــح معنى البيت ويخـــرج من باب القلب ، ويؤيده قوله قبل ذلك :

لايركن أحـــد الى الإحجـــام
يوم الوغى متخـــوفا لحمـــام
فلقـــد أرانى للرماح دريئـــة
من عن يمـــينى مرة وأمـــامى
حتى خضبت بما تحدر من دمى
أكناف سرجى أو عنان لجامى(٣)

ولذلك يعقب الخطيب القزوينى على هذه الأبيات بقوله :

---

(١) جذع البصيرة اى غر غير مجرب ، وقارح الاقدام : أى له اقدام كبار السـن ، والجـذع من الدواب هو الحدث القوى ، والقارح : الكبير السن منها .

(٢) ويكون : جذع البصيرة .. الخ حالا من الضمير المستتر فى : لم أصب .

(٣) الدريئة الحلقة التى يتدرب عليها بالطعن ، والأكناف : الجوانب

فان الخضاب بما تحدر من دمه دليل على أنه جرح ، وأيضا فحوى كلامه أن مراده أن يدل على أنه جرح ولم يمت اعلاما أن الاقدام غير علة للحمام ، وحثا على الشجاعة وبغض الفرار » (١) .

٥ — التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه :

يدخل بعض البلاغيين هذا الموضوع فى علم البيان ، لاستعمال اللفظ فيه فى غير ما وضع له من حيث الصيغة ، فيكون من قبيل الاستعارة التبعية كما سيأتى ، ويدخله البعض الآخر فى علم المعانى من حيث الغرض منه والداعى اليه ، وهو التنبيه على تحقق الوقوع أو استحضار الصورة كما سيأتى ، وعلى كل فهو يدخل فى العلمين باعتبارين مختلفين.

أما التعبير عن المضارع بالماضى فقد ذكروا أنه لتحقق الوقوع ، لأن الماضى موضوع أصلا للدلالة على الأحداث التى وقعت وانتهت ، وأصبحت ليست مجالا لشك أو الجدال فى وقوعها ، ولهذا نجد القرآن الكريم يعبر عن الأحداث المستقبلة المحققة الوقوع بصيغة الماضى للدلالة على أنها ليست محلا للشك فى وقوعها كما فى قوله تعالى : «أتى أمر الله فلا تستعجلوه » (٢) « ونفخ فى الصور فجمعناهم جميعا » (٣) الآية « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض»(٤) . « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون . وسيق الذين كفروا .. » (٥) الآيات .

---

(١) بغية الايضاح جـ ١ ص ١٥٦ .
(٢) النحل ١ .
(٣) الكهف ٩٩ .
(٤) الزمر ٦٨ .
(٥) الزمر ٦٩ .

ومن هذا القبيل أيضا التعبير عن المستقبل باسم الفاعل كما فى قوله جل شأنه : « ان الدين لواقع » (١) بدلا من ليقع ، لأن اســم الفاعل موضوع للدلالة على الحال ، وكذلك اسم المفعول كما فى قوله جل شأنه « ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » (٢) بدلا من يجمع له الناس ويشهد •

وقد يكون العدول عن المضارع الى الماضى لتحقق الوقوع انطلاقا من شعور المتكلم واحساسه بصرف النظر عن كون ذلك يتحقق فى الواقع أو لا يتحقق ، من ذلك قول حســان بن ثابت عندما أتاه ابنه يبكى وقد لدغه زنبور • مالك ؟ قال : لسعنى طوير كأنه ملتف فى بردى حبرة» (٣) فأعجب بهذه العبــارة البليغة ، وقال له يابنى : لقد قلت الشـــعر ، أى ستقوله ، ومن التعبير عن الماضى بالمضارع استحضارا لصورة الحدث لغرابته قوله جل شــأنه : « والله الذى أرســل الرياح فتثير ســحابا فسقناه » (٤) بدلا من فأثارت سحابا ، مع أن اثارة السحاب أمر واقع فعلا بدليل : أرسل الرياح ، وسقناه ، لكن لما كان المضــارع صــالحا للحال والاستقبال استحضرت صورة الحدث هنا به ، لأن هــذا الحدث الذى وقع فى الماضى مازال يقع حتى الآن ، ومازالت آثاره مشــاهدة ملموسة ، فهو قد وقع واستمر •

ومن هذا القبيل قوله تعالى : « واتبعوا ما تتلو الشــياطين على ملك سليمان » (٥) أى ما تلت •• الى غير ذلك من الشــواهد القرآنية

---

(١) الذاريات ٦ •
(٢) هود ١٠٣ •
(٣) الحبرة كعنبة : ضرب من برود اليمن •
(٤) فاطر ٩ •
(٥) البقرة ١٠٢ •

وهى كثيرة جدا فى هذا المقام ، وهذا النمط من التعبير يأتى على سبيل المجاز بالاستعارة التبعية كما سيأتى فى موضعه ان شاء الله تعالى .

أحوال المسند

المسند هو المحكوم به ، وله — كما للمسند اليه — أحوال متعددة تعرض له من حذف أو ذكر أو تقديم أو تأخير ، أو تعريف أو تنكير ، أو كونه مفردا أو جملة ، أو فعلا أو اسما الى غير ذلك ، ونبدأ من هذه الأحوال بالحديث عن :

حذف المسند (١) :

هناك بعض الأغراض العامة للحذف بصفة عامة يدخل فيها حذف المسند كالايجاز الذى يجعل العبارة محكمة دقيقة ، خالية مما لا مبرر لذكره فيها ، وكاثارة الفكر والشعور حين لا يعول فى الدلالة على المحذوف على الألفاظ بل على العقل والفكر ، فيكون ذلك أدعى للنشاط الذهنى ، وأبعد عن الخمول الفكرى وكل حذف — كما هو معلوم — يتوقف على أمرين اثنين يسيغانه ، ويجعلانه مقبولا ، هما: اقتضاء المقام اياه ، وقيام القرينة الدالة عليه ، وبدون هذين الأمرين معا يكون الحذف ضربا من العبث فى الكلام ، أو نوعا من الألغاز والتعمية التى تخل بفصاحته .

وهناك أغراض خاصة كامنة وراء كل حذف اقتضاه المقام ، وهى أكثر من أن تحصى ، لأنها مرتبطة بأحوال النفس ، وبالظروف

---

(١) عبر البلاغيون عن حذف المسند اليه بالحذف ، وعن حذف المسند بالترك للاشارة الى أهمية المسند اليه ، لأنه الذى يبنى عليه الكلام ، ويعتمد عليه ، ولما كان المحذوف لعلة أو لغرض كالثابت كان فى التعبير بالحذف اشارة الى أنه كأنه موجود ، وقد أومئوا بالتعبير بالترك مع المسند للاشارة الى أنه ليس فى منزلة المسند اليه ، وهذا اعتبار لطيف ينظر المطول ص١٤٠

والملابسات التى تدعو الى الحذف ، وهى كثيرة متنوعة ، كما سبق أن أشرنا اليه فى حذف المسند اليه ، وهناك التقاء كبير بين الأسباب والدواعى لحذف المسند اليه وحذف المسند كالاحتراز عن العبث فى الذكر بناء على الظاهر من القرينة واختبار تنبه السامع أو مقدار تنبهه عند قيام القرينة ، وضيق المقام بسبب التحسر أو التوجع أو المحافظة على وزن أو قافية ، أو اتباع الاستعمال الوارد على الحذف ، أو ما الى ذلك مما سبق ذكره ، ولا مانع من اجتماع أكثر من غرض فى حذف واحد كما سبق وكما سيأتى •

وقد أورد البلاغيون عدة شواهد لحذف المسند نتعرض — فيما يلى — لبعضها موضحين السر وراء هذا الحذف ، لتتضح الصورة بشكل أوفى وأتم بالمراد •

تأمل قول ضابىء بن الحرث البرجمى من جملة أبيات قالها وهو حبيس بالمدينة ، حبسه عثمان بن عفان لاثم اقترفه ، وهو أنه استعار كلبا من بنى نهشل ، ولما طالبوه به أبى ، فأخذوه منه عنوة فهجاهم هجاء مقذعا :

ومن يك أمس بالمدينة رحله فانى وقيار بها لغريب (١)

يريد أن من أمس بالمدينة ناعما هانئا فقد حسنت حاله ، وساءت حالى بها لأنى ودابتى غريبان فى هذا الحبس ، فليس قوله : فانى وقيار .. الخ جواب الشرط فى صدر البيت وانما هو علة للجواب المحذوف مع غيره من الكلام •

والشاهد قوله : « فانى وقيار بها لغريب ، حيث حذف المسند »

---

(١) الرحل : المنزل أو المأوى ، وقيار : فرس أو جمل الشاعر •

والتقدير فانى بها لغريب وقيار كذلك ، وسر الحذف هنا دلالة المذكور عليه ، وهو قوله : لغريب ، مع ما يقتضيه المقام من الحذف لضيقه وألمه النفسى ، مع ما فى الحـــذف أيضـــا من المحـــافظة على الوزن ، وقوله : « لغريب » خبر ان ، ولا يجوز أن يكون خبرا لقيار لأنه مبتدأ ولا تدخل اللام على خبره فى فصيح الكلام الا اذا كان منسوخا كما فى هذا البيت

ومن الملاحظ أ نالشاعر لم يقل : فانى بها لغريب وقيار ، بل قرن بينه وبين قيار ثم ذكر لفظة « الغربة » بعد ذلك ليبين شـــدة ألم هـــذه الغربة عليه ، حتى ان جمله أو فرسه أحسها وكان يشاركه فيها ، ويشعر بشعوره ، ولعل من هذا القبيل قوله تعالى : « والله ورســـوله أحق أن يرضوه » (١) اذ التقدير : والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك فحذف المسند الثانى لدلالة الأول عليه ، أو بعبـــارة أخرى : حذف المســـند للاحتراز عن العبث فى الكلام ، وقرن بين لفظ الجلالة ولفظ «رسوله» للاشارة الى أن رضا الرسول — عليه الصلاة والســـلام — يجب أن يحرص عليه كما يحرص على رضا الله سبحانه ، لأن من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ولو أخر لفظ الرسول ربما يتوهم أن رضا الرســـــول — عليه الصلاة والسلام — فى منزلة أقل (٢) .

وعلى هـــذا النمط من الحذف أيضـــا قول الشـــاعر « عمرو بن امرىء القيس الخزرجى » عندما احتكم اليه الأوس والخزرج فى دية لعبد يقال له بجير كان قد فضل سيده مالكا على الأوس فقتلوه ، فطالب

---

(١) التوبة ٦٢ .

(٢) هذا باعتبار أن هنا جملتين ، وأما على اعتبار أن الجملة واحدة ولفظ الرسول معطوف على لفظ الجلالة عطف مفردات فلا شـــاهد لنا فى الآية ، ولا يمنع من هذا الوجه افراد الضمير فى (يرضوه) لأنه للدلالة على أن رضا الله ورضا الرسول واحد بدون فرق فيلتقى فى هذا مع الوجه الأول كما سبق .

مالك بتسلم القاتل ليقتله فى عبده ، أو يدفع دية حر فى مقابل قتـــل العبد ، فقال عمرو بن امرىء القيس عدة أبيات عندما احتكموا اليه ، منها هذا البيت :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

اذ التقدير : نحن بما عندنا راضون ، وأنت بما عنـدك راض ، فحذف المسند من الجملة الأولى لدلالة ذكره فى الثانية عليه ، والحذف هنا للاحتراز عن العبث مع المحافظة على الوزن ، ولضيق صدر المتكلم لعدم اذعان المخاطب .

ومن حذف المسند أيضا قول المتنبى :

قالت — وقد رأت اصفرارى — من به ؟
وتنهـــــدت فأجبتهـــا : المتنهـد

فقد سألته متجاهلة سبب ما عراه من اصفرار وشحوب ، وتنهدت لهول ما رأته ، فأجابها بأنها السبب فى ذلك ، وأما « من به » فالمراد : من المطالب والمسئول عن هذا الاصفرار ، ولذلك كان تقدير الجواب : المتنهد هو المسئول عن ذلك ، فيكون من حذف المسند ، أو أن «من به» تقديره من فعل به ذلك ؟ فيكون تقدير الجواب : فعل به ذلك : المتنهد، فيكون من حذف المسند أيضا ، والحذف هنا أيضا للاحتراز عن العبث فى ذكره ، أو لضيق المقام بسبب ما يعـــانيه من ألم نفسى أو لمراعاة الوزن .

ومن الحذف للاحتراز عن العبث أيضا قوله تعـــالى : واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن (١) أى واللائى لم يحضن كذلك ، وهذا التقدير على وجـه

---

(١) الطلاق ٤ .

فى الآية ، وهناك وجه آخر فيها أن تكون من حذف المسند اليه والمسند معا لدلالة الكلام السابق عليهما ، ويكون التقدير : واللائى لم يحضن فعدتهن كذلك ، وسيأتى نظائر لذلك .

وقد يدل ترك ذكر المسند من الكلام على تركه فى المنزلة ، وسقوطه عن الذكر لسقوط درجته ، كما فى قوله جل شأنه : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » (١) فالاسم الموصول مبتدأ خبره محذوف ، والتقدير : أفمن هو قائم على كل نفس يرعاها ويحرسها وهو الله سبحانه وتعالى كمن ليس كذلك ؟ ومن هذا القبيل أيضا : « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم » (٢) .

وفى الحذف هنا اشعار بتعظيم المذكور ، واشارة الى أنه أجل من أن يقارن بالمحذوف ، لأنه ساقط المنزلة لا يستحق ذكرا ولا مقارنة .

وقد يحذف المسند لأن القصد هو الى المسند اليه لينصرف الذهن اليه لاختصاصه بحال غريبة ، ينبغى أن تشيع بين الناس ، ليقفوا عليها ، ويأخذوا منها درسا أو عظة كما فى قوله جل شأنه :

« أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة » (٣) ، أى كمن ينعم فى الجنة ، وقوله سبحانه : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا .. » (٤) أى كمن لم يزين له سوء عمله ... وهكذا .

وقد يحذف المسند تكثيرا للفائدة فى الكلام بأن يحتمل الكلام

---

(١) الرعد ٣٣ .
(٢) الزمر ٢١ .
(٣) الزمر ٢٣ .
(٤) فاطر ٨ .

بحذفه أن يكون هو المحذوف أو يكون المسند اليه هو المحذوف ، فيحتمل الكلام أكثر من وجه ، وبذلك يكون أوفرمعنى وأغزر دلالة ، وهـــذه سمة من سمات الكلام الجيد ، واليك بعض الشواهد :

قال تعالى : « بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميـل » (١) يحتمل أن يكون التقدير : فأمرى أو حالى صبر جميـــل ، فيكون من حذف المسند اليه ، أو يكون التقدير : فصبر جميل أفضل وأجمـل ، والتقدير الأول أولى ، لأنه أنسب بحديث يعقوب عن نفسه •

ومن ذلك أيضا قوله جل شأنه : سورة أنزلناها (٢) يحتمـل أن يكون التقيد : هذه سورة أنزلناها ، فيكون من حذف المسـند اليه ، وأن يكون التقدير : فيما أوحينا اليك سورة أنزلناها فيكون من حذف المســـند •

وقوله جل شأنه : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم قـل لا تقسموا طاعة معروفة » يحتمل أن يكون التقدير : طاعتكم طاعة معروفة،فيكون من حذف المسند اليه ، ذلك لأنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، والآية فى شأن المنافقين ، أو الذى يطلب منكم طاعة معـــروفة كطاعة المؤمنين الذين يطابق باطن أمرهم ظاهره ، فيكون من حذف المسـند اليه أيضا أو يكون التقدير طاعة معـــروفة كطاعة المؤمنين أولى بكم فيكون من حذف المسند (٤) •

ومن هذا القبيل أيضا قوله جل شأنه : « ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم » (٥) اذ يحتمل أن يكون التقدير : ولا تقولوا : لنا آلهـة

---

(١) يوسف ١٨ •
(٢) النور ١ •
(٣) النور ٥٣ •
(٤) ينظر خصائص التراكيب ص ٢٢٢ •
(٥) النساء ١٧١ •

ثلاثة أو فى الوجود آلهة ثلاثة ، فيكون من حذف المسند ، أو يكون : لا تقولوا الله والمسيح وأمه ثلاثة ، أى لا تسووا بينهمـــا وبين الله فتعبدوهما كما تعبدون الله ، فيكونان مثله فى الصـــفة والرتبة ، فيكون من حذف المسند اليه .

وقد يحذف المسند اتباعا للاستعمال الوارد على الحذف فى مثله كوقوع المسند اليه بعد لولا كما فى قول عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ : لولا على لهلك عمر ، أى لولا على موجود ، ولا يحذف الخبر حينئذ الا اذا كان كونا عاما كما فى هذا المثال ، فلو كان كونا خاصـــا لا يجوز حذفه لعدم معرفته كما فى قولك : لولا زيد سالمنا ما سلم .

وقول الشاعر :

يذيب الرعب منـــه كل عضب
فلولا الغمـــد يمسكه لزالا

وككون المبتدأ صريحا فى القسم كما فى قوله جل شأنه : لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون (١) أى لعمرك يمينى أو قسمى ، وكالعطف على المبتدأ بواو تفيد المعية كقولك : كل جندى وسلاحه ، أى مقترنان ، وكاشتمال الكلام على الحال التى تسد مسد الخبر ، كقولهم : اكثـــر شربى السويق ملتوتا ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » .

أى شربى السويق حاصل اذا كان ملتوتا ، وأقـــرب ما يكون العبد من ربه حاصل اذا كان ساجدا وقد شرطوا فى هذه الحال أن تسد مسد الخبر أى تغنى عنه ، وألا تصلح أن تكون خبرا .

---

(١) الحجر ٧٢ .

ومن الواضح أنك تحس فى هذه المواضع كلها أن ذكر المسند يصيب العبارة بالتفكك والقلق والبعد عن الدقة والاحكام الذى كانت عليه مع الحذف .

ومن الحذف لاتباع الاستعمال الوارد وقوع المسند اليه بعد اذا الفجائية كما فى قولك : خرجت فاذا الأسد ، أى موجود ، ولا يحذف الخبر هنا أيضا الا اذا كان كونا عاما كما سبق .

ومن حذف المسند أيضا للسبب نفسه قولك : ان محمدا وان عليا ، أى ان لى محمدا وان لى عليا ، تقول ذلك لمن قال لك : ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فتراهم يحذفون المسند عند تكرار إن ، ولا يسوغ الحذف بدونها فلا تقول مثلا : محمد وعلى ، لاحتمال أن يكون القصد الى الاسم المفرد ، وأما دخول ان فيشعر بالمحذوف ، لأنها لا تدخل الا على جملة فيها نسبة بين شيئين ، وهذا يستدعى تقديرا للمحذوف ، والحذف هنا يفيد — مع الايجاز — قوة العبارة ودقتها .

ومن شواهد البلاغيين فى هذا المضمار قول الأعشى :

ان محلا وان مرتحلا وان فى السفر اذ مضوا مهلا (١)

يريد أن لنا فى الدنيا حلولا الى حين ، ثم لنا بعد ذلك مرتحلا الى الآخرة طويلا كما هو شأن الراحلين عنهم الذين مضوا فلم يعودوا ، والشاهد هو فى قوله : ان محلا وان مرتحلا ، أى ان لنا محلا وان لنا مرتحلا .

ومن الحذف لاتباع الاستعمال الوارد قوله تعالى : « قل لو أنتم

---

(١) المحل والمرتحل مصدران ميميان بمعنى الحل والارتحال ، والسفر بفتح السين وسكون الفاء جماعة المسافرين ، ومهلا : امهالا وطول غيبة .

تملكون خزائن رحمة ربي اذا لأمسكتم خشية الانفاق » (١) لأن «أنتم» فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور ، لأن «لو» لا تدخل الا على الأفعال، وتقدير الكلام : لو تملكون تملكون ، فلما حذف الفعل المسند انفصل الضمير ، ثم ذكر الفعل من بعده دلالة عليه .

وهكذا ما يقتضيه علم الاعراب ، اما ما يقتضيه علم البيان فهو أن « أنتم تملكون » فيه دلالة على الاختصاص ، وأن النـــاس هم المختصون بالشح المتبالغ ، ونحـــوه قول حاتم : لو ذات ســـوار لطمتني (٢) وقول المتلمس :

ولو غير اخواني أرادوا نقيصتي (٣)

فالحذف وان كان يسير على نمط اتباع الاستعمال الوارد يفيـد مع ذلك الاختصاص كما ذكر الزمخشري .

ومن هذا القبيل قول المتلمس :

ولو غير أخـــوالي أرادوا نقيصتي
جعلت لهم فوق العرانين ميســـما
وما كنت الا مثل قاطع كفـــه
بكف له أخرى فأصبح أجـــذما

العرانين : جمع عرنين ، وهو الأنف كله أو ما صلب منه ، والميسم

---

(١) الاسراء ١٠٠ .
(٢) ذات السوار هي الحرة يريد حاتم أن لو لطمته حرة لهان الأمر يكن مع حاتم شيء يســـاومهم به ، ثم قال أطلقوه واجعلوا يدي في القيد يكن مع حاتم شيء فساوموهم بها ، ثم قال أطلقوه واجعلوا يدي في القيد مكانه سيفعلوا ، ثم جاءته أمة ببعير ليفصده فنحره فلطمته على وجهه .
(٣) الكشاف ٤٦٨/٢ .

العلامة ، يقول لو أن الاساءة أتتنى من غير أخوالى لعرفت كيف أثار لنفسى ، ولكنها أتتنى من ذوى رحمى ، فاذا انتقمت منهم كنت كالذى يبتر يده باليد الأخرى •

هذا وقد يحذف المسند والمسند اليه جميعا مبالغة فى الايجاز والدقة والاحكام ، وانطلاقا من المقام الذى يدعو الى ذلك ، كما فى قولهم : أهلك والليل ، أى أدرك أهلك ، وبادر الليل قبل أن يحول بينك وبينهم ، فلما كان الموقف موقف لهفة وتحذير كان أدعى الى الاختصار والايجاز المناسب له ، ومن ذلك قوله تعالى : فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها (١) •

أى ذروا ناقة الله ، أو احذروا ناقة الله أى عقرها ، فالموقف موقف لهفة على نجاتهم ، وسرعة فى نجدتهم قبل أن يقعوا فى الهلاك لعقرها ، ولذلك ناسب الحذف الموقف ، ولعل من هذا القبيل أساليب الاغراء والتحذير التى تأتى على هذ انمط •

ومن حذف المسند مع المسند اليه أيضا اقامة المصدر مقام فعله كما فى قوله تعالى « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » (٢) ، وقد ناسب الحذف هنا الارشاد الى السرعة المطلوبة فى ضرب الرقاب عند الظفر بالكفار ، ولا يناسب هذ الموقف أن تذكر العبارة كاملة فيقال مثلا : فاضربوا رقابهم •

ومن حذف المسند اليه والمسند جميعا فى غير هذه الصور قوله قوله تعالى « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (٣) على قراءة النصب،والتقدير : ينفقون العفو،ولو ذكر المقدر لأحسست قلقا فى

---

(١) الشمس ١٣ •
(٢) سورة محمد ٤ •
(٣) البقرة ٢١٩ •

الكلام ، ونبوا فى العبارة ، وفى الحذف اسراع الى بيان المطلوب دون اطالة بذكر ما دل عليه السؤال ... الى غير ذلك من أساليب الحــذف المتنوعة فى المسند أو المسند اليه أو فيهما معا وهى كثيرة لا يتسع المقام للاستطراد فيها (١) .

هذا وقد سبق أن ذكرنا أن الحذف يتوقف على أمرين همـــــا اقتضاء المقام اياه ودلالة القرينة لعيه ، ومن القــرئن الدالة عــــلى المحذوف وقوع المسند فى كلام واقع جوابا لسؤال محقق أو مقــدر ، والمراد بالسؤال المحقق ما له صورة فى الكلام وان لم يوجد بالفعــل ، والمراد بالسؤال المقدر ما لم توجد له صورة فى الكلام .

فالأول كما فى قوله جل شأنه « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » (٢) أى خلقهن الله، فقد حذف المسند لدلالة السؤال المذكور عليه ، ومن حذف الفاعل والمفعول معا لدلالة السؤال عليهمـــا الآية السابقة قبل هذه الآية « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » أى ينفقون العفو .

والثانى كما فى قوله سبحانه : فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » (٣) فى قراءة من بنى الفعل : يسبح للمجهول، وبذلك يكون المحذوف هو الفعل المســـــند الى رجال لوقوعه فى جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : من يسبحه ؟ فقيل : يســـبحه رجال ، ومن هـــــذا القبيل أيضا قوله تعالى « كذلك يوحى اليك والى الــذين من قبلك الله

---

(١) انظر خصائص التراكيب ص ٢١٣ وما بعدها .
(٢) لقمان ٢٥ .
(٣) النور ٣٦ .

العزيز الحكيم » (١) على قراءة بناء الفعل «يوحى» للمجهول،فيكون الفعل المسند الى فاعله وهو الله العزيز الحكيم محذوفا لدلالة السؤال المقدر عليه ، كأنه قيل : من يوحى اليك والى الذين من قبلك ، فأجيب: يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم •

ومن هذا القبيل أيضا — على احدى الروايات فى البيت — قول ضرار بن نهشل يرثى أخاه يزيد :

ليبك يزيد ضـــارع لخصـومة
ومختبط مما تطيح الطـوائح (٢)

ببناء الفعل «يبك» للمجهـــول ، والمراد أن أخاه كان ملجأ لكل ضارع ، وملاذا لكل سائل ، فليبكه هؤلاء جميعا لأنهم فقدوا بفقـــده الملاذ والملجأ •

وقد حذف المسند الى «ضارع» لدلالة السؤال المقدر عليه ، كأنه قيل : من يبكيه ؟ فقيل : ضارع ومختبط •

ومن الواضح أن هذا الأسلوب فيه توضيح وبيان بعد ابهـــام وخفاء ، تولد هذا من بناء الفعل للمجهول ، واسناده الى غير فاعله ، فتتطلع النفس لمعرفة الفاعل ، وتترقب بيانه ، فيأتيها بعد ذلك البيان على النحو السابق فيتمكن المعنى فى النفس فضل تمكن •

فان قيل : لمــاذا عدل الشاعر عن بنـــاء الفعل فى البيت السابق للمعلوم ، واسناده الى فاعله مباشرة دون اللجوء الى رفع يزيد وجعله

---

(١) الشورى ٢ •
(٢) الضارع : الذليل الضـعيف ، والمختبط : المسـتجدى من غير وسيلة ، والاطاحة : الاهلاك ، والطوائح جمع مطيحة على غير قياس •

نائب فاعل بعد اسناد الفعل اليه ، ثم تقدير فعل آخر مسند الى الفاعل «ضارع» وما عطف عليه ؟

قيل : ان الطريقة الأولى التى سلكها الشاعر فى بناء الفعل للمجهول هى أولى وأحق بالاعتبار مما ذهب اليه المعترض من عدة وجوه :

١ — فيما ذهب اليه الشاعر ميزتان هما تكرار الاسناد والتفصيل بعد الاجمال ، وكل منهما هدف من أهداف البليغ •

أما التكرار فلأن اسناد الفعل المبنى للمجهول الى نائب فاعله يشعر بأن هذا الفعل له فاعل حقه أن يسند اليه ، وهذا هو الاسناد الأول ، وضارع فاعل لابد له من فعل دل عليه السؤال المقدر الذى تضمن هذا الفعل ، وهو يبكى ، أى يبكيه ضارع وهذا هو الاسناد الثانى • ولا شك أن تكرار الاسناد يعطى قوة ، ويؤكده أكثر من عدم تكراره •

وأما التفصيل بعد الاجمال فقد وضح مما سبق أننا اذا أسندنا الفعل المبنى للمفعول الى نائب فاعله تطلعت النفس الى معرفة الفاعل، واستشرفت بيانه ، فاذا ما بين بعد ذلك كان أوقع فى النفس وأحسن أثرا لما هو مركوز فى الطباع من أن حصول الشىء بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب •

٢ — فى بناء الفعل للمجهول ما يجعل لفظ «يزيد» عمدة فى الكلام لانه نائب فاعل ، بخلاف رواية بناء الفعل للمعلوم اذ يكون فيها مفعولا به ، ولا شك أن جعله عمدة فى الكلام يتفق مع أهميته التى يقصد اليها الشاعر فى رثائه وهو أخوه ، ولذلك عدد بعض مناقبه وطالب من كان له الفضل عليهم بأن يبكوه ، فناسب ذلك كله أن يكون مسندا اليه ، لا أن [illegible]

٣ — فى اسناد الفعل الى نائب الفاعل ما يدل على تمام الكلام ، اذ يصبح جملة فعلية مكونة من الفعل ونائب الفاعل ، وغالبا ما تكتفى النفس بذلك لتمام الكلام ، فاذا ما أتاها الفاعل بعد ذلك واضحا صريحا كان كغنيمة غير مرتقبة ، فتستلذ النفس به ، ويكون عندها أشهى وألذ ، بخلاف ما لو بنى الفعل للمعلوم ، ثم ذكر بعده «يزيد» مفعـولا ، فان الكلام لا يتم بذلك ، بل تظل النفس منتظرة مترقبة للفاعل الذى يتمم الجملة ، فاذا ما أتاها بعد ذلك لم يكن له الوقع السابق فى النفس ، لأنه مترقب حصوله .

ومن الحذف على طريقة الاجمال والتفصيل ، أو البيان بعـــد الابهام لوقوغ المسند فى جواب سؤال مقدر حذف الخبر فى باب نعم وبئس فى قولك : نعم الرجل محمد وبئس الرجل أبو لهب اذا ما أعرب المخصـــوص بالمـدح مبتـدأ محـذوف الخـبر ، فـاذا ما قلـت نعـم الرجـل تطلعـت النفس الى توضـيح من هو المخصـــوص بالمـدح وكأن سـائلا سـأل : من الممـدوح فقيـل : محمـــد أى محمد الممدوح ، أو كأن سـائلا قال : من المذموم ، فقيل : أبو لهب ، أى أبو لهب المذموم .

ذكـر المسـند :

يذكر المسند فى الكلام لأمرين :

الأول : ما تقدم من الدواعى لذكر المسند اليه :

ككون الذكر هو الأصل ولا مقتضى للعدول عنه كما تقول ابتداء : شوقى أمير الشعراء فى العصر الحديث .

وكالاحتياط لضعف التعويل على القرينة ، بأن تكون هناك قرينة تدل عليه دلالة ليست قاطعة ، كما لو قال لك قائل : من أشجع العرب

وأكرمهم فى الجاهلية ، فقلت : عنترة أشجع العرب ، وحاتم أكرمهم ، ولو قلت : عنترة وحاتم بدون ذكر المسند ربما توهم أن عنترة أكرمهم وحاتم أشجعهم ٠

وقد ذكر (١) سعد الدين التفتازانى شاهدا لهذا الغرض هـــو قوله تعالى « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » (٢) ٠

وقد رد ذلك بالآية الأخرى المناظرة لهذه الآية ، والتى حذف منها المسند فى قوله جل شانه « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله » (٣) ٠

فكيف يضعف التعويل على القرينة فى موضع فيذكر المســند ولا يضعف فى موضع آخر مشابه له فيحذف المسند ؟ ولعل ذكر المسند فى الآية الأولى يرجع الى الاهتمام بتقريره وتثبيته ، لأن قضـية الخلق قضية مهمة تستدعى النص عليها صراحة منسوبة الى الله سبحانه ، فلا يكتفى فيها بالتعويل على قرينة السؤال ، أما الآية الثانيــة وان كانت تتناول نفس القضية الا أنه روعى فيها الايجاز لدلالة قرينة السؤال على المحذوف ، ولذلك تجد هذا الايجاز يراعى فى آيات أخرى غيرها كما فى قوله جل شأنه « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقــولن الله ، قل الحمــــد لله بل أكثــــرهم لا يعقلون » (٤) ٠

---

(١) ينظر المطول ص ١٤٥ ٠

(٢) الزخرف ٩

وقوله جل شأنه « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » (١) .

وقد يذكر المسند للتعريض بغباوة السامع كما نقول : محمد نبينا ، فى جواب من قال : من نبيكم ، فيذكر المسند مع فهمه من قرينة السؤال تعريضا بغباوة السامع لأنه يسأل عن نبى هو أجل من أن يتوهم خفاؤه .

ومن الذكر التعريض بغباوة السامع قوله جل شأنه حكاية عن ابراهيم — عليه السلام — :

« بل فعله كبيرهم هذا » فى جواب سؤالهم « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم » (٢) .

فلو قال فى الجواب : « بل كبيرهم هذا » لكان فى الجواب حذف للمسند تعويلا على ذكاء السامع لفهم المحذوف من قرينة السؤال ، بينما كان المراد عكس ذلك ، وهو التعريض بغباوتهم بدليل أنهم يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئا ، كما أنه يسخر منهم فى قوله : بل فعله كبيرهم ، مع أنه هو الفاعل .

وكزيادة التقرير والايضاح كما تقدم فى الآية السابقة « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » .

ومن قبيل هذه الآية أيضا قوله جل شأنه : واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين (٣) فذكر المسند وهو نعبد مع دلالة السؤال عليه وكان يكفى

---

(١) لقمان ٢٥ .

(٢) الأنبياء ٦٢ — ٦٣ .

(٣) الشعراء ٦٩ — ٧١ .

فى الجواب أن يقولوا : أصناما ، لتقرير أمر العبادة ، وتثبيتها ، وبيانا للاهتمام بها والحرص عليها من قبلهم بالتنصيص عليها صراحة مع لفظ «الأصنام» .

والواقع أن ذكر المسند لتقرير المعنى وتدعيمه غرض مهم من أغراض الذكر ، لانه يقوم على ناحية نفسية عند المتكلم ، ويبرز احساسه بالمعنى ، ويترجم عن مدى انفعاله به ، وحرصه عليه ، ولذلك نجد أن المتكلم لا يكتفى فقط بابراز هذا المعنى بالذكر ، بل وأحيانا بتكراره أكثر من مرة ، ليشيع هذا الجو النفسى فى عالم الواقع ، وليكون ذلك وفقا لتردد هذا المعنى فى خاطره ، وسيطرته على نفسه سيطرة متصلة ، انظر الى قول الخنساء فى رثاء أخيها صخر تجد ترجمة وافية لما تردد فى صدرها فأبرزته فى كلامها :

أعينى جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندا
ألا تبكيان الجواد الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا

وتقول أيضا :

وأبكى أخاك ولا تنسى شمائله
وأبكى أخاك شجاعا غير خوار
وأبكى أخاك لأيتام وأرملة
وابكى أخاك لحق الضيف والجار

ولا يقتصر التكرار على الرثاء فقط ، بل انك تجده يتردد فى أغراض أخرى كثيرة كالفخر والمدح والوصف وغيرها من الأغراض

ولذلك تجد بعض المعانى تتكرر فى القــــرآن الــــكريم ابرازا لخصوصية تتعلق بها كما فى قوله تعالى « ان مع العسر يسرا ، ان مع العسر يسرا » (١) « كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون » (٢) « فبأى آلاء ربكما تكذبان » (٣) حيث تكررت هذه الآية كثـــيرا فى سورة الرحمن عقب تعداد كل نعمة ذكرت فيها •

الثانى : من الأغراض التى تدعو الى ذكره : أن يتعين كـــونه اسما فيفيد الثبوت والدوام ، أو فعلا فيفيد التجدد والحدوث حسبما يقتضيه المقام كما سيأتى •

ايراد المسند فعلا أو اسما :

ذكرت أن من دواعى ذكر المسند أن يتعين كونه اسما أو فعلا ، وإذ لم حذف لـــا عرف نوعه ، أما الداعى لكونه فعلا أو اسما فهو المقام الذى يناسبه التعبير بالفعل أو الاسم لخصوصية معينة تتعلق بالفعل ولا توجد فى الاسم ، أو تتعلق بالاسم ولا توجد فى الفعل •

ولنوضح فيما يلى الفرق بين دلالة كل من الاسم والفعـــل ، ثم نوضح الغرض الذى يستدعى التعبير بأحدهما دون الآخر •

قالوا : ان الاسم يدل على الثبوت والدوام ، والفعل يدل عـــلى التجدد والحدوث ، فاذا قلت : محمد منطلق ، أفاد ذلك ثبوت الانطلاق لمحمد من غير تقييد بزمن معين ، وأما اذا قلت : محمد ينطلق أفاد ذلك تجدد الانطلاق بعد أن لم يكن ، وأوضح من ذلك قولك : محمد طويل أو محمد يطول ، فالأول يدل على أن الطول صفة ثابتة لمحمـــد ، وأما

---

(١) الانشراح ٥ ــ ٦ •
(٢) التكاثر ٣ ــ ٤ •
(٣) الرحمن •

الثانى فيدل على أن الطول صفة متجددة له لم تكن قبل ذلك ، بأن كان ما زال فى مرحلة النمو مثلا .

ولا تظن أن الاسم يدل على الثبوت والدوام معا بأصل وضعه ، بل هو يدل على الثبوت بأصل الوضع ويدل على دوام هـــذا الثبوت بمعونة المقام كما سيأتى .

وسر دلالة الاسم على الثبوت أنه خال من الدلالة على الزمن ، لأن الاسم كما يقول النحاة : ما دل على معنى فى نفســه غــير مقترن بزمان ، بخلاف الفعل فانه مصـــاحب للزمن ، بمعنى أن الزمن جــزء مدلوله ، فالمـــاضى مثلا يدل على حـــدوث فعل فى الزمن المـــاضى ، والمضارع يدل على حدوث فعل فى الحال أو الاســـتقبال ، والأمر يدل على حدوث فعــل فى الزمن المســتقبل ، ولما كان الحــدث فى الفعــل مصاحبا للزمن ، والزمن ـــ كما يقولون ـــ كم غـــير الذات(١) ، أى غير ثابت ، بل هو يتجدد شيئا فشيئا ، والحدث المصاحب له يتجـــدد بتجدده ، قالوا ان الفعل يدل على التجدد والحدوث ، أى صـــدور الحدث بعد ان لم يكن ، أما التجدد الاستمرارى فى المضـــارع فــلا يستفاد من أصل وضع الفعل ، بل بمعونة القرائن كما سيأتى ، وهــذا بخلاف التجدد فى الزمن فان معناه الحصول والتقضى شيئا فشيئا على وجه الاستمرار ، وهذا غير متحقق فى الحدث ، اذ ان التجدد فيه معناه الحصول بعد أن لم يكن كما سبق .

ويتضح مما سبق أن الفعل مع افادته للتجدد والحدوث يفيـــد أيضا تقييد الحدث بأحد الأزمنة الثلاثة مع الاختصار ، فقولك : سافر أخى ، يدل على حدوث السفر فى الحال أو المستقبل دون حاجـــة أن

تقول مثلا : أمس ، وقولك يسافر آخى ، يدل على حدوث السـفر فى الحال أو المستقبل دون حاجة أن تقول : الآن أو غدا ، والذى يحـدد أحد الزمنين — الحال أو الاستقبال — القرينة الحالية أو اللفظية التى تحدد المراد مع صلاحية الفعل — من حيث وضعه — لأحـد الزمنين ، وقولك لأخيك : سافر الى القاهرة ، يدل على طلب السفر فى المستقبل بدلالة وضع الفعل •

وقولنا مع الاختصار لاخراج الدلالة على الزمن فى التعبـير بالاسم ، فانك تستطيع أن تحدد الزمن المراد مع الاسم ، لكن ليس من دلالة الاسم كما هو الحال فى الفعل ، بل من لفظ خـاص دال على الزمن كقولك محمد مسافر أمس أو الآن أو غدا ، فالفعـل أخصر فى الدلالة على الزمن من الاسم (١) •

وتأمل الشواهد التالية التى استدعى التعبير فيها بالمسـند أن يكون فعلا أو اسما :

قال النضر بن جؤية يتمدح بالغنى والكرم :

انا اذا اجتمعت يوما دراهمنا
ظلت الى طرق الخيرات تستبق
لا يألف الدرهم المضروب صرتنا
لكن يمر عليها وهـو منطلق

يقول : ان دراهمنا اذا اجتمعت لدينا لا يقر لها قرار ، بل تتجه وتتسابق الى الخيرات ، ولذلك لا تجد الفا بين الدراهم وصرتنا ، بل

---

(١) اليفاع : ما ارتفع من الأرض ، وتشب : توقد ، والمقرور : المصاب

ان الدراهم ما تكاد تمر عليهـــا حتى تنطلق الى ذوى الحـــاجات والمعـــوزين •

فقوله : تستبق فى البيت الأول يدل على تجدد وحدوث الاستباق للدراهم بعد اجتماعها لديهم ، وقوله فى البيت الثانى : » وهو منطلق « يدل على ثبوت الانطلاق للدرهم من الصرة ، ودوام هـــذا الثبوت بقرينة التمدح بالكرم ، ولا يسوغ أن يدل »منطلق« على حـــدوث الانطلاق وتجدده ، لأنه يفيد أنه يحبس أحيانا ثم يتجدد انطلاقه ، وهذا لا يتفق مع دلالة الاسم ولا مع مقام المدح •

هذا ويروى البيت الثانى برفع الدرهم على الفاعليـــة ونصب « صرتنا » على المفعولية ، وهذا الصنيع قد يوهم فقرهم ، لأن عـدم الف الدراهم للصرة قد يكون بسبب الفقر ، لكنه رفع هذا التـــوهم بالشطر الثانى من البيت ، فهو بمثابة الاحتراس أو التكميل •

والأحسن أن يروى الشطر الأول بنصب الدرهم ورفع « صرتنا » ليكون عدم الالف من قبل الصرة لا من قبل الدرهم ، بمعنى أن الدراهم تفد عليهم كثيرا ، ولكن صرتهم لا تألفها ، ويكون الشطر الثانى تعليلا لعدم هذا الالف من جانب الصرة ، ولو قال الشاعر « وهو ينطلـــق » لأفاد ذلك حدوث الانطلاق ، وأنهم يحبسون الدرهم أحيانا ، وهـــذا عكس المراد •

وتأمل قول الله عز وجل : « انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق » (١) تجد أن الفعل المضارع «يسبحن» أفاد التجـــدد الاستمرارى هنا ، لأن المراد حدوث التسبيح من الجبال حالا بعـــد حال ، وآنا اثر آن •

---

(١) ص ١٨ •

ومن هذا القبيل قول طريف بن تميم العنبرى :

أو كلما وردت عـكاظ قبيلة بعثوا الى عريفهم يتوسم

يقول : انه شجاع فاتك ، له مع كل قبيلة واقعة ونكاية ، فقـد قتل منهم وأصاب ، ولذلك اذا وردت القبائل سوق عكاظ ، بعثت كل قبيلة بعريفها يتوسم الوجوه ويتفرسها عله يهتدى اليه للأخذ بالثأر .

والشاهد فى قوله : «يتوسم» فهو فعل مضارع يدل على حدوث التوسم وتجدده بعد أن لم يكن واستمراره بقرينة المقـام ، لأن من يتفرس الوجوه ، ويبحث عن تعيين وجـه منهـا مقصـود لابد وأن يكرر ذلك مرات ومرات حتى يحصل على ما يريد .

وعكاظ سوق للعرب فى الجاهلية كانت تقام فى مستهل ذى القعدة وتستمر الى العشرين منه ؛ تجتمع فيها قبائل العرب ، يتناشـدون ويتفاخرون ، وعريف القوم « هو القائم بأمرهم والمسـئول عنهم » ، والتوسم التأمل والتفرس مرة بعد أخرى .

ومن شواهد البلاغيين فى هذا المقام أيضـا قول الأعشى يمدح المحلق الكلابى :

لعمرى لقد لاحت عيـون كثـيرة
الى ضوء نار باليفـاع تحـرق
تشـبه لمقـرورين يصـطليانها
وبات على النار الندى والمحلق (١)

يقول إن ناره مشبوبة دائما فى هذا المكان الظاهر يستدفىء بهـا من يريد ، ويصيب من طعامه من أراد فالكرم وصاحبه مجاوران لهذه النار التى تعلوها قدور الطعام .

والشاهد فى قوله : « تحرق » أى تتحرق بحذف احدى التاءين ، وأفاد التعبير بالفعل : التجدد والحدوث وكونه مضارعا : التجـدد الاستمرارى بقرينة المتمدح بالكرم ، مع افادة التقيد بالزمن على وجه الاختصار كما سبق .

من هذا يتضح لك انه لا يصح وضع الفعل مكان الاسم ، لأن لكل منهما دلالة خاصة يقتضيها المقام ، ولهذا نجد التعبير بالاسم للدلالة على الثبـوت والدوام فى قوله جل شـأنه « وكلبهم باسـط ذراعيـه بالوصيد »(١) بدل يبسط ذراعيه ، لأنه ليس المراد الدلالة على حدوث البسط وتجدده شيئا فشيئا ، بل الدلالة على ثبوت بسط الكلب لذراعيه هذه المدة الطويلة ، فقد ظل على هذه الحالة مع اصحاب الكهـف دون تبدل أو تغير .

وقد اجتمعت دلالة كل من الاسم والفعل فى تعبير واحد للدلالة على المخالفة التى اقتضاها المقام .

تأمل قوله تعالى « أو لم يروا الى الطـير فوقهم صـافات ويقبضن »(٢) تجد مقتضى ظاهر النسق فى التعبير أن يكون « صافات وقابضات » لكن لمـا كان الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة ، فهى صفة ثابتة للطير عندما يطير ، وكان قبض الأجنحة صفة عارضة طارئة، عبر عما هو أصل بالاسم ، وعما هو طارىء بالفعل .

---

(١) الكهف ١٨ .
(٢) الأعراف ١٩٣ .

قال الزمخشرى رحمه الله تعالى « فان قلت : لم قيل : ويقبضن ولم يقل : وقابضات ؟ قلت : لأن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة، لأن الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء ، والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها ، أما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجىء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل ، على معنى أنهن صافات ، ويكون منهن القبض كما يكون من السابح »(١) •

ايراد المسند جملة:

يؤتى بالمسند جملة لواحد من أمرين اثنين :

أولهما : افادة تقوى الحكم ــ على ما سبق ــ كما فى قولك محمد يحسن التدبير ، لأن مجىء المبتدأ هكذا فى البداية يستدعى خبرا ، فاذا ما جاء بعده ما يصلح أن يكون خبرا صرفه المبتدأ الى نفسه ، فاذا كان هذا الخبر مشتملا على ضمير عائد الى المبتدأ صرفه هذا الضمير الى المبتدأ مرة ثانية ، فيتقوى الحكم بذلك، ومثل هذا قولك فى النفى : على لا يحسن التدبير ، ولا تأتى بهذه الصيغة الا اذا اقتضى المقام تقوية الحكم كما ذكرت ، كأن يكون المقام مقام شك أو انكار مثلا •

ثانيهما : كون المسند سببيا ــ على ما ذهب اليه السكاكى ــ ومعنى كونه سببيا أن يكون المسند جملة اسمية أو فعلية مشتملة على ضمير غير مسند اليه يعود على المبتدأ ، كما فى قولك : محمد أخوه كريم ، وعلى عطفت عليه ، وحسن أكرمته ، ومحمد شاهدت صديقى فى داره •

فالمسند فى هذه الجمل كلها فيه ضمير غير مسند اليه يعود على

المسند اليه ، والمسند فى هذه الحالة يفيد تقوى الحكم أيضا ، لأنك اذا ذكرت المبتدأ أولا استدعى خبرا ، فاذا ما جاءه ما يصلح للخبر صرفه اليه ، فاذا كان مشتملا على ضمير المبتدأ تقوى صرفه الى المبتدأ مرة ثانيـــة .

ومعنى كون المسند سببيا فى هذه الحالة أن بين المسند اليـــه والمسند سببا ، أى صلة قوية ، ورابطة ، وهى الضمير الذى يربط بين المسند اليه والمسند ، وهذا هو الذى سوغ مجىء الخبر جملة ، إذ لو لم يكن بها هذا الضمير لما صلحت جملة الخبر أن تكون خبرا .

هذا ما يتعلق بورود المسند جملة ، أما خصوص كونهـا جملة فعلية أو اسمية فلما سبق بيانه من ورود المسند فعلا أو اسما ، حيث وضحنا السبب فى وروده فعلا ، وهو افادة التجدد والحدوث ، ووروده اسما وهو افادة الثبوت والدوام ، وهذا السبب قائم هنا يضا ، لأن المسند اذا كان فعلا فهو يكون جملة فعلية تفيد التجدد والحدوث ، كما فى قولك : على قام ، أو يقوم ، واذا كان المسند جملة اسمية فلا بد أن تكون مكونة من اسمين كما فى قولك : محمد أخوه عالم ، والاسم يفيد الثبوت والدوام على ما سبق بيانه ، ولا يخفى عليك أن ورود المسند جملة اسمية لا بد أن يكون الخبر فى هذه الجملة اسما كالمثال السابق ، اذ لو كان فعلا ، كما فى قولك : محمد أخوه قام لأفادت جملة الخبـــر التجدد والحدوث ، لوقوع خبرها فعلا ، اذ لا فرق بين قولك : محمد أخوم قام ، وقولك : محمد قام أخوه .

كما أنه ينبغى ألا يخفى عليك أن هناك فرقا بين ورود المســـند مفردا وهو فعل ، وبين وروده جملة فعلية ، لأنه قد يكون فعلا ولا يكون جملة كما فى قولك : ينطلق محمد ، وقد يكون جملة فعلية كما فى قولك : محمـــد ينطلق .

ولنورد فيما يلى بعض الشواهد التطبيقية لورود المسند جملة فعلية أو اسمية والغرض من ذلك ، تأمل قوله جل شأنه فى شأن المنافقين « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم »(١) تجد أن التعبير بالجملة الفعلية عند لقاء المؤمنين «آمنا» يفيد حدوث الايمان وتجدده فى زعمهم ، والتعبير بالجملة الاسمية عند خلوهم الى شياطينهم « انا معكم » يفيد ثبوت هذه المعية ودوامها .

وتأمل قوله جل شأنه « سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون » (٢) تجد أن الآية نزلت فى حق عباد الأوثان ، وكان من عادتهم أنهم اذا نزلت بهم نازلة لا يدعون الأصنام لكشفها ، بل يتجهون الى الله لعلمهم أن الأصنام لا تنفع ، ولا تضر ، فخاطبهم القرآن الكريم بأنهم ان تجددت منهم وحدثت دعوة الأصنام فى وقت الشدة أو استمروا وثبتوا على صمتهم عن دعوة الأصنام فى هذا الوقت فالأمر لا يختلف ، لأنهم فى الحالتين كفار ، ولو عبر القرآن الكريم عن ذلك بالجملتين الفعليتين ، فقال أم صممتم ، لأفاد ذلك حدوث الصمت منهم ، وليس ذلك مقصودا لأنهم ثابتون عليه وهو دائم منهم .

ومن هذا القبيل قوله تعالى « أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين » (٣) حكاية عن قوم سيدنا ابراهيم عليه السلام ، وكانت الجملة الفعلية أيضا «أجئتنا» لافادة التجدد والحدوث الموافق للمقام ، وكانت الجملة الاسمية ثانيا « أنت من اللاعبين » لافادة الثبوت والدوام ، لأنهم يعتقدون أن هذه صفة ثابتة ودائمة فيه ، ولو سار

---

(١) البقرة ١٤ .
(٢) الأعراف ١٩٣ .
(٣) الأنبياء ٥٥ .

النسق على وتيرة واحدة فقيل : أجئتنا بالحـــق أم لعبت ، لأفاد ذلك حدوث اللعب وتجدده من ابراهيم مع كونه قبل ذلك كان على الجادة والصواب ، وهذا غير مقصود لهم (١) •

ومن ذلك أيضا قوله جل شأنه « هل أتاك حديث ضيف ابراهيـم المكرمين اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون » (٢) فانك تجد لفظ «سلام» الوارد فى قول ضيف ابراهيم منصوبا ، بتقدير نسلم سلاما فتكون الجملة فعلية •

وفى رد ابراهيم ورد اللفظ مرفوعا على تقدير : عليكم ســـلام فتكون الجملة اسمية ، وكل من الجملتين موافق لموقعه والغرض منه، اذ انهم عبروا بالجملة الفعلية لافادة حدوث السلام وتجدده منهم على ابراهيم — عليه السلام — ، وأما رده بالجملة الاسمية فلافادة ثبوت السلام ودوامه منه — عليه السلام — لهم ، فحياهم بتحية أحســن مما حيوه بها كما هو أدب الاسلام ، وكما علمنا الحق تبارك وتعالى ،

يقول الزمخشرى رحمه الله تعالى فى ذلك :«سلاما مصدر ساد مسد الفعل مستغنى به عنه ، وأصله نسلم عليكم سلاما ، وأما « سلام » فمعدول به الى الرفع على الابتداء ، وخبره محذوف معناه ، عليـــكم سلام للدلالة على ثبات السلام كأنه قصد أن يجيبهم بأحسن مما حيوه به أخذا بأدب الله تعالى ، وهذا أيضا من اكرامه لهم (٣) •

الى غير ذلك من الشواهد التى وردت فى هذا المقام وهى كثيرة •

---

(١) ينظر خصائص التراكيب ص ٢٣٧ •
(٢) الذاريات ٢٤ — ٢٥ •
(٣) الكشاف ١٧/٤ •

ايراد المسند معرفة :

يؤتى بالمسند معرفا باحدى طرق التعريف لعدة أغراض بلاغية منهـــا :

١ ــ افادة المخاطب حكما بأمر معلوم له باحدى طرق التعــريف على أمر آخر معلوم له باحدى هذه الطرق ، فقد يكون المسند اليـــه معلوما للمخاطب ، والمسند معلوما أيضا ، ولكن الذى يجهله هو ثبوت المسند للمسند اليه كما فى قولك : محمد أخوك ، وزيد المنطلق ، تقول هذا لمن يعرف محمدا باسمه وذاته ، ويعرف أيضا أن له أخا ، ولكنـه يجهل اتصاف محمد بأخوته ، فى المثال الأول ، وتقول المثال الثانى لمن يعرف زيدا ويعرف أن هناك شخصا معينا فى الخارج حدث منه انطلاق ، ولكن لا يعرف أن زيدا هو ذلك الشخص المتصف بالانطلاق ، فتقـــول له : زيد المنطلق ، فأنت فى كلتا الحالتين أفدته ثبوت أمـــر معلوم له وهو المسند وهو المحكوم به أيضا لمسند اليـــه معلوم له أيضـــا وهـــو المحكوم عليه ، لجهله بهذا الثبوت .

وينبغى أن يعلم أن هناك فرقا بين قولك : زيد منطلق ، وبين قولك زيد المنطلق ، لأنك فى المثال الأول أفدت السامع حكما كان يجهله وهـــو انطلاق زيد ، أما فى الثانى فأفدته حكما كان معلوما له ومتعينا ، وهـــو الانطلاق ، لكن لم يكن متعينا عنده لزيد ، فقلت : زيد المنطلق .

ولذلك يصح العطف على المسند اليه فى الحالة الأولى دون الثانية ، فتقول مثلا : زيد منطلق وعمرو لان صفة الانطلاق كانت مجهولة وهى عامة يمكن أن تقع من أكثر من واحد ، وأما فى الحالة الثانية فلا يسوغ لك أن تقول : زيد المنطلق وعمرو ، لأن صفة الانطلاق هنا صفة معلومة متعينة لزيد فقط ، فاذا أثبتها له لم يجز أن تثبتها لغـــيره ، فان كانت هذه الصفة المعلومة المتعينة قد وقعت من كل من زيد وعمرو فتقـــول : زيد وعمرو هما المنطلقان ، بذكر عمرو معطوف على زيد مباشرة لتفيد أن

الصفة الآتية بعدهما متعينة لهما ، وأما اذا أثبتت هـذه الصفة المعلومة المتعينة لزيد فلا يجوز بعد ذلك أن تثبتها لعمرو (١) .

يقول عبد القاهر مفرقا بين الاخبار بالنكرة أو المعرفة : «والنكتة أنك تثبت فى الأول الذى هو قولك : زيد منطلق فعلا لم يعلمه السـامع من أصله أنه كان ، وتثبت فى الثانى الذى هو زيد المنطلق فعلا قد علمه السامع أنه كان ، ولكنه لم يعلمه لزيد فأفدته ذلك » (٢) .

من هذا يعلم أنه لا يجوز أن يكون المسند معرفة والمسـند اليه نكرة ، لأنك لا تحـكم ، بالمعلوم على المجهـول ، وأما قول القطـامى السابق : « ولا يك موقف منك الوداعا » فهو على القلب كما سبق .

أما اذا كان المبتدأ والخبر معلومين ، لأنهما معرفتان كقولك : زيد المنطلق والمنطلق زيد ، فانه يسوغ لك — نحوا — أن تجعـل أحدهما مبتدأ والآخر خبرا كيفما شئت ، لكن تعيين أحدهما للابتـداء والآخر للخبر يتوقف على اقتضـاء المقام ، فاذا كان السـامع يعرف أن هناك شخصا فى الخارج متعينا لديه يسمى زيدا ، ويعلم أن هنـاك انطـلاقا معينا واقعا فى الخـارج ، ولكن لا يعلم أن زيدا هو الذى حدث منـه الانطلاق قلت له : زيد المنطلق ، وان كان يعلم أن هناك ذاتا متعينة وقع منها الانطلاق ، وأن هناك فى الخارج شخصا معلوما له يسـمى زيدا ، ولكن لا يعلم أن من وقع منه الانطلاق هو زيد قلت له : المنطلق زيد .

والضابط فى ذلك أنه اذا كان للشىء صفتان من صـفات التعريف، وكان المخاطب يعلم اتصـافه بأحدهمـا دون الأخرى صار كأنه يطلب الحكم باتصافه بها ، فتعمـد الى اللفظ الدال على المحكوم عليه ، وهو

---

(١) ينظر الدلائل ص ٢٠٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٥ .

الموصوف بالصفة المعلومة فتجعله محكوما عليه ، وألى اللفظ الدال على المحكوم به ، وهو الموصوف بالصفة غير المعلوم ثبوتها للمحكوم عليه ان كانت معلومة له فى ذاتها ، وتجعل هذا اللفظ محكوما به . واذا كان المسند معرفا بأل كما فى قولك : خالد الفائز ، فان « أل » هذه يحتمل أن تكون للعهد أو للجنس ، ومعنى افادتها للعهد أنك تثبت لخالد صفة الفوز التى هى ثابتة لشخص معين فى الخارج لا يعلم السامع ، فخالد معلوم له ، كما أنه يعلم أن شخصا متعينا فى الخارج ثبت له الفوز ، ولا يعلم أن خالدا هو ذلك الشخص ، فتقول : خالد الفائز أى أن خالدا هو ذلك الشخص الذى ثبت له الفوز فى الخارج .

وقد يقتضى المقام كون (أل) للجنس فيختلف المراد ، فاذا قلت : عمرو الفائز وكانت (أل) للجنس فى « الفائز » وليست للعهد الخارجى ، كان المراد بالفوز : الحقيقة المعلومة للمخاطب ، وبالفائز ذات ما ثبت لها الفوز فى الخارج ، من غير القصد الى ذات متعينة فى الخارج ، فمعنى عمرو الفائز حينئذ أن عمرا ثبت له هذه الحقيقة من حيث هى ، أى أنه واحد من جنس الفائزين ، ولا يقصد حينئذ بالفائز شخصا معينا فى الخارج ثبت له صفة الفوز .

ولا يختلف اعتبار العهد أو الجنس فى (أل) اذا قدمت الاسم المقترن بها على غيره فقلت مثلا ، الفائز عمرو ، فلا فرق بين التقديم والتأخير .

واذا كان المسند معرفا بالاضافة كقولك : محمد صهرك أفادت الاضافة تعريف العهد الخارجى على النحو السابق ، ولا فرق فى افادتها ذلك بين التقديم والتأخير فتقول : محمد صهرك ، أو صهرك محمد كما هو الحال فى احتمال افادة المقترن بأل للعهد الخارجى أو للجنس تقدم أو تأخر .

٢ — هذا وقد يراد من المعرف بأل الجنسية معنى القصر ، أى قصر الجنس على بعض أفراده ، فاذا قلت : محمـد النـاجح ، فقد قصرت النجـاح على محمد ردا على من اعتقـد أن الناجح غيره ، أو على من اعتقد مشاركة الغير لمحمد فى النجاح فيكون قصر قلب فى الحالة الأولى أو قصر افراد فى الحالة الثانية على ما سيأتى فى موضعه •

وهذا القصر يكون حقيقيـا اذا كان الواقع يؤيده ، بمعنى أنه لم يتجح الا محمد ، وقد يكون على سبيل الادعاء والمبـالغة ، كأن يكون هناك من نجح غير محمد ، ولكن المتكلم لم يعتد بهذا النجاح لأنه لاقيمة له ، فيكون المقصـود بالقصر حينئذ بيان كمال محمد فى صفة النجاح ، فقد قصرت النجـاح على محمد لتحققـه بكماله فيه ، مع وجود هذه الصفة فى غيره ، أو لبلوغ محمد شأوا بعيدا فى هذه الصفة ، مع بلوغ غيره فيها بعض البلوغ ، ولكنك لم تعتد به •

والمحلى بأل الجنسية هو المقصـور — على أى حال — تقدم أو تأخر ، فقولك : على الشجاع ، قصرت فيه الشجاعة على علىّ ، وقولك الشجاع على ، لا يختلف عن ذلك •

أما اذا كان المسند اليه والمسـند كلاهما معرفا بأل الجنسـية ، ففى المسألة رأيان :

الأول : رأى العلامة السـيد ، وهو أنه يجوز قصر المبتـدأ على الخبر أو الخبر على المبتدأ كما فى قولك : الناجح المجتهـد ، فيجوز أن تقصر النجاح على المجتهد ، أو تقصر المجتهد على النجـاح ، وان كان الأظهر قصر المبتدأ على الخبر ، لأن القصد فى المبتدأ الى الذات وفى الخبر الى الصـفة (١) •

---

(١) تنظر حاشية السيد على المطول ص ١٧٩ •

والثانى : رأى العــلامة عبد الحكيم ، وهو يرى قصر الأعم على الأخص ، ســواء قدم الأعم على الأخص ام كان الأمر بالعكس ، كما فى قــولك : النــاس العلمــاء أو العلمــاء النــاس فقــد قصرت النــاس على العلمــاء فى الحــالين ، وان كان بينهمــا عمــوم وخصوص من وجه جاز قصر أحدهما على الآخر حسب القرائن ، كما فى قولك : العلماء العاملون ، أو العاملون العلماء ، فيجوز قصر العلماء على العاملين ، أو قصر العاملين على العلماء حسبما يقصد المتكلم (١).

هذا والمقصور مطلقا قد يبقى على اطلاقه دون قيد ، كما فى قولك: محمد الشجاع ، أو الشجاع محمد ، فالمقصور هو مطلق الشــجاعة فى الحالين ، وقد يقيد المقصور بوصف أو حال أو ظرف أو مفعول أو نحو ذلك ، فيكون المقصور حينئذ الجنس باعتبار هذا القيد لا مطلقا ، كما فى قولك : محمد الرجل العالم ، فقد قصرت الرجولة الموصوفة بالعلم على محمد ، ومثال المقصور المقيد بالحال قولك : محمــد الآتى راكبا ، فالمقصور على محمد الاتيان فى حال الركوب ، ومثال تقييد المقصــور بالظرف قولك : هو الوفى حين لا تظن نفس بنفس خيرا ، فالمقصور على الضــمير هو الوفاء فى ذلك الوقت ، ومثال المقصــور المقيــد بالمفعول قول الأعشى :

هو الواهب المئة المصطفا ة فاما مخاضا واما عشارا (٢)

أى هو المختص بهبة المائة المصطفاة من الابل فى احدى الحالين ، أما هبة المائة مطلقا فله ولغيره ... وهكذا .

---

(١) تنظر حاشية عبد الحكيم على المطول .

(٢) المخاض : الحوامل من النوق و « العشــار » جمع عشراء وهى الناقة التى مضى لحملها عشرة أشهر .

٣ ـ وقد يفيد تعريف المسند تقريره وثبوته للمسند اليه ، وأن ذلك أصبح واضحا مشهورا كما فى قول حسـان يهجو أبا سـفيان بن الحارث قبل اسلامه :

وان سنام المجد من آل هاشم   بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

فقوله : ووالدك العبد فيه اشارة الى تقرير أمر العبودية لوالده ، وثبوتها له ، وأنها أصبحت أمرا مشهورا ، ومن الواضح أنه لا يقصـد قصر العبودية على والده ، قال عبد القاهر : « ولو قال ووالدك عبد لم يكن قد جعل حاله فى العبودية حالة ظاهرة متعارفة » (١) .

ومن هذا القبيل قول الخنساء :

اذا قبح البكاء على قتيل   رأيت بكاءك الحسن الجميلا

فهي لا تقصد قصر جنس الحسن والجمال على بكائه ردا على من زعم أن البكاء على غيره حسـن دونه ، فيكون قصر قلب ، أو على من زعم أن البكاء على غيره حسن وجميل أيضا مثل البكاء عليه فيكون قصر افراد ، ولكنها تقصد تقرير أمر الحسن والجمال لبكائه ، ووضوح ذلك وشهرته ، ردا على من يتوهم أن البكاء عليه قبيح كالبكاء على غيره بدليل قولها فى الشطر الأول : اذا قبح البكاء على قتيل ..

٤ ـ وقد يفيد تعريف المسند الاشارة الى بلوغ المسـند اليه فى الصفة المفهومة من المسند حد الكمال أو أنه بلغ فيها حقيقتها المتصورة فى الذهن وهذا الوجه يقول فيه عبد القاهر :

« ان للخبر فيه مسلكا دقيقا ولمحة كالخلس يكون المتأمل عنده كما يقال يعرف وينكر ، ويقول فيه أيضا : « وهذا فن عجيب الشـأن ، وله

---

(١) ينظر دلائل الاعجاز ص ٢٠٩ .

مكان من الفخامة والنبل وهو من سحر البيان الذى تقصر العبارة عن تأدية حقه ، والمعول فيه على مراجعة النفس ، واستقصاء التأمل » .

وقد مثل له عبد القاهر بقول ابن الرومى :

هو الرجل المشروك فى جل ما له   ولكنه بالمجد والحمـد مفرد

ثم قال : « كأنه يقول للسامع فكر فى رجل لا يتميز عفاته وجيرانه ومعارفه عنه فى ماله ، وأخذ ماشاءوا منـه ، فـاذا حصـلت صورته فى نفسك فاعلم أنه ذلك الرجل » .

واسم الموصول يفيد هذا المعنى بواسطة صلته فى كثير من مواقعه كقول الشاعر :

أخوك الذى ان تدعه لملمـة   يجبك وان تغضب الى السيف يغضب

فقد أفاد التعبير بالموصول وصول الأخ الى درجة عالية فى الصفة التى تتضمنتها الصلة (١) .

ايراد المسـند نكرة :

يؤتى بالمسند نكرة لدواع أهمها :

١ — عدم القصد الى افادة العهد أو الحصر ، لمـا علمناه سابقا من أنه يؤتى به معرفة لافادة التعيين بالعهـد أو لافادة الحصر ، فاذا لم يقصد واحد منهما بأن كان القصد الى الاخبـار عنه بشىء مجهول للسامع كقولك : على شاعر ، ومحمد خطيب أتى منكرا .

٢ — قصـد التفخيم والتعظيم كما فى قوله جل شـأنه : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هـدى للمتقين » بجعل « هـدى » خبرا عن « ذلك

---

(١) ينظر خصائص التراكيب ص ٢٤٥ ودلائل الاعجاز ص ٢١٠ .

الكتاب » أى أن هـذا الكتاب قد وصـل فى الهداية حداً لا يدرك كنهه، ويعضد ذلك ورود الخبر مصدرا ، وكأن الكتاب أصبح نفس الهداية ، كما تقول : زيد عدل •

٣ ــ قصد التحقير من شأنه ، كقول قيس بن جروة يخاطب عمرو ابن هند الملك :

غدرت بأمر كنت أنت دعوتنـا
اليه وبئس الشيمة الغدر بالعهد
وقد يترك الغدر الفتى وطعامه
اذا هو أمسى حلبةمندمالفصد(١)

يريد أن الفتى قد يترك الغـدر وهو رقيق الحـال ، فكيف بالملك العظيم كعمرو ، والشاهد فى قوله : حلبة من دم الفصد ، فالتنكير هنا يفيد التحقير والتقليل من شأن هذه الحلبة ، ولبناء اللفظ أيضا نصيب فى افادة ذلك ، لأنه اسم مرة •

ايراد المسند مخصصا بوصف أو باضافة :

يأتى المسـند نكرة مخصصـة بما ذكر لغرض هو تربية الفائدة وتكثيرها ، لأن المعنى كلما ازداد خصوصا ازدادت الفائدة فيه ، كما فى قولك : محمد تلميذ مجتهد ، فقد أفاد الاخبـار عن محمد بأنه تلميـذ فائدة ، ثم زادت هذه الفائدة عندما وصـفت النكرة التى وقعت خبرا بأنه مجتهد ••

---

(٢) الشيمة : الطبيعة والصفة ، الحلبة من حلب الضرع ، والفصد شق العرق ليخرج الدم ، وطعامه حلبة من دم الفصد ، [illegible]
فهو كحلبة

ومثال التقييد بالاضافة قولك : زيد خادم أمير ، فقد أفاد الإخبار عن زيد بأنه خادم فائدة ، ثم زادت هذه الافادة عندما أضيفت النكرة الى « أمير » ومن التخصيص بالوصف قول الشاعر :

وكنت امرأ لا أسمع الدهر سبة … أسب بها الا كشفت غطاءها

ومن التخصيص بالاضافة قول الآخر :

حمى الحديد عليهم فكأنه … ومضان برق أو شعاع شموس (١)

ايراد المسند نكرة غير مخصصة بشىء :

يؤتى بالمسند نكرة غير مخصصة بوصف أو باضافة لمانع حال دون تكثير الفائدة كعدم علم المتكلم بما يتخصص به المسند ، أو اخفاء ما يخصصه عن السامع لأمر يدعو الى ذلك ، وغير ذلك من الأغراض التى تدعو الى عدم تخصصه .

تقديم المسند :

ذكر البلاغيون أن تقديم المسند على المسند اليه قد يكون للتخصيص اذا استدعاه المقام ، أى تخصيصه بالمسند اليه ، بمعنى قصر المسند اليه عليه كما فى قولك : مصرى أنا ، فقد قصر المتكلم نفسه على المصرية لا يتعداها الى غيرها فيكون قصرا حقيقيا ، أو لا يتعداها الى الشامية مثلا فيكون قصرا اضافيا ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : « لكم دينكم ولى دين » فقد قصر دينهم عليهم لا يتعداه اليه ، كما قصر دينه عليه لا يتعداه اليهم ، فالقصر فى الحالين قصر اضافى ، ومنه قوله تعالى : « لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » (٢) فقد قصر نفى

---

(١) تنظر مذكرة البلاغة للشيخ حامد عونى ص ١٩٣ .
(٢) الصافات ٤٧ .

الغول(١) على خمر الجنة ، وبالتالى أثبت هذه الصفة لخمر الدنيا ، وتقديم الجار والمجرور هنا وهو المسند على المسند اليه هو الذى أفاد هذا القصر ، والدليل على ذلك أن تأخير الجار والمجــرور فى تعبير آخر من القرآن الكريم لم يفد هذا القصر كما فى قوله جل شأنه : ذلك الكتاب لا ريب فيه(٢) • فقد أفاد تأخير الجار والمجرور نفى الريب أى الشك عن القرآن الكريم ، دون تعرض للكتب السماوية الأخرى ، ولو قدم الجار والمجرور هنا فقيل : لا فيه ريب لأفاد هذا التقــديم قصر نفى الريب على القرآن الكريم ، وثبوت ذلك للكتب السماوية الأخرى ، مع أن هذه الكتب لا ريب فيها أيضــا ؛ ولذلك أخر الجار والمجرور لعــدم افادة القصر لما يترتب عليه من المحظور •

ومن افادة التقديم الاختصاص قول أبى تمام :

لك القلم الأعلى الذى بشــباته يصاب من الأمر الكلى والمفاصل

فقد قصر القلم الموصوف بما ذكر على الممدوح لا يتعداه الى غيره

ومن الآيات التى أفاد فيها التقديم الاختصــاص قوله تعالى . « ألا الى الله تصــير الأمور »(٣) « ان الينــا ايابهــم ثم ان علينــا حسابهم »(٤) « له الملك وله الحمد »(٥) •

وقد ذهب ابن الأثير وتابعه العلوى الى أن التقــديم فى الآيات التالية لمراعاة الحسن فى نظم الكلام ، لا للاختصاص ، لأن الاختصاص

---

(١) الغول ما يتبع الشرب من وجع الرأس وثقل الأعضاء وغياب العقل وغير ذلك •

(٢) البقرة ٢ •

(٣) الشورى ٥٣ •

(٤) الغاشية ٢٥ ، ٢٦ •

(٥) التغابن ١ •

منها مفهوم من قرائن خارجية ، وهذه الآيات هى : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة »(١) « والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق »(٢) « الى ربك يومئذ المستقر »(٣) « وعليه توكلت واليه أنيب »(٤) وقد استدل ابن الأثير والعلوى على صحة ما ذهبا اليه بأن تأخير المسند هنا يخل بحسن الكلام ، وجمال النغمة الآسرة فى ختام الآيات التى تسير على نغمة واحدة .

والحق ما ذهب اليه أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى من أن التقديم يفيد الأمرين معا ، ولاتعارض بينهما فهو يفيد فائدة معنوية هى الاختصاص ، وفائدة لفظية لها ارتباط بالمعنى هى مراعاة حسن النظم وجماله (٥) .

ويكون تقديم المسند أيضا للتنبيه من أول الأمر على أنه خبر لا صفة كما فى قول حسان بن ثابت :

له همم لا منتهى لكبارها   وهمته الصغرى أجل من الدهر

وسر افادة التقديم ذلك أن المسند لو أخر فقيل : همم له لتوهم ابتداء أن الجار والمجرور صفة ، لأن حاجة النكرة الى الصفة أشد من
ابتداء أن الجار والمجرور صفة ، لأن حاجة النكرة الى الصفة أشد من
حاجتها الى الخبر ، ومنه قوله تعالى : « ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين »(٦) فقد قدم المسند للغرض المذكور .

---

(١) القيامة ٢٢ ــ ٢٣ .
(٢) القيامة ٢٩ ــ ٣٠ .
(٣) القيامة ١٢ .
(٤) هود ٨٨ .
(٥) ينظر خصائص التراكيب ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .
(٦) البقرة ٣٦ .

وقد يقدم المسند أيضا بقصد التفاؤل ابتداء كقولك للمريض في عافية أنت ، وفي تحسن صحتك ، ومنه قول الشاعر :

سعدت بغرة وجهك الأيام ... وتزينت ببقائك الأعوام

وقد يقصد من تقديمه التشويق الى ذكر المسند اليه ، اذا كان في المسند ما يشوق الى ذكره ، كما في قول محمد بن وهيب يمدح المعتصم بالله :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ... شمس الضحى وأبو اسحاق والقمر

على تقدير جعل « ثلاثة » هو الخبر ، والمبتدأ هو شمس الضحى وما عطف عليه ، ومن الملاحظ أنه جعل الممدوح واسطة العقد بين شمس الضحى والقمر ، لاعتبار لطيف ، وكأنه يشير بذلك الى أنه خير منهما، لأن خير الأمور الوسط .

ومن ذلك قول أبي العلاء المعري :

وكالنار الحياة فمن رماد ... أواخرها وأولها دخان

فهو يشبه الحياة بالنار في أحوالها الثلاث ، اذ هي تبدأ دخانا ، ثم تصير لهيبا ، ثم تتحول رمادا ، وكذلك شأن حياة المرء يبدأ طفلا ضعيفا ، ثم شابا قويا فتيا ، ثم شيخا ضعيفا هزيلا كما كانت بدايته ، والمسند المقدم هنا هو كالنار ، والمسند اليه هو الحياة .

ايراد المسند مؤخرا :

يؤتى بالمسند مؤخرا عن المسند اليه للأغراض السابقة لتقديم المسند اليه ، فحيث كانت هناك دواع لتقديم المسند اليه أخر المسند.

---

(١) و يقال : ان التقديم هنا واجب لصناعة نحوية ، لأن الفعل يجب تقديمه على الفاعل ، لانا نقول انه يجوز تأخير الفعل في تركيب آخر كأن يقال : الأيام سعدت بغرة وجهه .

ككون تقديمه هو الأصـل ولا مقتضى للعـدول عنه ، أو لأن فى تقديمه ما يشوق الى ذكر المسند ، أو لتعجيل المسرة للتفاؤل أو المساءة للتطير، الى غير ذلك من الأغراض التى سبق ذكرها فى تقديم المسند اليه .

ولعله لا يخفى عليك أن هذه الأحوال التى ذكرناها للمسند اليــه والمسند من تقديم وتأخير وذكر حذف وتعريف وتنكير .. الخ لا يختص أكثرها بالمسند اليه والمسند ، بل قد تأتى فى غيرهما كالمفعول به والمجرور وقد عرضنا لبعض هذه الأحوال فى غير المسند كما هو واضح مما سبق.

مجىء المســند فعلا مقيدا :

من الأحــوال التى تعــرض للمســند اذا كان فعــلا أنك تراه مقيدا أحيانا وغير مقيد أحيانا أخرى ، وهذه الحالة من التقييد وعدمه نرى البلاغيين يذكرون بعضها فى موضــع كتقييــده بمفعول ونحوه ، وبعضــها فى موضــع آخر كتقييده بالشرط ، ثم يعقــدون فصلا آخر يذكرون فيه أحوال متعلقات الفعل كحذف المفعول وتقديمه وتقــديم بعض المتعلقات على بعض ، مع أن هذه الأمور كلها تندرج تحت أحوال المسند ، ولعلهم فصلوا أحوال متعلقات الفعل عن أحــوال المســند مع أنا مندرجة فيها عند التحقيق لكثرة مباحثها ، وجليل قدرها ، وكان من الأوفق أن يتحدثوا عن تقييد الفعل بمفعول ونحوه ، وتقييده بالشرط فى موضع واحد ، حتى تكتمل صورة هــذا الموضــوع ، وتنضم أجزاؤه بعضها الى بعض ، وحتى لا يتجزأ الموضوع الواحد فى أكثر من موضع ، وسواء ذكر تقييد الفعل بالشرط ضمن أحوال المســند أم ضمن أحوال متعلقات الفعل فالخطب هين ويسير ، ولكن ينبغى أن يذكر تقييد الفعل مطلقا فى موضع واحد ، وهذا ما سأصنعه .

أولا تقييد الفعل بغير الشرط :

يؤتى بالمسند مقيدا بأحد المفاعيل ونحوها لتربية الفائدة وتكثيرها، لأن الحكم المطلق القائم على نسبة المسند للمسند اليه لا يفيد أكثر من اثبات هذه النسبة المطلقة ، فاذا ما زادت قيدا فى هذا الاثبات ازدادت الفائدة ، فاذا مازدت قيدا آخر أضفت فائدة جديدة .. وهكذا .

فاذا قلت مثلا : « فلان حفظ » فقــد أفدت ثبوت الحفظ المطلق لفلان هذا ، فاذا قلت القرآن الكريم فقد زدت فائدة جديدة ، وهو أن الحفظ كان متعلقا بالقرآن الكريم ، فاذا قلت فى الكتاب فقد أفدت فائدة أخرى تتعلق بمكان الحفظ ، وهو أنه كان فى الكتاب ، ولم يكن فى المنزل أو المدرسة مثلا ، فاذا قلت : صغيرا فقد أضــفت فائدة جديدة تتعلق بزمان هذا الحفظ ، وهو أنه كان فى الصغر لا فى الكبر وهكذا ..

هذا وينبغى أن يضيف القيد فائدة حقيقية حتى يتقرر أمر المسند، وتكثر الفائدة بهذا القيد ولهذا عابوا على زهير قوله :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عمى

لأن لفظ « قبله » بعد لفظ «الأمس» لم يضف جديدا ، لأن الأمس لا يكون الاقبل اليوم .

وينبغى أن تفطن جيدا لبعض الألفاظ التى تذكر قيودا فى الكلام الفصيح ، وبخاصة فى القرآن . ويوهم ظاهرها أنه لا حاجة اليها ، مع أنها فى الواقع تكثر الفائدة وتدعمها .

من ذلك قوله جل شأنه : « ســبحان الذى أسرى بعبــده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله »(١) فقد قيد

(١) الاسراء ١ .

الفعل « أسرى » بظرفه الزمانى وهو « ليلا » مع أن السرى لا يكون الا ليلا على ما هو المشهور ، اذ ان السير يمكن أن يكون ليلا أو نهارا . ولكن السرى لا يكون الا ليلا ، ولذلك قد يظن أن هذا القيد لا قيمة له، لأنه مستفاد من الفعل ، ولكننا اذا دققنا النظر جيدا لوجدنا أن هذا القيد يعطى فائدة جديدة لا تعرف بدونه هى الدلالة على أن هذا الاسراء كان فى بعض من الليل ولم يستغرق الليل كله ، وهذا مستفاد من تنكير لفظ «ليلا» على معنى البعضية ، ويؤيده قراءة عبد الله وحذيفة من الليل ، أى بعض الليل كقوله جل شأنه « ومن الليل فتهجد به نافلة لك » فهو أمر بالقيام بعض الليل لا كله .

أو يقال : ان لفظة «أسرى» وان كان يدل على السير وكونه ليلا الا أنه قصد التنصيص على أحد المعنيين لابرازه فى ذهن المخاطب كما وقع ، للتنبيه على أهمية كونه ليلا ، وهناك فرق بين فهم المعنى من لفظ يدل عليه وعلى غيره ، وبين فهمه من لفظ خاص به ويدل عليه صراحة ، لأن له أهمية معينة فى هذا المقام كما هو الحال هنا (٢) .

ومن هذا القبيل قوله جل شأنه « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه »(٢) اذ يتوهم امكان الاستغناء عن لفظ «جوفه» لأن القلب لا يكون الا فى الجوف ، ولكن ينبغى أن يعلم أن النص على لفظ الجوف هنا أعون فى الدلالة على المقصود ، اذ المقصود — والله أعلم بمراده — استحالة وجود قلبين لرجل واحد ، والذى يساعد على فهم هذه الاستحالة هو النص على كون القلبين فى الجوف ...

وقد تظن أن ذكر «عن» بعد المسند فى قوله تعالى : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره »(٣) لا ضرورة له ، لأن الفعل يتعدى نفسه،

---

(٢) ينظر الكشاف وحاشية المنير ٢/٤٣٦ .
(٢) الاحزاب ٤ .
(٣) النور ٦٣ .

فيقال في غير القرآن الكريم: فليحذر الذين يخالفون أمره فلم يفـــد تقييد الفعل بهذا الحرف شيئا جديدا ، والواقع أن الأمر ليس كذلك ، لأن تعدية الفعل بعن مع أنه يتعدى بنفسه أفاد دلالة هذا الفعل على معناه ، وعلى معنى لفظ آخر يتعدى بهذا الحرف ، وتقدير الكلام : « فليحذر الذين يخالفون خارجين عن أمره » فأفاد الفعل بهذه التعدية معنى المخالفة والخروج معا .

ومن دقائق ذلك ولطائفه أنك تجد المسند مقيدا في التعدية بحرف، ثم تجده هو نفسه مقيدا بالتعدية بحرف آخر لاختلاف الغـــرض في الموقفين ، من ذلك قوله تعالى « هو الذى جعـــل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليـــه النشـــور »(١) . وقـــوله جـــل شـــأنه « وعباد الرحمـــن الذين يمشـــون على الأرض هـــونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »(٢) فعدى الفعل بفى الدالة على الظرفية في الآية الأولى ، لأن المقصود أن يمشـــوا متقبين باحثين عن الرزق في جوف الأرض ، لأنهم ان ساروا عليها سيرا سطحيا ، ولم يعمقوا النظرة في باطنها لخفى عليهم ما أودعه الله في هذا الباطن من ذخـــائر ودفائن ... ...

أما الآية الثانية فلها موقف آخر يتحدث عن صفات عباد الرحمن، وأنهم غير متشبثين بالدنيا ، ولا متعلقين بها تعلقا يجعلها أكبر همهم ومبلغ علمهم ، بل يمشون عليها مشيا هينا لينا ، لأن لهم غاية أخـــرى يصوبون نحوها هدفهم وهى الدار الآخرة ، لذلك كان ما يصـــيبهم في الدنيا من فرح أو ترح لا يلقون اليه بالا ، ولا ينغص عليهم حيـــاتهم

---

(١) الملك ١٥ .
(٢) الفرقان ٦٣ .

التى جعلوها وسيلة لآخرتهم ، وكان خطاب الجاهلين لهم لا يقابل بمثله ، بل بالعفو والصفح الجميل .

ومن أسرار الاطلاق والتقييد فى المسند قوله تعالى : « فانطلقا حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا امرا . قال ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا . قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا »(١) حيث تجد أنه « وقره فى الأول فلم يواجهه بكاف الخطاب « لك » فلما خالف فى الثانى واجهه بقوله « لك » لعدم العذر هنا ، ويعود موسى لنفسه ويجد أنه خالف وعده مرتين ، فيندم ويقطع على نفسه الطريق ، ويجعلها آخر فرصة أمامه »(٢) .

وهكذا تجد القيود فى المسند يكون لها أثرها فى اتمام الفائدة وتكثيرها .

مجىء المسند فعلا غير مقيد بشىء :

وأما ورود المسند فعلا غير مقيد بشىء فلمانع حال دون تربية الفائدة وتكثيرها كما وضح لك فى ترك المواجهة بالخطاب مع موسى — عليه السلام — فى قوله جل شأنه على لسان الخضر — عليه السلام — فى المرة الأولى « ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا » دون أن يذكر لفظ « لك » كما سبق (٣) .

---

(١) الكهف ٧١ — ٧٥ .

(٣) صفوة التفاسير . محمد على الصابونى . ص ٢٠٠ .

(٢) من الواضح هنا أن المسند لم يترك تقييده مطلقا ، لأن القول مقيد بمقوله فى الآية الكريمة ، ولكن ترك (لك) فى هذه الآية فى المرة الأولى قلل من التقييد فى المسند للغرض المذكور .

وقد يترك القيد خوفا من فوات الفرصة بذكره كقولك لصائد يترقب صيدا : وقع : تريد : وقع فى الشرك ، فلا تذكر القيد خوفا من فوات الفرصة ، وافلات الصيد من الشرك .

وقد يترك القيد قصدا الى عدم اطلاع الحاضرين على الزمان الخاص فى الفعل أو مكانه أو مفعوله أو سببه أو نوعه ... الخ كأن تقول فلان أهان ... دون أن تذكر المهان أو سبب الاهانة أو زمانها الخاص ... الخ .

وقد لا يقيد الفعل لعدم العلم بالمقيدات أو للقصد الى الاختصار لضيق المقام أو ضجر المتكلم أو خوف سآمة السامع أو نحو ذلك من الأغراض التى تقتضى عدم الذكر .

ثانيا ــ تقييد الفعل بالشرط :

ذكر النحاة معانى مفصلة لأدوات الشرط ، كما ذكروا أن الأصل فى بعضها الدخول على المضارع ، والأصل فى البعض الآخر الدخول على الماضى ، وسنختار هنا ونحن فى مجال الحديث عن تقييد الفعل بالشرط أداتين من أدوات الشرط التى حقها الدخول على المضارع ، أداتين أخريين من الأدوات التى حقها الدخول على الماضى ، وسندرس بعض أحوال الفعل الواقع فى خبرها والمعانى المتولدة من اقتران الفعل بالشرط ، والتى قد لا تستفاد من الفعل فى ذاته ، وانما بوقوعه فى حيز هذه الأداة .

ومن الأدوات التى حقها الدخول على المضارع « ان واذا » ومن الأدوات التى حقها الدخول على الماضى « اذ ولو » .

تقييد الفعل بإن واذا :

ينبغى قبل أن نتحدث عن بعض أحوال الفعل مع ان الشرطية أن نذكر أولا معناها والأصل فى مدخولها .. قال صاحب المفتاح : « أما ان فهى للشرط فى الاستقبال ، والأصل فى مدخولها الخلو عن الجزم بوقوع الشرط كما يقول القائل : ان تكرمنى أكرمك ، وهو لا يعلم أتكرمه أم لا ، فاذا استعملت فى مقام الجزم لم تخل عن نكتة » (١) .

من هذا يتضح أن «ان» الشرطية يكون شرطها مستقبلا ، ولا تدخل من حيث الأصل على المحقق وقوعه أو المستحيل وقوعه الا لنكتة ، وانما تدخل على المشكوك فى وقوعه دون جزم به .

أما «اذا» فالأصل فى استعمالها « أن تكون لزمن من أزمنة المستقبل مختص من بينها بوقوع حدث مقطوع بوقوعه فى اعتقاد المتكلم ، والدليل على استعمال «اذا» فى الأغلب الأكثر فى هذا المعنى نحو « اذا طلعت الشمس » وقوله تعالى « اذا الشمس كورت » (٢) ، ولهذا كثر فى الكتاب العزيز استعماله لقطع علام الغيوب سبحانه بالأمور المتوقعة » (٣) .

من هذا يتضح وجها الاشتراك والافتراق بين الأداتين ، فهما يشتركان فى أن كلا منهما أداة شرط فى الاستقبال ومعنى كونهما أداتى شرط فى الاستقبال أن حصول مضمون الجواب فى المستقبل معلق على حصول مضمون الشرط فيه .

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكى ص ١١٥ .
(٢) التكوير ١ .
(٣) شرح الكافية للرضى ١٠١/٢ .

فاذا قلت : ان تزرنى أكرمك ، فقد علقت اكرامك للمخـــاطب فى المستقبل على زيارته فى المستقبل أيضا وكذلك الحـــال لو قلت : اذا تزورنى أكرمك ، ولكونهما للشرط فى الاستقبال اشترط فى جملتيهما أن تكونا فعليتين استقباليتين .

أما سر اشتراط ذلك فى جملة الشرط فان المفروض حصول مضمونها فى المستقبل ، فلا يجوز أن تكون اسمية لدلالتها على الثبوت والدوام كما سبق ، ولا فعلية ماضوية لدلالتها على الحدث فى الماضى ، وكل منهما لا يدلان على الحدوث فى المستقبل .

وأما اشتراط ذلك فى جملة الجواب فلأنها معلقة على جملة الشرط المستقبلة ، فتكون هى أيضا مستقبلة كذلك ، فلا تكون اسمية أو فعلية ماضوية كما سبق .

ولمـــا كانت كل من «ان واذا» خاصة بالدخول على الأمور المستقبلة كان المناسب لهما الدخول على المضارع — على ما هو الأصـــل — فى الدلالة على المستقبل ، ولا يترك هذا الأصل فى الكلام البليغ الى الماضى المؤذن بالتحقق نظرا الى لفظه ، وان انتقل بواســطة أداة الشرط الى معنى الاستقبال الا لنكتة مناسبة (١) ، لأن العدول عن مقتضى الحال بلا نكتة خروج من البلاغة كما يقول سعد الدين (٢) .

وأما وجه الافتراق بين دلالة كل من « ان واذا » فيتضح مماسبق، وهو أن الأصل فيما يقع فى حيز «ان» أن يكون مشكوكا فيه ، وفيما يقع فى حيز «اذا» أن يكون محققا واقعا أو فى اعتقاد المتكلم، ولهذا غلب وقوع المـــاضى فى حيزها لدلالته على التحقق نظرا الى لفظه .

---

(١) ويكون الكلام حينئذ واردا على غير مقتضى الظاهر لهذه النكتة .

(٢) ينظر حاشية سعد الدين التفتازانى على القسم الثالث من المفتاح ص ٣٥٧ تحقيق د. رافت اسماعيل غانم .

هذا ومما ينبغى أن نقف عليه هنا أن دخول «ان» على الأمور المشكوك فيها فى كلام الله تعالى انما هو جرى على عادة العرب فى لغتهم ، وحكاية لما يجرونه فى استعمالاتهم ، وأما بالنسبة لله تعالى ، فكل شىء معلوم وقوعه أو عدم وقوعه على سبيل الجزم وانقطع قبل أن يقع •

وبعد أن عرفت الأصل فى استعمال كل من الأداتين نورد لك بعض الشواهد لتقف على بعض أنماط استعمالهما فى الكلام الفصيح ، وعلى خروج كل منهما على مقتضى الظاهر فى الاستعمال لنكتة معينة كما ذكرت •

قال تعالى « فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه » (١) وهنا نلاحظ استعمال «اذا» فى جانب الحسنة ، لأن مجىء الحسنة من الله أمر مقطوع به ليس محل شك ، وقد عرفت الحسنة بلام الجنس لشمول أى نوع من الحسنات، وهذا أدخل فى القطع ، ولذلك كان المناسب أن يلى «اذا» فعلا ماضيا للدلالة على التحقق نظرا للفظه ، وان كان ذلك على خلاف الأصل فى مدخول «اذا» كما سبق • ولما كانت الاصابة بالسيئة ليست أمرا محتما واقعا بل ربما تقع هذه الاصابة أو لا تقع جىء بان التى تدخل على المشكوك فيه ، ووقع المضارع دون الماضى فى حيزها على ما هو الأصل فى مدخولها لأن دلالة المضارع على الحدث ليست محققة ، ونكر لفظ « سيئة » للتقليل ، أى أن الاصابة بالسيئة أمر قليل حدوثه بالنسبة لمجىء الحسنة •

ومن هذا القبيل قوله تعالى « واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم اذا هم يقنطون » (٢) ونلاحظ

---

(١) الأعراف ١٣١ •
(٢) الروم ٣٦ •

أيضا كما هو ملاحظ فى الآية السابقة استعمال اذا والماضى مع الرحمة ، وان مع المضارع فى جانب السيئة ، وقد نكرت الرحمة والسيئة لافادة التقليل ، بمعنى أن اصابة الناس بقدر قليل من الرحمة أمر محقق ، وأما اصابتهم بقدر قليل من السيئة بما قدمت أيديهم فليس محققا ، لأنه لا يعجل على بالعقوبة فى الدنيا ، وقد يصفح عما قدمت أيديهم فلا تصيبهم سيئة ، وهذا من فضل الله ورحمته .

وفى التعبير بلفظ الاذاقة فى جانب الرحمة ، والاصابة فى جانب السيئة رد للشىء الى أصله ، لأن الرحمة وكل ما فيه متعة وسرور يناسبه فى الأصل لفظ الاذاقة والاطعام ، وأما السيئة وكل ما فيه ضرر وألم فيناسب لفظ الاصابة والابتلاء .

وتأمل فى هذا الاطار قول الشاعر مخالفا فى الاستعمال بين اذا وان :

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

تجد أن استعمال اذا مع الكثير الغالب ، وان مع القليل النادر ، أو للاشارة الى أن اكرام الكريم ينبغى أن يكون محققا ، واكرام اللئيم ينبغى ألا يكون كذلك .

أما قوله جل شأنه « واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه » (١) ، فقد أتت هذه الآية على غير النمط السابق ، فأتت اذا والماضى مع الضر ، وذلك نظرا للفظ المس ، وهو أقل من الاصابة ، ولتنكير لفظ الضر ، فيفيد ذلك أن مجرد مس قليل من الضر لهؤلاء الناس المتحدث عنهم ، وهم الذين اذا مسهم ضر دعوا ربهم منيبين

---

(١) الروم ٣٣ .

اليه ، فاذا أذاقهم رحمة أشرك فريق منهم به هؤلاء الناس ينبغى أن يكون مسهم الضر أمرا محققا لسوء صنيعهم •

وعلى هذا النمط أيضا كان قوله جل شأنه : واذا مسه الشر فــذو دعاء عريض بعد قوله عز وجل :

« واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه » (١) وهنا تجد القرآن الكريم استعمل «اذا» مع كل من النعمة والشر ، وكذلك لفظ المــاضى ، لأن كلا منهما محقق فى هذا الموضع ، فنعمة الله على هـــذا الانسان محققة ، كما أنها محققة لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم،وكذلك مس الشر بالنسبة لهذا الانسان الذى يعرض ويتكبر عندما تصــيبه النعمة ، وهذا من شأنه أن يكون ابتلاؤه بالشر أمرا محققا لحمقــه وغروره ونسيانه النعمة ، ولذلك وقع لفظ «الماضى» فى حيز «اذا» على خلاف الأصل فيها كما قد عرفت •

وبعد أن عرفت الأصل السابق فى استعمال «ان» و «اذا» أعتقد أنه لا يخفى عليك وجه ما عابوا به قول عبد الرحمن بن حسان يخاطب بعض الولاة وقد سأله حاجة فلم يقضها ، من حيث وضع واســتعمال «اذا» و «ان» فى قوله :

ذممت ولم تحمــد وأدركت حاجتى ••• تولى سواكم أجرها واصطناعها

أبى لك كسب الحمـــد رأى مقصر ••• ونفس أضاق الله بالخـــير باعهـــا

اذا هى حثته على الخـــير مرة ••• عصــاها وان همت بشر أطـــاعها

---

(١) فصلت ٥١ •

فالموقف هنا موقف ذم ، واستعمال «اذا» مع حث النفس على الخير يدل على أن ذلك أمر محقق مقطوع به •

واستعمال «ان» مع الهم بالشر يدل على أن ذلك أمر نادر مشكوك فيه ، ونفس يتحقق منها الحث على الخير ، ونادرا ما تهم بالشر هى نفس طيبة محمودة غير مذمومة ، لا تستحق أن يقول فى شأنها :

« ونفس أضاق الله بالخير باعها ، ولذلك لم يأت استعمال «اذا» و «ان» فى موضعهما المناسب ، ولعله لو عكس لأصاب •

وقد التمس لهذا الصنيع من الشاعر نكتة لطيفة هى أن نفسه يتحقق منها الحث على الخير ، ومع ذلك يعصاها ، ولا يطيعها فيه ، وأما ان حدث مجرد توهم للشر من نفسه فانه يبادر الى طاعتها ، وتلبية مطلوبها ، وهذا أبلغ فى الذم والهجاء •

ومن هذا المنطلق أيضا لم يصب أبو تمام فى استعمال «اذا» فى البيت التالى وهو يمدح :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى واذا ما لمته لمته وحدى

لدلالته على أن اللوم محقق منه لممدوحه ، وبالتالى يتحقق من الممدوح فعل ما يلام عليه ، وهذا لا يناسب مقام المدح •

علمت مما سبق أن وقوع الماضى فى حيز كل من «ان» و «اذا» يكون على خلاف الأصل ، وأنه لا يعدل عن الأصل لغيره الا لنكتة يقتضيها المقام ، ويكون معها الكلام خارجا عن مقتضى الظاهر أيضا ، وان كان موافقا لمقتضى المقام ، وكذلك الشأن فى دخول «ان» على غير المشكوك فيه ، و «اذا» على غير المقطوع به •

فان دخلت «ان» على الأمر الممكن على ما هو الأصل فى مدخولها ،

ولكن عبر عنه بلفظ الماضى دون المضارع فلا بد لذلك من نكتة بلاغية تسيغ هذا العدول مثل :

أ ــ الدلالة على قوة الأسباب المتآخذة فى وقوع الفعل كقولك : ان اشترينا كذا حال انعقاد الأسباب فى ذلك ٠

ب ــ الدلالة على أن ما هو للوقوع كالواقع نحو قولك : ان مت، وعليه «ونادى أصحاب الجنة» (١) ٠ «ونادى أصحاب الأعراف» (٢) وغير ذلك من الأمور المتحققة الوقوع فى المستقبل ٠

جـ ــ التفاؤل أو اظهار الرغبة فى وقوعه كما تقول : ان ظفرت بحسن العاقبة فذاك ، وعليه قوله تعالى « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا » (٣) وقولهم : رحمه الله من هذا القبيل (٤) ٠

هذا ولا ينبغى أن يفهم أن النهى عن اكراه الفتيات على البغاء مرتبط بارادة التحصن ، ومعنى ذلك جواز الاكراه على البغاء اذا لم يردن التحصن ، لأن قيد النهى عن الاكراه بارادة التحصن لتوبيخ أولياء الاماء على اكراههم على البغاء مع حرصهن وهن اماء على العفة والتحصن ، فاذا كانت الأمة تحرص على العفة فأولى بواليها أن يكون أشد حرصا منها ، لأنه أرفع منها قدرا وأعلى منزلة ، وكأن فى ذلك اشارة الى أن الأمة الحريصة على العفة أرفع قدرا من سيدها الذى يكرهها على البغاء ، ووقوع الفعل فى حيز «ان» للاشارة الى ندرة هذه الحالة ٠

---

(١) الأعراف ٤٤ ٠
(٢) الأعراف ٤٨ ٠
(٣) النور ٢٣ ٠
(٤) انظر مفتاح العلوم للسكاكى ص ١١٧ ــ ١١٨ وانظر المطول ص ١٦٣ ١٦٤ سعد الدين التفتازانى ٠

هذا كله ان دخلت «ان» على الأمر الممكن كما هو الأصل فيها ، وأما ان دخلت على الماضى المعبر به عن المحقق وقوعه ، أو المستحيل وقوعه فيكون ذلك لأغراض أخرى تتولد من مصاحبة «ان» الشرطية لهذا الأمر المحقق أو المستحيل ، من هذه الأغراض :

أ ـ التجاهل اذا اقتضى المقام ذلك بابراز وقوعه فى صورة غير المستحيل ، أو المحقق وقوعه فى صورة غير المحقق ، وذلك مجاراة للخصم وارخاء لعنانه للوصول الى المقصود ، فيكون التحقيق أو عدمه على سبيل الفرض ، والتقدير ، مثال الأول قوله تعالى « قل ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » (١) •

فمدخول «ان» هنا وهو ثبوت الولد للرحمن أمر مستحيل ، ولكنه أبرز فى صورة المحقق ليرتب عليه قوله : فأنا أول العابدين ، أى ان كان للرحمن ولد على سبيل الفرض والتقدير فأنا أول عابد •

يقول سعد الدين عن دخول «ان» على المحال :

« لا يقال : المستعمل فى فرض المحالات ينبغى أن يكون كلمة « لو كما فى قوله تعالى « ولو سمعوا ما استجابوا لكم » (٢) يعنى الأصنام دون ـ ان ـ لما مر من أنه يشترط فيها عدم الجزم بوقوع الشرط أولا وقوعه ، والمحال مقطوع بعدم وقوعه ، فلا يقال ان طار الانسان كان كذا ، بل يقال : لو طار ، لأنا نقول : ان المحال فى هذا المقام ينزل منزلة ما لا قطع بعدمه على سبيل المساهلة وارخاء العنان لقصد التبكيت ، فمن هنا يصح استعمال «ان» فيه كما ذكره صاحب الكشاف فى قوله تعالى « فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد

---

(١) الزخرف ٨١ •
(٢) فاطر ١٤ •

اهتدوا » (١) انه من باب التبكيت ، لأن دين الحق واحد لا يوجد لــه مثل ، فجيء بكلمة الشك على سبيل الفرض والتقدير ، أى ان حصلوا دينا آخر مساويا لدينكم فى الصحة والسداد فقد اهتدوا ، وفى قوله تعالى « ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطــر علينــا حجــارة من السماء » (٢) أى ان كان حقا فعاقبنا على انكاره ، والمراد نفى حقيقته ، وتعليق العذاب بكونه حقا مع اعتقاد أنه باطل تعليق بالمحال ، ومنــه قوله تعالى « قل ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » (٣) .

ومثال دخولها على المقطوع به ، لابرازه فى صورة غير المقطــوع به تجاهلا قول الخادم عندما يسأل عن سيده ، هل هو موجود فى الدار أولا ، وهو يعلم أنه موجود : ان كان موجودا فســأخبرك ، فقد تجاهل وجوده خوفا من سيده .

هذا وقد يجارى الخصم فيفرض المحال واقعا لالزامه الحجة بما يترتب على الشرط كما فى قوله تعــالى : « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين » (٤) ، أو للتنبيه الى مضمون الجواب كما فى قوله جــل شأنه « فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » (٥) على أحد وجوه التخريج فى الآية (٦) .

٢ ـــ اجراء الكلام على سنن حال المخاطب ، كأن يكون المخاطب غير جازم بوقوع الشرط ، والمتكلم جازما بوقوعه ، فيأتى الكلام على

---

(١) البقرة ١٣٧ .
(٢) الأنفال ٣٢ .
(٣) خصائص التراكيب ص ٢٦٥ .
(٤) آل عمران ٩٣ .
(٥) الزخرف ٨١ .
(٦) انظر الكشاف ٢/٢٥٣ ، ٣١٤ ـــ ٣١٦ من تفسير الخازن .

بين اعتقاد المخاطب كأن تقول لمن يشك فى صدقك : ان صدقت فماذا يكـــون ؟

٣ ــ تنزيل المخاطب العالم بوقوع الشرط أو عـدم وقوعه منزلة الشاك فى وقوعه ، أو عدم وقوعه لعدم جريه على مقتضى علمه ، كأن تقول لمن يؤذى أباه : ان كان أباك فلا تؤذه ، فهو يعلم أنه أبوه ولكنك نزلته منزلة من يشك فى هذه الحقيقة لايذائه اياه ، وتقول لمن يكذب فى كلامه: ان كنت صادقا فيما تقول نجوت من العقاب ، فالمخاطب جازم بعـدم صدقه ، ولكن المتكلم نزله منزلة الشاك فى صدق ما يقـــول حين رآه يكذب •

٤ ــ التوبيخ على الأمر المحقق الذى دخلت عليه «ان» للاشارة الى أنه ما كان ينبغى ان يكون محققا ، لأن هناك من الأدلة والبراهين ما يقلع هذا الشرط من أساسه ، فينبغى ألا يوجـد الا على ســـبيل الفرض والتقدير • كما يفرض المحال ، وذلك كمـا فى قوله جل شـأنه «أفنضرب عنكم الذكر صفحا إن كنتم قوما مسرفين »(١)فكونهم مسرفين أمر واقع لا محالة ، لكنه أبرز فى صورة الأمر المشكوك فيه أو المفروض لتوبيخهم عليه ، لوجود ما يقضى على هذا الاسراف •

وهذا الغرض انما يتحقق لو كان مدخول «ان» أمرا متطوعا به، وكان مذموما •

٥ ــ الالهاب والتهييج لأمر محمود ان كان مدخول «ان» أمرا محمودا محققا والمقصود هو اثارة النفوس اليه للحرص على التمسك به ، والمزيد منه ، وكأن هذا الأمر المحقق ليس على كمال تحققه ، بل

---

(١) الزخرف ٥ •

يحتاج الى تمكين وتدعيم ، كما فى قوله تعالى « يأيها الذين آمنـــوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين » (١) فهم مؤمنون حقا بدليل ندائهم ، ولكن ابرز هذا الأمر المحقق فى صورة غير المحقق للغرض المذكور .

٦ ـ التغليب ، أى تغليب المشكوك فى اتصافه بالشرط على المجزوم باتصافه بــه كأن تقول لمجموعة من الطلبة بعضـــهم مقطوع باجتهاده والبعض الآخر مشكوك فيه : ان اجتهدتم فسأكافئكم ، فقـــد غلبت المشكوك فى اجتهادهم على غير المشكوك فى اجتهـــادهم ، فأوقعت الجميع شرطا لإن التى تدخل فى الأصل على الأمر الممكن غير المقطـــوع بوجوده أو بعدمه .

وأما بقوله تعالى « وان كنتم فى ريب ممـــا نزلنا على عبـــدنا فأتوا بسورة من مثله » (٢) فيحتمل أن يكون من باب التوبيخ على النحو السابق ، اذا كان الخطاب لمن وقع منه الريب فعلا ، ويحتمل أن يكون من باب التغليب أى تغليب غير المرتابين على المرتابين ، لأن من المخاطبين من يعرف الحق جيدا ، ولكنه ينكره عنادا وخصاما ، ولا يقال انه بعد تنزيل المرتابين منزلة غير المرتابين يصبح الجميع لا ارتيـــاب عندهم . فتكون «ان» داخلة على المقطوع بانتفائه ، فكيف ساغ دخـــول «ان» على المقطوع بانتفائه ؟ لأنا نقول انه بعد تنزيل المرتابين منزلة غيرهم يفرض الريب المقطوع بانتفائه كما يفرض المحال الـــذى ينزل منزلة المشكوك فيه ليترتب عليه أمر مسلم الوقوع عند الخصم فتلزمه الحجـــة .

---

(١) البقرة ٢٧٨ .
(٢) البقرة ٢٣ .

٧ــ التعريض بغير المخاطب ، كما فى قوله تعالى « لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين »(١) .

فالمخاطب هو الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ ، ووقوع الشرك منه محال ، ولكنه فرض واقعا تعريضا بغيره ممن وقع منهم الشرك بأنه سيحبط عملهم ، فاذا كان هو ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يقع منه شرك قبل البعثة أو بعدها ، وان وقع منه فرضا فسيحبط عمله ، فيكون حبط العمل ممن وقع منهم الشرك على سبيل الحقيقة من باب أولى ، والتعبير بالمضارع هنا لا يفيد هذا الغرض وهو التعريض ، ولذلك « جىء بلفظ الماضى وان كان المعنى على الاستقبال ابرازا للاشراك الغير الحاصل من النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى معرض الحاصل على سبيل الفرض والتقدير للتعريض بمن تحقق منهم الشرك بأنه قد حبط أعمالهم لتحقق موجبه فيهم ... ومنه ظهر أن صيغة المضارع لا تفيد التعريض بمن صدر عنهم الشرك لأن المضارع حينئذ يكون مستعملا على أصله ، أعنى وقوع الشرك من النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الاستقبال بطريق الفرض وهو الارتداد ، وترتب الحبط على الارتداد لا يفيد التعريض بمن وقع منه الشرك ابتداء بأنه قد حبط عمله ، بل يكون تعريضا بمن ارتد بخلاف الماضى ، فانه وان كان بمعنى المستقبل لكن فى التعبير بصورة الماضى ابرازا له فى صورة الحاصل تعريضا بمن صدر عنه الشرك بأنه قد حبط عمله ، هكذا ينبغى أن يفهم هذا المقام (٢) .

---

(١) الزمر ٦٥ .

(٢) حاشية عبد الحكيم على المطول ص ٢٤٨ ــ ٢٤٩ وانظر المطول ص ١٦٤ .

من هذا يتضح أن التعبير بالمـاضى هنا بدلا من المضـــارع له مدخل أساسى فى افادة التعريض بخلاف ما ذهب اليه أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى من « أن التعريض فى هذا الأسلوب ودلالته الرافضة ليس مناطه هو وقوع المـاضى بعد «ان» كما يقول السكاكى ، لأننـا لو جئنا بالمضارع مكان المـاضى لبقيت دلالة التعريض ، فلو قلنـا : لئن تشرك ليحبطن عملك لبقيت الدلالة التعريضية بالنسبة الى غـير المخاطب عليه السلام » (١) •

ومثل الآية السابقة قوله تعالى « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذن لمن الظالمين » (٢) •

هذا وقد تستعمل ان فى مقام التأكيد مع واو الحال لمجرد الوصل والربط ، ولا يذكر لها حينئذ جواب نحو : زيد — وان كثـــر ماله — بخيل ، وعمرو — وان أعطى جاها — لئيم ، ودخولها على المـاضى لفظا ومعنى قليل كما فى قول أبى العلاء :

فيا وطنى ان فاتنى بك سابق
من الدهر فلينعم لساكنك البال

ولعل فى دخولها على المـاضى المحقق هنا اشارة الى الحسرة والألم على تحققه ، وأنه ما كان ينبغى أن يكون هذا الفوت •

نماذج من خروج «اذا» الشرطية على غير مقتضى الظاهر فى مدخولها :

علمنا أن «اذا» الشرطية تدخل على الأمر المجـــزوم به ، وأن مدخولها الأصل فيه أن يكون مضارعا ، ولكنها قد ترد على خلاف هذا الأصل فى الموضعين ، فتدخل على الأمر الممكن لابرازه فى صـــورة

---

(١) خصائص التراكيب ص ٢٧١ •
(٢) البقرة ١٤٥ •

الأمر المحقق للتهديد والوعيد كما في قوله تعالى «وإذا شئنا بدلنـــا أمثالهم تبديلا » (١) ولهذا ورد المـــاضى في حيزها ، والأصل في التعبير عن هذه القضية أن يكون على نمط قوله جل شأنه « ان يشـــأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » (٢) •

هذا وقد يلى «اذا» الشرطية المضارع لفظا ومعنى كما في قوله جل شأنه « وهو على جمعهم اذا يشاء قدير » (٣) أو المـــاضى لفظـــا لا معنى كما في قوله جل شأنه « اذا جاء نصر الله والفتح » (٤) لابراز غير الحاصل في معرض الحاصل ، أو المضارع لفظا لا معنى لاستحضار الصورة كما في قوله سبحانه « واذا تتلى عليهم آيات الرحمن خـــروا سجدا » (٥) أو المـــاضى لفظا ومعنى لاستحضار الصورة باذا كمـــا في قوله سبحـــانه « حتى اذا أتوا على وادى النمل » (٦) أو الدلالة على استمرارها كما في قوله جل شأنه « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معـــكم انمـــا نحـــن مستهزئون » (٧) •

تقييد الفعل بلو واذ :

ينبغى ان نصنع هنا ما صنعناه هناك مع لو واذ من بيان أصـــل معنى كل منهما وما ينبغى ان تدخل عليه ، ليتسنى لنا بعد ذلك معرفة خروجها في الاستعمال عن هذا الأصل لغرض بلاغى كما سنوضح •

---

(١) الدهر ٢٨ •
(٢) ابراهيم ١٩ •
(٣) الشورى ٢٩ •
(٤) النصر ١ •
(٥) مريم ٥٨ •
(٦) النمل ١٨ •
(٧) البقرة ١٤ •

يقول صاحب المفصل : ولو تجعل الفعل للمضى وان كان مستقبلا كقوله تعالى : « لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم » (١) •

ويقول صاحب المغنى : « وتلزم « اذ » الاضافة إلى جملة اسمية أو فعلية فعلها ماض لفظا ومعنى ، أو فعلية فعلها ماض معنى لا لفظا نحو : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت »(٢)

من هذا يتضح أن «لو» أداة شرط فى الماضى ، أى أنها لتعليق حصول مضمون الجواب على حصول مضمون الشرط فى الماضى مع القطع بانتفاء الشرط فينتفى الجواب المترتب عليه ، فاذا قلت : لو جئتنى أكرمتك كان معناه امتنع حصول الاكرام فى الزمن الماضى لامتناع حصول المجىء فيه فى هذا الزمن أيضا ، وهذا معنى قولهم : ان « لو » حرف امتناع لامتناع ، ولهذا كان الأصل فى جملتيها أن يكونا فعليتين ماضويتين ، أما كونهما فعليتين فلأن الشرط والجواب يكونان غير حاصلين فى الماضى كما سبق ، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام وهذا غير الانتفاء المفروض فى كلتا الجملتين ، وأما كونهما ماضويتين ، فلأن المضارع يفيد الحال أو الاستقبال ، وهذا ينافى : ما قرروه من أن مدخوليها منفيان فى الماضى •

ونوضح فيما يلى بعض الاستعمالات التى جاءت على الأصل ، والبعض الآخر الذى خرج عنه لنكتة ، ومن ذلك :

١ ــ أن يليها الماضى لفظا ومعنى كما فى قوله تعالى : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض »(٣)

---

(١) الحجرات ٧ وينظر المفصل فى علم العربية للزمخشرى ص٣٢٠

(٢) البقرة ١٢٧ وينظر المغنى لابن هشام ٧٧/١ •

(٣) المؤمنون ٧١ •

وهذا هو الأصل فى استعمالها •

٢ — أن يليها المضارع لفظا لا معنى كما فى قوله جل شـــأنه : « لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم »(١) والسر فى التعبير عن الماضى بالمضارع هنا الدلالة على الاستمرار التجددى ، ووقوع المضارع هنا فى خبر لو أفاد نفى هذا الاستمرار التجددى ، ويكون المعنى أن امتناع عنتكم انما كان بسبب امتناع استمراره صلى الله عليه وسلم على طاعتكم •

٣ — ان يليها الماضى لفظا لا معنى كما فى قوله جـــل شـــأنه : وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقـــوا الله •• »(٢) وهى هنا بمعنى « ان » الشرطية التى يعبر بالماضى الدال على المستقبل معها ابرازا لغير الحاصل فى معرض الحاصل كما سبق •

٤ — أن يليها المضارع لفظا ومعنى كما فى قوله جل شأنه « ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا ، وان الله شديد العذاب » (٣) •

وهنا تجد أن « لو » و « اذ » وهما أداتان خاصتان بالدخول على الماضى قد دخلتا على المضارع على خلاف الأصل فيهما ، والمضـــارع هنا معبر به عن الأمور المستقبلة المحققة الوقوع ، وانما لم يعبر عن هـــذه الأمور المستقبلة بالماضى المحقق الوقوع كما هو النمـــط الســـائد فى القرآن الكريم لأمرين :

أولهما : صدور هذا الاخبار عمن لا يتخلف كلامه ، فالتعبير بالماضى والمضارع حينئذ ســـواء فى الدلالة على تحقق الوقوع ، فليست هنـــا ضرورة للتعبير بالماضى •

---

(١) الحجرات ٧ •
(٢) النساء ٩١ •
(٣) البقرة ١٦٥ •

ثانيهما : استحضار صورة هذا المشهد الرهيب عند الظالمين ، وهى رؤية هؤلاء الظالمين قوة الله وبأسه وسلطانه وانفراده بذلك حين يرون العذاب اللاحق بهم ، وجواب « لو » محذوف للدلالة على أنه لا تحيط به عبارة تدل عليه ، أى لها لهم ذلك ، ولرأوا أمرا بشعا لا يستطيعون تحمله .

أما استعمالات « اذ » والفعل الواقع فى حيزها فقد علمنا أنهـا ظرف للزمن الماضى ، ولذلك كانت خاصة بالدخول على الماضى من حيث الأصل فى الاستعمال كلو ، الا أنها قد ترد على هذا الأصل ، فلايلتمس للفعل معها نكتة ، وقد ترد على خلاف الأصل لنكتـة بلاغية كمـا هو الشأن فى « لو » .

ونورد فيما يلى نماذج من استعمالها على الأصل وعلى خلافه :

١ ــ أن يليها الماضى لفظا ومعنى كما فى قوله تعالى : « اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم »(١) .

٢ ــ أن يليها الماضى لفظا لا معنى كما فى قوله تعالى : « واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله »(٢) والماضى هنا عبر به عن المضارع لتحقق الوقوع مستقبلا .

٣ ــ أن يليها الماضى معنى لا لفظا كما فى قوله جـل شـأنه : « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر اذ يعدون فى السـبت اذ تأتيهم حيتانهم شرعا »(٣) على معنى اذ عدوا فى السبت اذ أتتهم حيتانهم وعبر بالمضارع هنا بدلا من الماضى حكـاية للحـال الماضـية

---

(١) الأحزاب ١١ .
(٢) المائدة ١١٦ .
(٣) الأعراف ١٦٣ .

لاستحضار صورتها (١) • ومثل ذلك أيضا قوله جل شــأنه : « وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث » (٢) •

ومنه قول الشــاعر :

أتذكر اذ تودعنا ســليمى   بعود بشامة سقى البشــام

٤ ــ أن يليها المضارع لفظا ومعنى للدلالة على تحقق الوقــوع واستحضار الصورة معا كما مر فى الآية السابقة التى التقت فيهــا مع لو « ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ••• »

هذه نماذج من تقييد الفعل بالشرط اتضح منها ما تولد من هذا التقييد من معان جديدة ناشئة من ارتباط الشرط بأداة لها معنى خاص ، كما أن مدخولها ينبغى ان يرد على نمط معين يكون هو الأصل فى مدخولها فاذا ما اقترنت بغيره كان لها شأن جديد مع هذا المدخول الجــديد ، فأفاد التركيب ثراء وغنى فى معطياته ، كما كان مدعــاة للفكر والتأمل للوقوف على نمط هذا الاستعمال الوارد على غير أصله ، وكانت أساليب القرآن الكريم حافلة بهذه الأنماط من الاستعمال •

وقد أضفت لتقييد الفعل بالشرط تقييده بظرف معين هو « اذ » لما فى هذا التقييد من تولد معان جديدة تصاحب اقتران هذا الظرف بغير ما ينبغى أن يقترن به من الأفعال ، كما وضح ذلك كله مما سبق •

هذا ولا ينبغى أن يخفى أن الاستعمالات الواردة على خــلاف الأصل فى الأداة أو فى الشرط تكون من باب المجاز كمــا ســيتضح فى موضعه ان شاء الله •

---

(١) تنظر حاشية الجمل على الجلالين٣/١٨٣ المطبعة الأزهرية •
(٢) الأنبياء ٧٨ •

أحـوال متعلقـات الفعـل

يندرج تحت هذا العنوان مباحث ثلاثة هى :

١ ـ حذف المفعـول .

٢ ـ تقديم متعلقات الفعل عليه .

٣ ـ تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض .

أولا : حذف المفعـول :

ينبغى للمتكلم أن يقتصر فى كلامه على ما يريد افادته للمخاطب دون زيادة أو نقص ، فاذا أراد أن يخبره بمجرد وقوع الفعل فقط دون بيان من وقع منه أو على من وقع فعليه أن يقول : كان ضرب ، وحدث ضرب ، فاذا تعلق الغرض بالاخبار عمن وقع منه الضرب أيضا قلت : ضرب زيد ، للدلالة على وقوع ضرب من زيد ، فاذا كنت تريد الاخبار عمن وقع عليه الضرب أيضا قلت : ضرب زيد عمرا يقول عبد القاهر فى مقدمة حديثه عن حذف المفعول :

« وههنا أصل يجب ضبطه ، وهو أن حال الفعل مع المفعول الذى يتعدى اليه حاله مع الفاعل ، وكما أنك اذا قلت : ضرب زيد ، فأسندت الفعل الى الفاعل كان غرضك من ذلك أن تثبت الضرب فعلا له ، لا أن تفيد وجود الضرب فى نفسه وعلى الاطلاق ، كذلك اذا عديت الفعل الى المفعول فقلت : ضرب زيد عمرا كان غرضك أن تفيد التباس الضرب الواقع من الأول بالثانى ووقوعه عليه ، فقد اجتمع الفاعل والمفعول فى أن عمل الفعل فيهما انما كان من أجل أن يعلم التباس المعنى الذى اشتق منه بهما ، فعمل الرفع فى الفاعل ليعلم التباس الضرب به من جهة وقوعه منه ، والنصب فى المفعول ليعلم التباسه به من جهة وقوعه عليه ، ولم يكن ذلك ليعلم وقوع الضرب فى نفسه ، بل اذا أريد الاخبار بوقوع الضرب ووجوده فى الجملة من غير أن ينسب الى فاعل أو مفعول

أو يتعرض لبيان ذلك فالعبارة فيه أن يقال : كان ضرب أو وقع ضرب أو وجد ضرب ، وما شاكل ذلك من ألفاظ تفيد الوجود المجرد فى الشىء»(١)

وبعد هذه المقدمة الضرورية نجد أن الفعل المتعدى اذا أسند الى فاعله ، ولم يذكر له مفعول فلا يخلو حاله من أحد أمرين :

الأول : أن يكون الغرض مجرد اثبات الفعل المتعدى لفاعله ، دون النظر الى مفعول ، حتى لا ينصرف الذهن الا الى هذا الاثبات ، فيكون الفعل المتعدى منزلا منزلة اللازم ، لأن المتكلم لا يهدف الى تعلق الفعل بمفعوله ، بل الى مجرد الاثبات ~~فيكون الفعل المتعدى منزلا منزلة اللازم ، لأن المتكلم لا يهدف الى تعلق الفعل بمفعوله ، بل الى مجرد الاثبات~~ فقط بين الفعل وفاعله ، كما فى قولك : فلان يعطى ، فالهدف هو مجرد اثبات العطاء فى ذاته ، وهذا بخلاف قولك : فلان يعطى الذهب مثلا ، فانه يفهم منه أنك تقصد الى المفعول بيانا لجنسه ، وكأنك ترد بهـذا على من يزعم أنـه يعطى غير الذهب أو يتردد فيه ، مع انك لا تقصد الى هذا ، وانماتقصد الى اثبات الاعطاء له .

وهذا الفعل المنزل منزلة اللازم على ضربين :

أ ـ أن يذكر الفعـل ولا ينوى له فى النفس مفعول أصلا ، بل يكون الغرض مجرد اثبات الفعل لفاعله أو نفيه عنه دون قصـد الى مفعول ، وحينئذ يكون هذا الفعل المتعدى منزلا منزلة اللازم ، كما فى قوله جل شأنه : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »(٢) فالفعل هنا متعد لمفعول قطعا ، اذ الأصل : هل يستوى الذين يعلمون الدين والذين لا يعلمونه ، ولكن هذا الفعـل نزل منزلة اللازم فصـار

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٨٥ .
(٢) الزمر ٩

بمعنى : هل يستوى أهل العلم وغيرهم ، وذلك مبالغة فى ذم أهـل الجهل بالدين ، وكأن من لا علم لهم به لا علم عندهم أصلا •

وقد ورد مثل ذلك أيضا فى الأسانيد الخبرية ، كما فى قوله تعالى « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا » ، وكمـا فى قوله جل شأنه : « وأنه هو أغنى وأقنى »(١) أى كان منه سبحانه الاضـحاك والابكاء والاماتة والاحياء ، والاغناء والاقناء •• ومثل ذلك قولهم: فلان يحل ويعقد ويأمر وينهى ، وينفع ويضر ، ويعطى ويمنع ، أى كان منه هذه الأفعال دون أن يقصد الى تعلقها بمفعول خاص ، لأن الغـرض مجرد اثبات الفعل لفاعله •

ب ـ أن يذكر الفعل ، وينوى له فى النفس مفعول خاص ، قـد علم موضعه من سبق ذكر أو قرينة حال ، الا أنك تنسيه نفسك ، وتخيل أنك لم تقصد الا الى اثبات الفعل لفاعله قصدا الى المبالغة والتعميـم فى المفعول ، كما فى قول البحترى يمدح المعتز الخـليفة العبـاسى ، ويعرض بأخيه المستعين بالله ، وكان ينازعه الخلافة :

شـجو حساده وغيظ عداه أن يرى مبصر ويسـمع واع

فالفعلان : « يرى ويسمع » من الأفعال المتعدية قطعا ، ولهمـا فى النفس مفعول خاص مناسب لكل منهما ، اذ التقدير : أن يرى مبصر آثاره ، ويسمع واع أخباره ، ولكنه حذف المفعولين قصدا الى المبالغة والتعميم فيهما ، لأنه يريد أن يقول: ان مما يحزن حسـاده ويغيـظ أعداءه ، أن يوجد ثم ذو بصر يرى ، وذو سمع يعى ، أى أن مجرد وجود مبصر أو سماع واع فى هذه الدنيا يحزن حساده ويغيظ أعداءه ، ، لأنهم يتمنون الا يوجد فى هذه الدنيا من يرى ويسمع ، لأن آثار الممـدوح

---

(١) النجم ٤٨ •

وأخبار قد عمت الدنيا كلها ، ويكفى فى ادراكها مجرد وجود مبصر أو سماع واع ، على أحقيته للخلافة دون سواه ، ومن الواضح أنه لو ذكر المفعولين هنا لفاتت الدلالة على هذا الغرض المقصود فى المدح ، وهو بيان عموم واشتهار آثاره وأخباره فى هذه الدنيا .

ومثل هذا البيت قول عمرو بن معد يكرب الزبيدى :

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت (١)

والشاهد فى قوله : « أجرت » حيث ذكر هذا الفعل دون مفعول، مع أنه مقدر فى النفس ومراد ، لأنه يعنى : « أجـرتنى » أى منعتنى وحبست لسانى عن الاشارة بهم ، ولكنه حذف المفعول ، فأوهم بذلك أن المراد : حدوث الاجرار أى المنع من الرماح ، وكأن ما حدث منهـا يجر كل لسان ويحبسه ، وليس لسانه هو فقط ، ولو ذكر المفعـول لما تأتى له هذا المراد ، فضلا عن أن ذكره قد يوهم انه لو حدث مثـل ذلك من قوم غيرهم قد لا يجر شاعرهم عن الاشادة بهم ، مع أنه يريد أن ما حدث منهم يخرس كل لسان عن النطق والاشادة .

وعلى هذا النحو كان قول طفيل الغنوى : (٢)

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت
بنـا نعلنـا فى الواطئين فزلت
أبوا أن يملـونا ولو أن أمنـا
تلاقى الذى لاقتـه منـا لملت
همو خلطونا بالنفـوس وألجئـوا
الى حجـرات أدفـأت وأظلـت

---

(١) أجرت من الاجرار ، وهو شق لسان الفصيل حتى لا يرضع أمه يريد أن صنع قومه فى المعركة من الخذلان والضعف حبس لسانه عن الاشارة بهم ، فكأنه شق كما يشق لسان الفصيل .

(٢) طفيل بن عوف الغنوى شاعر جاهلى من الفحول المعدودين ، وقد اشتهر ضمن ثلاثة من الشعراء بوصف الخيل .

يدعو الشاعر لهؤلاء القوم بأن يجزيهم الله خيرا لأنهم أقالوا عثرتهم وقاموا بعبئهم ، وتحملوا كثيرا فى مودتهم ، ومع ذلك لم يحدث منهـــم سأم ولا ملل ، مع أن الأم التى هى موضع العطف والحنان لو تحملت من وليدها ما تحملوا لملته ، ولكن صنع هؤلاء القوم فاق صنعها مع ابنها لأنهم قد مزجوهم بأرواحهم ، وهيئوا لهم طيب الاقامة معهم ، فآووهم فى غرف أشعرتهم بالدفء والظل .

والشاهد فى قوله : « ملت ــ وألجئوا ــ أدفأت ــ وأظلت » حيث حذف مفعول هذه الأفعال الأربعة للغرض السابق ، اذ التقدير : ملتنا ، وألجئونا ، وأدفأتنا ، وأظلتنا » ولو ذكر المفعول على هذا النحو لم يتأت له الغرض المقصود من المدح وهو التعميم فى ملل الأم ، وفى الجاء القوم ، وفى الادفاء والاظلال .

واقرأ معى تعقيب وبيان عبد القاهر لحذف المفعـــول هنـــا وفى الشاهد الذى قبله ، فقد كشف المسألة كشفا واضحا ، وأبان سر هـــذا الحذف بيانا لا يعوزه تعقيب آخر ، قال :

« فيها (فى الأبيات الثلاثة لطفيل) حذف مفعول مقصود قصده فى أربعة مواضع ، قوله : ملت وألجئوا وأدفأت وأظلت ، لأن الأصل .. ملتنا وألجئونا الى حجرات ، أدفأتنا وأظلتنا ، الا أن الحال على ماذكرت لك من أنه فى حد المتناهى حتى كأن لا قصد الى مفعول ، وكأن الفعل قد أبهم أمره ، فلم يقصد به قصد شىء يقع عليه ، كما يكون اذا قلت : قد مل فلان ، تريد أن تقول : قد دخله الملال ، من غير أن تخص شيئا ، بل لا تزيد على أن تجعل الملال من صفته ، وكما تقول : « هـــذا بيت يدفىء ويظل ، تريد أنه بهذه الصفة .

واعلم أن لك فى قوله : « أجرت وأمات » فائدة أخرى زائدة على ما ذكرت هى توفير العناية على اثبات الفعل ، وهى أن تقول : كان من

سوء بلاء القوم ، ومن تكذيبهم عن القتال ما يجر مثله ، وما القضية فيه أنه لا يتفق على قوم الا خرس شاعرهم فلم يستطع نطقا ، وتعـديتك الفعل تمنع من هذا المعنى ، لأنك اذا قلت ولكن الرماح أجرتنى ، لم يمكن أن يتأول على معنى أنه كان منها ما شأن مثله أن يجر قضية مستمرة فى كل شاعر قوم ، بل قد يجوز أن يوجد مثله فى قوم آخرين فلا يجـــر شاعرهم ، ونظيره انك تقول : قد كان منـك ما يؤلم ، تريد ما الشرط فى مثله أن يؤلم كل أحد وكل انسان ، ولو قلت : ما يؤلمنى لم يفد ذلك ، لأنه يجوز أن يؤلمك الشيء لا يؤلم غيرك ، وهكذا قوله : ولو أن أمنا تلاقى الذى لاقوه منا لملت ، يتضمن أن من حكم مثله فى كل أم أن تمل وتسأم وان المشقة فى ذلك الى حد يعلم أن الأم تمل له الابن وتتبرم به ، مع ما فى طباع الأمهات من الصبر على المكاره فى مصالح الأولاد ، وذلك أنه وان قال (أمنا) فان المعنى على ان ذلك حكم كل أم مع أولادها ، ولوقلت (لملتنا) لم يحتمل ذلك لأنه يجرى مجرى ان تقول : لو لقيت أمنا ذلك لدخلها ما يملها منا ، واذا قلت : ما يملها منا فقيدت ، لم يصلح لأن يراد به معنى العموم ، وأنه بحيث يُمِلّ كل أم من كل ابن ، وكذلك قولـــه : « الى حجرات أدفأت وأظلت ، لأن فيه معنى قـــولك : حجـــرات من شـــــأن مثلهـــا أن تدفىء وتظــل ، أى هى بالصفة التى اذا كان انبيت عليها أدفأ وأظل ، ولا يجيء هذا المعنى مع اظهـــار المفعول ، اذ لا تقول : حجرات من شأن مثلها أن تدفئنا وتظللنـــا ، هذا لغو من الكلام ، فاعرف هـــذه النكتة فانك تجدهـــا فى كثير من هـــذا الفن مضمومة الى المعنى الآخر (١) الذى هو توفير العناية على اثبات الفعـــل ، والدلالة على أن القصد من ذكر الفعل أن تثبته لفاعله لا أن تعلم التباسه بمفعوله »(٢).

---

(١) يقصد النوع الأول من حذف المفعول ، وهو الذى ينزل فيه الفعل المتعدى منزلة اللازم ، ولا ينوى له فى النفس مفعول أصلا .

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٨٩ ــ ١٩١ .

وهذا المعنى الذى ذهب اليه عبد القاهر فى حذف المفعول ، وهـو توفر العناية باثبات الفعل للفاعل دون النظر الى مفعول خاص ، قـد اتجه فيه الخطيب وجهة أخرى مؤسسة على كلام عبد القاهر وهى أن الفعل المتعدى حينئذ والذى تعلق بمفعول عام يتفق مع غرض المتكلم يكون كناية عن هذا الفعل مقيدا بمفعول خاص هو المفعول الحقيقى لهذا الفعل .

ففى قول البحترى السابق : شجو حساده وغيظ عداه ... يكون مطلق رؤية كل مبصر ، ومطلق سـماع كل واع ، كنـاية عن رؤية آثار الممدوح ، وسماع الواعى أخباره ، ووجه هذه الكناية هو اللزوم بين العام والخاص ، اذ يلزم من مطلق رؤية مبصر ، رؤية آثار الممدوح ، ويلزم من مطلق سماع كل واع سماع أخبار الممدوح ، فتحقق التلازم الذى هو شرط الكناية ، وكان فى حذف المفعول هنا لارادة العموم دليلا على اثبات المفعول الخاص المنوى فى النفس ، كما هو الشأن فى الكناية التى تثبت المعنى مع الدليل ، وهكذا يقال فى بقية الشواهد .

ولعل الخطيب بهذه الوجهة قد حاول أن يدرج هـذا التصرف فى حذف المفعول هنا ، والذى ذهب اليه عبد القاهر تحت مصطلح التصرف فى فنون القول ، وأن يضع له قانونا من قوانين البلاغة ، وهو — كما نرى — مؤسس على وجهة نظر الامام .

هذا ومن قبيل حذف المفعول لهذا الغرض أيضـا قوله تعـالى : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى الى الظل .. » (١) حيث حذف مفعول هذه الأفعال : يسقون — تذودان — نسقى — فسقى ... والتقدير

(١) القصص ٢٣ — ٢٤ .

يسقون أغنامهم أو مواشيهم ، تذودان : غنمهما ، لا نسقى غنمنا فسقى لهما غنمهما ، وحذف المفعول هنا ليتوفر كمال العناية باثبات الفعل لفاعله ، ليتحقق الغرض المقصود من العبارة ، وهو أن موسى عليه السلام أشفق على هاتين المرأتين لضعفهما وعجزهما عن الوصول الى الهدف فى وسط هذا الزحام الشديد من الناس فى السقى ، فالسقى فى ذاته فى هذه الظروف موجب لشفقة موسى ومعاونته لهاتين المرأتين، أيا كان المسقى ، غنما أم ابلا ، فذكر المفعول هنا لا قيمة له ، لأنه خارج عن الغرض ، بل قد يوهم خلافه ، وكأن موسى عليه السلام لو وجد المرأتين يسقيان ابلا لا غنما لما كانت منه هذه المعاونة ، كما تقول لانسان مثلا : لا تؤذ أخاك ، فانك فى هذه الحالة لا تنكر منه الايذاء فى حد ذاته وانما تنكر منه ايذاء أخيه ، لأن ذكر المفعول يقيد غرض الكلام به، وعلى ذلك يكون تقدير المعنى فى حذف المفعول هنا فى هذا الشاهد أنه كان من الناس سقى ، وكان من المرأتين ذود ، وأنهما قالتا : لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء ، ثم كان من موسى عليه السلام سقى لهما •(١)

هذا وقد عد السكاكى(٢) الحذف فى هاتين الآيتين لمجرد الاختصار، والحق ما ذهب اليه الامام عبد القاهر كما هو واضح مما سبق •

الثانى : من حالى حذف مفعول الفعل المتعدى أن يقصد تعلق الفعل بمفعول ، وأن يراعى فى الكلام ، وأن يقدر حسب القرينة الدالة عليه من العموم أو الخصوص ، فان كان اللفظ المدلول عليه بالقرينة عاما يقدر المفعول عاما كما فى قوله تعالى : « والله يدعو الى دار السلام » (٣) أى

---

(١) انظر دلائل الاعجاز ص ١٩١ •
(٢) ينظر مفتاح العلوم ص ١١٠ •
(٣) يونس ٢٥ •

يدعو كل أحد أو جميع الناس الى دار السلام ، وان كان المدلول عليه بالقرينة خاصا يقدر المفعول خاصا كما فى قول عائشة رضى الله عنها : « كنت أغتسل أنا ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) من اناء واحد ، فما رأيت منه ولا رأى منى » أى العورة •

ومن هنا يجب تقدير المفعول ، لانه حذف لغرض معين ، وحيث وجب تقديره كان كالمذكور ، اذ المقدر فى عرفهم كالثابت •

وحذف المفعول هنا يدخل تحت الاطار العام المسوغ للحذف فى اللغة العربية ، وهو وجود الغرض الداعى للحذف ، واقتضاء المقام اياه ، ثم وجود القرينة الدالة على المحذوف ، ولا يسوغ حذف بدون هذين الأمرين معا •

ونذكر فيما يلى أهم الأغراض الموجبة للحذف :

١ — البيان بعد الابهام كما فى فعل المشيئة وما فى معناه كالارادة والمحبة ، اذا وقع شرطا ، ولم يكن تعلقه بالمفعول المحذوف غريبا ، كما فى قوله تعالى : « ولو شاء لهداكم أجمعين » (١) فمفعول الفعل شاء محذوف ، والتقدير : « ولو شاء هدايتكم لهداكم » وذكر الفعل « شاء » يدل على أن هناك مفعولا يتعلق بهذه المشيئة ، فاذا ذكر جواب « لو » دل هذا الذكر على هذا المفعول دلالة واضحة بعد أن دل شرط « لو » عليه دلالة اجمالية ، وهذا هو سر الحذف وهو البيان بعد الابهام أو التفصيل بعد الاجمال ، وله أثره القوى فى النفس ، اذ ان فعل الشرط عندما دل على المفعول اجمالا تعلقت النفس بتفصيل هذا الاجمال ونطلعت الى ما يزيل هذا الخفاء ، فاذا ذكر الجواب وصلت الى مقصودها ، وتحقق مرادها الذى تطلعت اليه ، فيقع فيها موقع الماء من ذى الغلة الصادى كما يقولون :

---

(١) النحل ٩ .

ومثل ذلك قول البحترى :

لو شئت عدت بلاد نجد عودة فحللت بين عقيقه وزروده(١)

أى لو شئت عيادة بلاد نجد لعدتها ٠

وقوله أيضا :

يا يوسف بن سعيد والغنى للمعمد العزمات غير مساعد
لو شئت لم تفسد سماحة حاتم كرما ولم تهدم مآثر خالد(٢)

أى لو شئت عدم افساد سماحة حاتم لم تفسدها ، ولو شئت عدم هدم مآثر خالد لم تهدمها ، فقد حذف مفعول المشيئة فى الموضعين ، والحذف هنا فى حالة النفى كما كان الذى قبله فى حالة الاثبات ٠

وقول طرفة بن العبد :

فاذا شئت لم ترقل وان شئت أرقلت
مخافة ملوى من القد محصد(٣)

يصف ناقته بأنها طوع امره ان شاء أسرعت وان شاء أبطأت خوفا من سوطه ٠

أى فاذا شئت عدم ارقالها لم ترقل ، وان شئت ارقالها أرقلت ٠

ومثال ما فى حكم فعل المشيئة قول الشاعر :

ولو أنى استطعت خفضت طرفى فلم أبصر به حتى أراكا

أى لو استطعت خفض طرفى خفضته ٠

---

(١) العقيق والزرود بفتح الزاى موضعان بنجد ٠

(٢) حاتم هو حاتم الطائى المعروف بكرمه ، وهو عبد الله بن سعد الطائى ، و « خالد » هو ابن الأصبع أحد أشراف العرب ٠

(٣) الارقال : السرعة ، والقد : بكسر القاف السوط من الجلد ، والملوى والمحصد : المفتول منه ٠

ومن هذا ترى أن مفعول فعل المشيئة أو ما فى معناها يقدر دائما من مصدر فعل الجواب ، وأنه لا يذكر للغرض المذكور ، ولو ذكـــر لكان لفظا غثا ، وكلمة رديئة لم تقع فى موقعها المناسب .

أما اذا كان مفعول المشيئة غريبا لم يجربه الالف والعـــادة فانك تذكره ليتقرر فى النفس ، ويثبت فى الذهن مع غرابته ، كما فى قولك : لو شئت أن ألقى الأمير كل يوم لقيته ، ولو شئت ان أرد على الخليفـــة رددت عليه ، فلقاء الأمير كل يوم ، والـــرد على الخليفـــة من الأمور الغريبة وخصوصا من عامة الناس ، ولهذا تجد المفعول مذكورا فى قوله جل شأنه : « لو أراد الله أن يتخذ ولدا لا اصطفى مما يخلق ما يشـــاء سبحانه » (١) اذ من الغرابة بمكان أن يتخذ رب العالمين ولدا .

ومن هذا القبيل قول أبى الهندام الخزاعى يرثى ابنه :

ولو شـــئت أن أبكى دما لبكيتـــه
عليه ولكن ساحة الصـــبر أوســـع
وأعـــددته ذخـــرا لكـــل ملمـــة
وســـهم الرزايا بالذخائر مولـــع
وانى وان أظهرت منى جـــلادة
وصـــانعت أعداء عليـــه لموجع

والشاهد فى قوله : ولو شئت أن أبكى دما لبكيته ، حيث ذكـــر فعل المشيئة هنا لغرابته ، وهو أن أبكى دما ، لأن بكاء الدم بدل الدمع ليس من الأمور المألوفة المعروفة .

هذا وكان من الممكن للشاعر أن يتصرف تصرفا آخر يحذف معـــه المفعول دون اخلال بالمعنى ، كأن يقول ولو شئت بكيت دما عليه ، ولكن

---

(٢) الزمر ٤ .

لما كان مفعول المشيئة هنا غريبا ، لأنه بكاء دم آثر الشاعر أن يذكـره مرتين : مرة بصريح اللفظ فى قوله : أن أبكى دما ، ومرة أخرى بضميره فى قوله : لبكيته ، ليتقرر هذا المفعول الغريب فى النفس ، ويثبت فيهـا لعدم الفها به .

هذا وليس من قبيل ذكر مفعول المشيئة لغرابته قول أبى الحسن على بن أحمد الجوهرى أحد شعراء الصاحب ابن عباد :

فلم يبق منى الشوق غير تفكيرى ... فلو شئت أن أبكى بكيت تفكـرا

فلا يقال هنا : انه ذكر مفعول المشيئة لغرابته كمـا فى المثـال السابق ، لأن بكاء التفكر غير مألوف ولا معروف لأنا نقول : أن مفعول المشيئة هنا مذكور لعدم قيام الدليل عليه ، لأن المراد بالبكاء الأول فى قوله : أن أبكى : بكاء الدموع ، والبكاء الثانى بكاء التفكر كما صرح به ، لأنه يريد أن الشوق قد قضى على ، ولم يبق منى شيئا غير تفكرى فيه فاذا ما حاولت البكاء العادى وهو بكاء الدموع لم أستطع ، وانما بكيت تفكرا ، لأن التفكر هو الذى بقى لى ، وهذا على حد قول المتنبى :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل ... لولا مخاطبتى اياك لم ترنى

أى أنه قد قضى عليه النحول ، وبلغت به النحافة حدا أصـبح معها لا يرى ، ولا يدرك منه الا كلامه ولو حذف مفعول المشيئة فى قول الجوهرى ، فقال : لو شئت بكيت تفكرا لم يفهم مفعول المشيئة المقصود وهو بكاء الدمع ، اذ يفهم أنه لو شاء بكاء التفكر لبكاه ، وهـذا غـير مقصود .(١)

٢ ــ دفع توهم ارادة غير المراد ابتداء كما فى قول البحترى يذكر دفع المدوح عنه عاديات الزمان ، وجميل معونته له :

(١) انظر الدلائل ص ١٩٦ .

وكم ذدت عنى من تحامل حادث ... وسورة أيام حززن الى العظم (١)

يقول : انك دفعت عنى حوادث الزمان وشدة الأيام وقسوتها التى بلغت الغاية فى قسوتها وشدتها ، والشاهد فى قوله : « حززن الى العظم » فقد حذف مفعول الفعل : حززن ، والتقدير : حززن اللحم الى العظم ، ولو ذكر المفعول لتوهم السامع قبل أن يذكر «الى العظم» أن هذا الحز لم يصل الى العظم ، وانما كان سطحيا غير نافذ أو غائر، فأزال المتكلم هذا الوهم منذ البداية • (٢)

ولا يقال : انه كان من الممكن أن يذكر المفعول به مؤخرا بعد ذكر الى العظم ، حتى لا يقع هذا الوهم (٣) ، لأنا نقول ان ذكره بعد ذلك لا قيمة له ، لدلالة الكلام عليه • ومثل ذلك قولك : شربت حتى الثمالة ، وقرأت حتى آخر صفحة •

٣ — ارادة ذكر المفعول مرة ثانية بحيث يقع عليه الفعل صراحة دون ضميره ، لكمال العناية بوقوع الفعل عليه ، كما فى قول أبى عبادة البحترى :

قد طلبنا فلم نجد لك فى السؤ ... دد والمكارم والمجد مثلا (٤)

يريد أنه لا نظير له ، فى السيادة والشرف ، وقد حاولوا أن يعثروا على هذا النظير فلم يجدوه •

---

(١) « كم » فى البيت خبرية ، وسورة الأيام : شدتها ، وحززن : قطعن •

(٢) انظر دلائل الاعجاز ص ١٩٩ •

(٣) فيقول : حززن الى العظم اللحم •

(٤) السؤدد : السيادة والشرف •

وهنا تلاحظ أنه حذف مفعول الفعل : طلبنا ، لأنه سيذكره مرة ثانية مفعولا لفعل آخر هو « نجد » ، وأصل الكلام : قد طلبنا مثلك فلم نجده ، الا أن الشاعر آثر حذف المفعول من الفعل الأول ليتسنى له ذكره صراحة مع الفعل الثانى ، بقصد ايقاع هذا الفعل المنفى على المثل صراحة دون ضميره ، لأنه يعتنى بابراز عدم وجود المثل ولا يعتنى مثل هذه العناية بطلب المثل ، لأن طلب المثل فى حد ذاته يوهم أن له مثلا ، لأن النفس — عادة — لا تطلب غير الموجود ، وايقاع النفى على المماثل صراحة أوقع فى النفس ، وأنسب بالمدح من ايقاعه على الضمير وان كان راجعا اليه ، ولهذا تجدهم يظهرون فى موضع الاضمار أحيانا لشدة عنايتهم بالمظهر ، وهذه دقة فى صنعة الكلام تتفق مع شعور النفس ، واحساسها بالمعنى ، وكمال التعبير عنه ، ولهذا أيضا نجد ذا الرمة قد خالف هذا الصنيع فى حذف المفعول من الأول لذكره صراحة مع الثانى ، فذكر المفعول صراحة مع الأول ، وأوقع الثانى على ضميره ، ليكون هذا الصنيع متسقا مع حسه وشعوره فى قوله :

ولم أمدح لأرضيه بشعرى ... لئيما أن يكون أصاب مالا

فلما كان غرضه الأصلى نفى المدح عن اللئيم أوقع هذا الفعل المنفى على اللئيم صراحة ، ولما كان ارضاء اللئيم علة لنفى المدح عنه ، كان تابعا للغرض المقصود ، ولذاك أوقع هذا الفعل على ضمير اللئيم، ولو عكس فقال : ولم أمدح لأرضى بشعرى لئيما ، كما صنع البحترى هناك ، لكانت العبارة قاصرة عن الوفاء بالغرض(١) .

هذا ويجوز أن تكون نكتة الحذف هنا فى بيت البحترى : البيان بعد الابهام ، أو التحرج عن مواجهة الممدوح بطلب مثل له ، لأنه لايطلب — عادة — الا الموجود كما ذكرت ، أو المحافظة على الوزن كما سيأتى :

٤ — قصد التعميم فى المفعول المحذوف مع الاختصار كما فى قولك : قد كان منك ما يسر ، أو ما يؤلم ، أى ما يسر كل أحد ، وما يؤلم كل أحد ، فحذف المفعول للدلالة على عمومه ، ومنه قوله جل شأنه : « والله يدعو الى دار السلام » (١) أى يدعو كل أحد أو جميع الناس ، لأن الدعوة الى الجنة لا يختص بها أحد دون الآخر ، وانما قلنا : مع الاختصار ، لأن ذكر المفعول فى مثل ذلك يدل على العموم أيضا ، ولكن فى الحذف الميزتان معا هما الدلالة على العموم والاختصار أيضا .

٥ — استهجان التصريح بالمفعول كما فى قول عائشة السابق : « ما رأيت منه ولا رأى منى » أى العورة ، وقد يكون الحذف هنا للاشارة الى تأكيد الأمر بستر العورة حسا ، ليتفق الستر اللفظى مع الستر الحسى ، وهذا ملحظ دقيق .

٦ — رعاية الفاصلة فى النثر ، أو مراعاة الوزن فى النظم ، فالأول كما فى قوله تعالى : « والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى »(٢) أى وما قلاك ، فقد حذف المفعول هنا لرعاية فواصل الآيات ومحافظة على التوازن النغمى فى الختام ، ويجوز أن يكون الحذف للاختصار ، أو لعدم ايقاع القلى من الله على الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن طريق ذكر ضميره ، وان كان القلى منفيا ، اذ النفى فرع الاثبات ، ونفى الشىء يجعل ثبوته يخطر بالبال ، حتى ولو كان غير مراد .

ومثال الثانى قول الشاعر :

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم

---

(١) يونس ٢٥ .

(٢) الضحى ١ — ٣ .

يريد : فأعلاها ، فحذف المفعول وهو الضمير للحفاظ على وزن البيت .

هذا وقد يقال : ان رعاية الفواصل ، أو مراعاة الوزن من مقتضيات علم البديع ، اذ هو المختص برعاية وجوه تحسين الكلام ، لأنا نقول : انه لما ذكرت بعض الفواصل فى الكلام على نغمة معينة ، وذكر بعض الوزن فى البيت على نغمة معينة أيضا كان مقام التعبير يقتضى أن يراعى ذلك فى بقية الكلام ، وكان عدم الرعاية حينئذ خروجا عما اقتضاه مقام التعبير فى الكلام ، وعلى ذلك يكون المراد بالمقام ما هو أعم من مقام مراعاة مقتضى الحال ، ومقام مراعاة صفة الكلام ، ومراعاة المقتضى بصفة عامة من علم المعانى ، على ان وجوه تحسين الكلام قد يقتضيها المقام كما تلاحظه فى قوله جل شأنه : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء .. » (١)

فان مقام التعبير عن طلاقة القدرة بالنسبة لله تعالى وعمومها ، اقتضى هذا المحسن البديعى وهو الطباق فى الآية الكريمة ، كما سيأتى فى موضعه من علم البديع .

٧ ــ قصد الاختصار المجرد عن أى اعتبار من عموم فى الفعل أو خصوص فيه ، وذلك عند قيام القرينة الدالة على أن المراد مجرد الاختصار ، كما فى قولهم : أصغيت اليه ، أى أذنى ، وأغضيت عنه ، أى بصرى ، فحذف المفعول لمجرد الاختصار .

وقد جعل السكاكى من الحذف لهذا الغرض حذف المفعول فى قوله

(١)

جل شأنه : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ٠٠»(١) وقد بينا ما فيه قبل ذلك٠

هذا وليس من الحذف لمجرد الاختصار العارى عن نكتة أخـرى قوله تعالى : « رب أرنى أنظر اليك » (٢) ، ولا قوله تعالى : « ولا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » (٣) وتقدير المفعول فى الأولى : أرنى ذاتك ، وفى الثانية تعلمون أنه لا يماثل ، أو تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت، أو تعلمون أنها لا تفعل كفعله ، لأن فى الحذف هنا دلالة دقيقة ربمالايفطن اليها ، ولعلها ترجع الى أدب سيدنا موسى عليه السلام وحيائه من أن يطلب من ربه طلبا صريحا واضحا رؤية ذاته ، بل أشـار الى الطلب دون أن يصرح بالمطلوب ، لأنه ذو الجلال والاكرام ، أو للاشارة الى أن ذات الله سبحانه وتعالى لا تحيط بها رؤية من بشر ، ولذلك صرح بطلبه دون أن يصرح بمتعلقه ، لانه لايدرى كيف يتحقق هذا الطلب ، ولا كيف تتم الرؤيـــة ، ولذلـك كـــان مـا كـــان من تجلى ربه للجبل ، ومن أثر ذلك على موسى عليه الســـلام كما تشير اليـه الآية الكريمة بعد ذلك : « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكـا وخر موسى صعقا فلمـا أفاق قال سبحانك ٠٠ » (٤)

أو يقال : ان المفعول الثانى هنـا للفعل غير مراد ، بل المراد : اجعلنى أرى ، وأعطنى قدرة على رؤية جديدة حتى أسـتطيع أن أنظر اليك ،

---

(١) ينظر مفتاح العلوم ص ١١٠ ٠
(٢) الأعراف ١٤٣ ٠
(٣) البقرة ٢٢ ٠
(٤) الأعراف ١٤٣ ٠

لانه ببشريته هذه ، وبمواصفاته التى عليهـا قبل الرؤيـة لا يستطيع أن ينظر الى ربه ، كما تشير الى ذلك الآية الكريمة(١) •

وأمـا الاية الثانية فلعل الفعل فيهـا منزل منزلة الـلازم على النحـو السـابق ، على معنى : فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم مـن أهل العلم ، أى من أهل النظـر والتفكر ، لأن مجـرد اثبـات ذلك أى العلم لكـم كـاف فى عـدم جعل الانداد لـه ، لان ذلـك أمـر مستحيل لا يخفى على ذى علم•

وليس أيضا من قبيل الحـذف لمجـرد الاختصـار قوله تعالى : « واذا رأوك ان يتخذونك الاهزوا أهـذا الذى بعث الله رسولا » (٢) أى بعثه الله رسـولا ، لان فى الحـذف تعبيرا عن حـال نفوسهم من الحقد والكراهية للرسول ، فكأنهم يتحاشون ذكره ، لان نفوسهم لا تطاوعهم على هـذا الذكر •

وقـد يحـذف المفعول لاغراض أخرى غير ذلك كقصد اخفـاء المفعول عن السامعين خـوفا عليه كمـا فى قولك : الامير يحب ويبغض ، أو للتمكن من انكـاره ان مسـت الحاجة الى ذلك كمـا فى قولك : لعن الله وأخزى ، أو لايهـام صونه عن لسـانك كمـا فى قولك : نحـب ونقدر — أى المصطفى عليه الصلاة والسلام ، أو صون لسـانك عنه كمـا فى قولك : طرد الله ولعن أى ابليس •• الى غير ذلك من اللطائف الدقيقة التى تستدعى حذف المفعول ، والتى قال عنها عبد القاهر : «كأنها فيه تكثر ، وما يظهر بسببـه (الحذف) من الحسـن والرونـق احب وأظهـر » (٣) •

---

(١) ينظر خصائص التراكيب ص ٢٨٥ •
(٢) الفرقان ٤١ وينظر مفتاح العلوم للسكاكى ص ١١٠ •
(٣) دلائل الاعجاز ص ١٨٥ •

ثانيا : تقــديم متعلقات الفعل عليه :

الأصل فى متعلقات الفعل كالمفعول ونحــوه من الجار والمجــرور والظرف والحــال ... الخ أن تتأخر عنــه ، وقــد تتقــدم عليــه لغرض معين هو : افادة الاختصاص : أى قصر الفعل على متعلقه المقدم عليه بحيث لا يتعداه الى غيره ، كما فى قولك : محمدا لقيت، فقد قصرت اللقــاء على محمد ردا على من اعتقد أنك لقيت غيره فيكون قصر قلب، أو على من اعتقد اشتراك محمد مع غيره فى اللقــاء فيكون قصر افراد ، أو على من ردد اللقاء بين محمد وغيره فيكون قصر تعيين ، ولذلك اذا أردت توكيد القصر فى الحالة الأولى قلت : لا غيره ، وفى الثانيــة قلت : وحــده ، فيكون منطوق لا غيره أو وحده موافقا لمفهوم العبارة الأولى :

ومن افــادة التقديم القصر قوله تعــالى : « اياك نعبد واياك نستعين » (١) أى نخصك بالعبادة والاستعانة دون غيرك .

وبهذا يتضح أنه لا خلاف بين المتكلم والمخاطب فى وقوع الفعل المذكور ، وانمــا الخــلاف فيمن وقــع عليه الفعل .

ولذا لا يجوز أن تقول : ما محمدا لقيت ولا غيره ، لأن تقــديم المفعول يفيد القصر الــذى يقضى بنفى اللقــاء عن محمد خاصة وثبوته لغيره ، فــاذا قلت ولا غيره ، كان عجــز العبارة مناقضا لصدرهــا ، فالصواب أن تقول : ما محمدا لقيت فقط ، أو تقول : ما لقيت محمدا ولا غيره ، لأن تأخير المفعول لا يفيد قصرا .

---

(١) الفاتحة ٥ .

وكذلك لا يجوز أن تقول : ما عليا أهنت لكن أكرمته ، لأن تقديم المفعول هنا يفيد القصر كما علمت ، وهو يقضى أن الفعل وهو الاهانة محل اتفاق بين المتكلم والمخاطب ، ولكن النزاع فيمن وقع عليه الاهانة ، فاذا نفيتها عن على كان مقتضى ذلك أن تقع على غيره ، واذا قلت بعد ذلك : لكن أكرمته ، أفاد ذلك أن الخلاف ليس فيمن وقع عليه الفعل ، بل فى نوع الفعل ذاته ، هل هو اكرام أو اهانة ، وهذا مناقض للجملة الاولى ، وعلى ذلك فالصواب أن تقول : ما عليا أهنت » فقط ، أو تقول : ما عليا أهنت لكن خالدا .

هذا اذا كان التقديم مقصودا به الاختصاص كما هو الغالب الكثير ، وأما اذا كان المقصود به مجرد الاهتمام بأمر المقدم ، أو الاستلذاذ بذكره أولا دون قصد لمعنى القصر فان المثالين يجوزان ، لأنك فى الأول لم تقصد الا الى الاهتمام بنفى اللقاء عن محمد دون قصد الى نفى اللقاء أيضا عن غيره أو ثبوته له ، وفى الثانى تقصد الى الاهتمام بنفى الاهانة عن على وهذا لا ينافى ثبوت الاكرام له .

ومثل المفعول فى ذلك سائر المتعلقات الأخرى حيث يفيد تقديمها الاختصاص غالبا كما فى قولك : فى المنزل جلست ، وعند صديقى استرحت ، وراكبا قدمت ، واحتراما لوالدى وقفت .. ومن افادة تقديم المتعلق على الفعل الاختصاص قوله تعالى : « لالى الله تحشرون » (١) أى تحشرون الى الله لا الى غيره ، وتأمل قوله تعالى : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٢) تجد تأخر الجار والمجرور (على الناس) على شبه الفعل (شهداء) فى الأول لعدم الدلالة على الاختصاص ،بل المراد اثبات شهادتهم على الأمم ،ثم تجد بعد ذلك

---

(١) آل عمران ١٥٨ .
(٢) البقرة ١٤٣ .

تقــدم الجــار والمجرور (عليكم) على (شهيدا) مع الرسول لافادة الاختصاص، أى أن شهــادة الرسول مقصورة عليكم فى هــذه الآية، وليس الغرض مجرد اثبات شهادة الرسول عليهم •

ومما ينبغى أن يعلم أن محل كون تقديم المفعول ونحــوه مفيدا للاختصاص قطعــا اذا كان الغرض يستدعى ذلك، اذا لم يشتغل الفعل بضمير المفعول المقدم كما فى قولك: محمدا أكــرمت كمــا ســـبق، أما اذا اشتمل الفعل بضمير المفعول المقدم كما فى قولك: محمـــدا أكرمته احتمل الكلام افــادة التخصيص أو التأكيد حســب تقــدير الفعــل المحذوف الذى يفسره المذكور، فان قدرته مؤخرا عن المفعول أفاد التقديم الاختصاص بتقديم المفعول على عامله، وأفاد التــأكيد أيضا، لأن الفعل المقدر كالثابت، وذكره بعد ذلك مفسرا للمحــذوف يفيد التاكيد أيضا، فكأن الفعل ذكر مرتين، وكأنك قلت: محمـــدا أكرمت أكرمته، وان قــدر الفعل مقــدما على المفعــول، أى أكرمت محمد أكرمته أفاد الكلام التأكيد فقط حيث كان فى حكم ذكر الفعـــل مرتين، ولم يفد التخصيص لعدم تقدم المفعول •

فصورة الاشتغال محتملة للأمرين على حسب تقدير المحذوف كمــا بينت، والذى يعين أحدهما دون الآخــر هو الغرض المســوق له الكــلام، والقرائن التى تحــدد المراد •

ولا ينبغى أن يخفى عليك أن التقديم — غالبا — مفيد للاختصاص، يشهــد بذلك الذوق الســليم والاستقراء، كمــا أن كل اختصــاص فيه اهتمــام بأمــر المقــدم، وعناية بــه، ولهــذا ينبغى أن يقــدر متعلق الجار والمجرور فى «بسم الله» مؤخرا لافادة الاختصـــاص والاهتمــام معــا، أى بسم الله أفعل كذا، للرد على من كانوا يبدءون أعمالهم من الكفــار باسم غيره، فيقولون: باسم اللات أو العزى، أو باسم الهبل الأعلى، ونحو ذلك، ولذلك كان القصد بتقديم الاسم

الكريم الرد عليهم ، كما قصد به أن يكون عنوانا على الاهتمام به تحديا لهم ، وتبركا باسمه ٠

واذا كان الكفار يقصدون بقولهم : باسم اللات مثلا لا باسم غيرها كان القصر المفاد بالتقديم فى « بسم الله » من قصر القلب ، وأما اذا كان مقصودهم باسم اللات لتقربنا الى الله زلفى كما يدعون ، كان القصر المفاد بالتقديم قصر أفراد نفيا لهذه الشركة فى العبادة التى ادعوها كذبا وبهتانا ٠

هذا وقد يعترض على تقدير الفعل مؤخرا فى « بسم الله » لافادة الاختصاص والاهتمام بأمر المقدم بقوله جل شأنه : اقرأ باسم ربك الذى خلق »(١) حيث قدم الفعل هنا على متعلقه فلم يفد اختصاصا ولا اهتماما مع أن القرآن الكريم مستودع البلاغة الزاخر ، ومعينها الفياض ، ويمكن أن يجاب عن هذا الاعتراض بجوابين :

الأول : أن هذه الآية أول ما نزل من القرآن الكريم ، فكان الاهتمام بشأن القراءة أهم ، لأنها الوسيلة لحفظ المنزل وهو القرآن الكريم ، وذكر الله تعالى وان كان أهم فى ذاته ، لكن الاهتمام بالقراءة هنا أمر عارض ، فكان أولى بالتقديم ، ولأن القراءة أيضا وسيلة من وسائل ذكر الله تعالى ، كما أنها وسيلة من وسائل حفظ هذا الكتاب المنزل ، ولذلك صرح بلفظ « اقرأ » مقدما ، وكرر مرة ثانية لتوكيد الاهتمام بأمر القراءة فى هذا الموضع ٠

الثانى : أن يكون « اقرأ » فعلا لازما على نمط ما سبق من قولنا : هو يعطى ويمنع ، أى أوجد القراءة ، ويكون « باسم ربك » متعلقا باقرأ الثانى ، لا الأول ، والباء زائدة لتأكيد الملابسة لافادة

---

(١) العلق ١ ٠

التكرار والدوام ، وعلى ذلك يكون « اقرأ » الثانى مستأنفا استئنافا بيانيا ، وكأنه عليه الصلاة والسلام لما أمر بالقراءة أولا قال : كيف أقرأ ؟ فقيل : اقرأ اسم ربك ، اذكره مكررا ذكره على الدوام ، ويكون الكلام هنا واردا على أصله من تقديم المتعلق على الفعل لافادة الاختصاص والاهتمام بأمر المقدم ، وكمال العناية به .

قلنا فيما سبق ان التقديم يفيد الاختصاص غالبا ، ومن غير الغالب يفيد التقديم بعض أغراض أخرى ، أهمها :

ــ مجرد الاهتمام بأمر المقدم كما فى قولك : العلم لزمت وتكاليف الحياة سئمت .

ــ وكالتعجيل بذكر ما يتبرك به أو يتلذذ ، أو بذكر ما يساء به أو يسر ، وذلك كما فى قولك (على الترتيب) : محمدا صلى الله عليه وسلم زرت ، وليلى وصلت وبسلمى أعجبت ، وبشر منيت ، وخيرا لقيت ، وهذه الأغراض وان كانت تتحقق مع التأخير الا أن التقديم يفيد التعجيل بذكرها .

ــ وككون المعمول محط الانكار ، كما تقول لانسان : أبعد طول التجربة تنخدع بهذه الزخارف ؟ فأنت لا تنكر عليه الانخداع مطلقا ، فهذا أمر كثيرا ما يقع فيه الناس ، وانما تنكر عليه أن يكون هذا الانخداع بعد طول التجربة ، ومثله قولك : أفى النهار تنام وتترك عملك ؟ فقد أنكرت عليه النوم فى النهار وترك العمل . ولم تنكر عليه النوم مطلقا .

ومن ذلك قول الشاعر :

أحين عسا غصنى طرحت حبائلى ... الى فهلا ذاك وهو رطيب(١)

فهو ينكر عليها تحولها عنه ، وطرح حبل وداده حين ولت زهرة

---

(١) عسا غصنى : يبس وذبل .

شبابه ، ولا ينكر عليها ذلك مطلقا ، بل فى هذه السن التى وصل اليها ، فليس عندها وفاء .

ومن هذا أيضا قول الشاعر :

أكل امرىء تحسبين امرءا ونار توقــــد بالليل نارا

فتقديم المفعول هنا (كل) أفاد انكاره عليهـــا حســـبانها كل الناس سواسية ، لا فرق بين كامل وناقص ، وحسبانها كل نار توقــد بالليل نار كرم وضيافة .

— وكموافقة كـــلام السامع كمـــا فى قولك : الله دعوت ، وبالنبى تشفعت فى جواب من قال : من دعوت ؟ وبمن تشفعت ؟

— وكالمحافظة على النظم أو رعاية الفاصلة ، فالأول نحـــو قول الشـــــاعر :

سريع الى ابن العم يلطم وجهــه وليس إلى داعى الندى بسريع

فقــد تــدم قــوله « الى داعى الــندى » على قوله « بسريع » محافظة على الوزن .

والثانى كما فى قوله جل شأنه : فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر » (١) ويجوز أن يكون التقديم هنا لتصحيح اللفظ ، لأن أما التفصيلية لا تليها كلمة مقترنة بالفاء ، ومن ذلك ايضا على رأى بعض البلاغيين قوله تعالى : ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » (٢) ويجوز أن يكون التقديم فى الآيتين للاختصاص بمعنى لا تصلوه الا الجحيم ، ولا تسلكوه الا فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا ، والأوفق أن يكون التقديم للغرضين معا ، لأن النكات لا تتزاحم كما مر بنـــا غير مرة .

---

(١) الضحى ٩ ــ ١٠ .
(٢) الحاقة ٣١ ــ ٣٢ .

ثالثا : تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض :

أمـا تقديم بعض متعلقات الفعل علـى بعض فان ذلك يرجع الى أغراض عديدة نبرز جانبا منهـا على النحو التالى :

يقدم بعض المتعلقات على بعض لأن الأصل فى البعض التقـديم ولا مقتضى للعدول عن هـذا الأصل ، كتقديم الفـاعل علـى الفعل فى قولك : هزم خالد الأعداء ، فيقدم الفاعل ، لأن حاجة الفعـل اليـه أهم ، وهو كالجزء منه ، ومثل الفاعل فى ذلك المفعول الأول فى نحـو قولك أعرت محمدا كتابا ، لأنه فى معنى الفاعل ، اذ هو الآخذ للكتاب . فان وجد عارض يمنع هذا التقديم للفاعل سواء أكان هذا العـارض لصناعة نحوية كأن يتصل المفعول به بضمير الفاعل كما فى قوله جـل شأنه : « واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات »(١) حيث لو قدم الفـاعل هنا لعاد الضمير على متأخر لفظا ورتبة ، أم كان العارض لأمر يقتضيه المقام ، كأن يكون ذكر المفعـول به أولا أهم كأن يكون هنـاك لص ارتكب عددا من السرقات وبحث الناس عنه كثيرا ، ثم ظفر به شرطى فقتله ، فتقول : قتل اللص الشرطى بنصب اللص ، لأن الاهتمام منصرف الى قتل اللص ، وهـو المفعـول به لا الى الفـاعل ، فالـذى يعنى الناس هنا هو قتل اللص ، ولا يعنيهم من قتله ، سواء أكان شرطيـا أم غير شرطى .

ومن هـذا القبيل : أى قبيل تقديم بعض المتعلقـات على بعض لأهميتهـا قوله تعـالى : ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم » (٢) وقوله جل شأنه فى آية أخـرى مشـابهة : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم » (٣) حيث قدم الاعلام برزق

(١) البقرة [illegible]

(٢) الأنعام [illegible]

(٣) الاسراء [illegible]

المخاطبين أولا ، لأنهم فقراء ، بدليل قوله قبل ذلك : « من املاق » أى فقــر ثم ذكر رزق الأولاد بعد ذلك ، فقــدم ما يهم المخاطبين أولا ، وهو رزقهم لأنهم فقراء .

وفى الآية الثانية قــدم رزق الأولاد أولا على رزق المخاطبين ، لأن المخاطبين هنــا ليســوا فقراء ، بدليل ذكر لفظ « خشية املاق » أى خشية فقر ، فهم ليســوا فقراء فعلا ، فكان الاعلام برزق أولادهم الذين قد يكونون سببا فى فقرهم أهم .

وقد يكون التقديم مرجعه الاسبقية فى الفضل كمــا فى قــوله جل شأنه : وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر » (١) فقدم « رجالا » أى راجلين ، أى مشاة على قوله : وعلى كل ضــامر ، لأن أداء فريضة الحج مشــيا أفضل من أدائها ركوبا ، لتحمل المشــاق الكثيرة فى المشى ، ويقاس عليه الآن وعلى ركوب الابل ما يتحمله الناس فى الحج من مشقة أو يسر ، فالأجر على قدر المشقة (٢) .

وقــد يكون التقديم منظورا فيه الى ترتيب منازل بعض الصفات قوة وضعفا ، كمــا فى قوله جل شــأنه : « ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعــد ذلك زنيم » (٣) فأشنع هــذه الصفات كثرة الايمان الكاذبة ، ثم الغيبة ثم النميمة التى ذكر معها لفظ مشــاء لمناسبته لها ، وتلاحظ أن لفظ « زنيم » قــد ذكر مؤخرا وذيلا لهذه الصفات ، لأن الزنيم دعى منسوب الى غير أبيه،

---

(١) الحج ٢٧ .
(٢) ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنه : وددت لو حججت راجلا . الطراز للعلوى ص ٦٠/٢ .
(٣) القلم ١٣ .

فهو ملحق بمن ينتسب اليهم ، ولذلك كان ذيلا لهذه الصفات (١) ·

وتأمل متعلقات الحب وترتيبها فى قوله جل شأنه : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث » (٢) يقـــول العلوى عن ذلك : « لمـــا صدر الآية بذكر الحب ، وكان المحبوب مختلف المراتب متفاوت الدرجات اقتضت الحكمة الالهية تقديم الأهم فالأهم من المحبـــوبات فقدم النساء على البنين لمـــا يظهر فيهن من قوة الشـــهوة ، ونزوع الطبع ، وايثارهن على كل محبوب ، وقدم البنين على الأموال لتمكنهم فى النفوس ، واختلاط محبتهم بالأفئدة ، وهكذا القول فى ســـائر المحبوبات ، فالنســـاء أقعد فى القلوب ، والبنـــون أقعد فى المحبة من الأموال ، والذهب أكثر تمكنا من الفضة ، والخيل أدخل فى المحبة من الأغنام ، والمواشى أدخل من الحرث » (٣) ·

وأما قوله تعالى : « انما أموالكم وأولادكم فتنة » (٤) فنظـــرا للفظ الفتنة ، لأن الأموال أدخل فى الافتتان من الأولاد ، لمـــا فى المال من تعجيل اللذة والوصول الى كل مسرة ، والتمكن من البسطة والقوة بخلاف آية القناطير ، فقد قـــدم البنين فيهـــا لما ذكرها فى معرض الشهوة وتمكن المحبـــة (٥) ·

---

(١) وقدم هماز على مشاء بنميم ، لأن الهماز هو المغتـــاب ، وهو لا يفتقر الى مشى بخلاف النمام ، وقدم مناع للخير على معتد أثيم ، لأن المنـــع مقصور على النفس والعدوان متعلق بالغير ، وكذلك قدم « عتل » على زنيم ، لان العتـــل هو الفـــظ الغليظ ، والزنيم له تعلق بالغير من جهـــة أنه دعى منسوب الى غيره · ينظر الطراز ٢/٦٠ ·

(٢) آل عمران ١٤ ·

(٣) ينظر الطراز ص ٢/٦٣ ·

(٤) الأنفال ٢٨ ·

(٥) ينظر الطراز [illegible]

وقد ينظر فى ترتيب المتعلقات إلى الكثرة والقلة ، فيقدم الكثير

~~وقد ينظر فى ترتيب المتعلقات الى حال النفس وشعورها~~

ثم القليل ، ثم أقل القليل ، كما فى قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله » (١) فالظالمون لأنفسهم كثير ، والمقتصدون قليل ، والسابقون بالخيرات أقل القيل .

وقد ينظر فى ترتيب المتعلقات الى حال النفس وشعورها ~~الكثرة والقلة ، فيقدم الكثير~~ ، وتصاعد احساسها فى الموقف ، كما فى وصف القرآن لأهوال يوم القيامة ، وتشاغل كل نفس بنفسها ، وفرارها ممن كان يرتبط بها ، اقرأ قوله تعالى : « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » (٢) أرأيت كيف بدا الفرار من الأخ لأنه أقل درجة فى الارتباط من الأبوين ، ثم لما تصاعد الكرب فر من أبويه ، وبقى متمسكا بصاحبته وبنيه ، ثم لما اشتد الكرب فر من صاحبته أيضا وترك بنيه ، وبقى وحده ، فانظر كيف رتبت هذه المتعلقات فى الذكر على وفق ترتيب أحوالها فى النفس (٣) .

وقد تقدم بعض المعمولات لأن فى تأخيرها اخلالا بالمعنى المراد ، كما فى قوله سبحانه : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » (٤) حيث قدم قوله : من آل فرعون على قوله : يكتم ايمانه ، لأنه لو أخر فقيل : وقال رجل مؤمن يكتم ايمانه من آل فرعون ، لما فهم أن هذا الرجل من آل فرعون ، ولتوهم أن قوله « من آل فرعون » من صلة « يكتم ايمانه » ومن تمامها مع أن الغرض بيان أنه منهم لافادة ذلك مزيد عناية الله به ، ورعايته له .

---

(١) فاطر ٣٢ .
(٢) عبس ٣٤ — ٣٧ .
(٣) ينظر خصائص التراكيب ص ٢٩٧ .
(٤) غافر ٢٨ .

وقد يقدم بعض المعمولات على بعض لأن فى تأخير هذا المقدم اخلالا بالتناسب فيقدم هذا البعض للمحافظة على هذا التناسب كما فى قوله تعالى : « فأوجس فى نفسه خيفة موسى » (١) حيث قدم الجار والمجرور والمفعول به على الفاعل مراعاة لتناسب الآى المختومة كلها بالمد ألفا لما فى ذلك من حسن النغم الذى يأخذ بالأسماع كما هو آخذ بأعنة القلوب (٢) .

ولعله من الأوفق أن يضاف لهذا الغرض ، بل ويأتى قبله أن تأخير الفاعل وتقديم الجار والمجرور والمفعول عليه لافادة حصر الخيفة فى نفس موسى عليه السلام دون أن تظهر ملامحها على وجهه ، والتقديم يفيد هذا المعنى ابتداء ، اذ لو جاءت الآية على النسق الطبعى فقيل : فأوجس موسى خيفة فى نفسه لتوهم قبل ذكر الجار والمجرور (فى نفسه) أن هذه الخيفة كانت ظاهرا وباطنا ، فتقدم الجار والمجرور للدلالة منذ البداية على رفع هذا التوهم ، والنص على أنها كانت فى نفسه فقط ، وكذلك يبقى هذا التوهم لو قدم المفعول به على الجار والمجرور ، فقيل : فأوجس خيفة فى نفسه موسى ، وكذلك يضيع مراعاة الفواصل لو قيل : فأوجس فى نفسه موسى خيفة بتقديم الفاعل على المفعول به فقط ، ولذلك لم يكن هناك وضع أدق ولا أوفى بأداء المراد من الترتيب والنسق الذى أتت عليه الآية القرآنية (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) .

هذا وقد تقدم بعض المعمولات على بعض لأن تقديم ما قدم منها أعون على أداء المراد ، وأوفى بالمقصود كما فى قوله جل شأنه : « وجعلوا لله شركاء الجن .. » (٣) حيث أفاد تقديم لفظ « شركاء »

---

(١) طه ٦٧ .

(٢) ينظر الطراز للعلوى ٢/٦٧ .

(٣) الأنعام ١٠٠ .

انكار الشريك مطلقا لله ، سواء أكان من الجن أم من غيره ، ولو تقدم لفظ « الجن » لما أفاد هذا المعنى ، اذ يكون المؤدى إنكار إتخاذ الجن شركاء لله ، دون الاشارة الى انكار اتخاذ غيرهم .
يقول عبد القاهر حول هذه الآية : « ليس بخاف ان لتقدم الشركاء حسنا وروعة ومأخذا من القلوب أنت لا تجد شيئا منه ان أنت أخرت فقلت : وجعلوا الجن شركاء لله ، وأنك ترى حالك حال من نقل عن الصورة المبهجة والمنظر الرائق والحسن الباهر الى الشيء الغفل الذى لا تحلى منه بكثير طائل ، ولا تصير النفس به الى حاصل ، والسبب فى أن كان ذلك هو أن للتقديم فائدة شريفة ، ومعنى جليلا لا سبيل اليه مع التأخير .

بيانه : أنا وان كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى ، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم فان تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ، ويفيد معه معنى آخر ، وهو أنه ما كان ينبغى أن يكون لله شريكا لا من الجن ولا غير الجن ، واذا أخر فقيل : جعلوا الجن شركاء لله لم يفد ذلك ، ولم يكن فيه شيء أكثر من اخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى ، فأما انكار أن يعبد مع الله غيره ، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن فلا يكون فى اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه » .

والواقع أن تقديم بعض المعمولات على بعض باب جليل من أبواب البلاغة ، تكتنفه أسرار عديدة ، ودقائق خفية تنشأ من الدقة فى وضع هذه المعمولات وترتيبها فى الذكر على وفق ترتيبها فى النفس باعتبارات عديدة أشرنا الى بعضها ، وتكاد دقائق هذا الباب لا تنتهى ،

وعجائبه لا تنقضى ، وقـد أشرنا الى بعض من ذلك ليكون نموذجـا يحتذى فى البحث عن أسرار التراكيب وخصائصها ، واذا أردت المزيد فعليك بالوقوف أمام العـديد من أساليب القرآن الكريم وقوفا طويلا متأملا ، تستعين فيه بتحليلات واشارات السلف التى كشفت عن بعض ما هو مطمور من أسرار ودقائق فى هذا الكتاب العزيز الـذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

اللهم لا علم لنـا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ، والحمدلله أولا وآخرا ، وصلى الله على سـيدنا محمد النبى الأمى وعلى آلـه وصحبه وسلم .

د. عبد الجواد محمد محمد طبق
كلية اللغـة العربية بالزقازيق

الهرم فى
٨ ربيع الثانى ١٤٠٦ هـ
٢١ ديسـمبر ١٩٨٥ م

المراجع

١ ـ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى .

٢ ـ بغية الايضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى .

٣ ـ تفسير الخازن .

٤ ـ حاشية الجمل على الجلالين .

٥ ـ حاشية الدسوقى على مختصر سعد الدين التفتازانى .

٦ ـ حاشية سعد الدين التفتازانى على القسم الثالث من المفتاح للسكاكى .

٧ ـ حاشية السيد على المطول .

٨ ـ حاشية الطيبى على الكشاف . مخطوطة بدار الكتب المصرية .

٩ ـ حاشية عبد الحكيم السيالكوتى على المطول .

١٠ ـ حاشية المنير على الكشاف .

١١ ـ خصائص التراكيب . د . محمد أبو موسى .

١٢ ـ دلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجانى .

١٣ ـ الاستعارة التبعية فى البلاغة العربية (رسالة دكتوراه) د . عبد الجواد محمد محمد طبق .

١٤ ـ شرح الكافية للرضى .

١٥ ـ صفوة التفاسير الشيخ محمد على الصابونى .

١٦ ـ الطراز للعلوى .

١٧ ـ الكشاف للزمخشرى .

١٨ ـ مذكرة البلاغة ، الشيخ حامد عونى .
١٩ ـ المطول لسعد الدين التفتازانى .
٢٠ ـ المغنى لابن هشام .
٢١ ـ مفتاح العلوم للسكاكى .
٢٢ ـ المفصل فى علم العربية للزمخشرى .
٢٣ ـ النظم البلاغى بين النظرية والتطبيق ، د . حسين اسماعيل عبد الرازق .
٢٤ ـ يتيمة الدهر للثعالبى .

فهرس الموضوعات

